الإقة الدواة

رؤى وأفكار حول القراءة والكتابة : الحقائق والأوهام والخرافات

تأليف

د. محمد وفيق زين العابدين



إلاقة الدواة

رؤى وأفكار حول القراءة والكتابة:
الحقائق والأوهام والخرافات

تأليف

د. محمد وفيق زين العابدين



إلاقة الدواة
رؤى وأفكار حول القراءة والكتابة: الحقائق والأوهام والخرافات

Ilaqat Al-Dawah: Views and Thoughts on Reading and Writing: Facts, illusions and Superstitionsperiod

المؤلف:
د. محمد وفيق زين العابدين

By:
Dr. Mohamed Wafik Zeinelabdin

مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

بيانات الفهرسة:

التصنيف الرئيسي: تعليم

التصنيف الفرعي: الكتاب، تنمية ذاتية

الصفحات: ٢٣٢

المقاس: ١٤سم × ٢١سم

الترقيم الدولي ISBN: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٠٠٦-٠-٥

رقم الإيداع المحلي: ٢٠٢١/٢٢٤٤٢

القاهرة - دار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

أركان للدراسات والابحاث والنشر
Arkan for Studies Research and Publishing

الموقع الالكتروني: www.arkansrp.com
البريد الالكتروني: info@arkansrp.com
القاهرة

كشاف الموضوعات

كشاف الموضوعات



مقدمة

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

لا ريب أن القراءة والكتابة من توابع العمران، وهما من توابع التعقل كذلك، ميز الله بهما الإنسان عن الحيوان كما ميزه بالعقل، ولذلك لم تظهر حضارة من الحضارات إلا وازدهرت فيها هاتان الملكتان، فهما أثر من آثار الحضارة، وسبب من أسباب استمرارها في زمانها، بل وبعد زمانها في الذاكرة، وكلما كانت القراءة والكتابة أرشد كانت الحضارة أقوى على الاستمرار والازدهار.

إن من أهم الأسباب التي أدت إلى تخلف حاضر الثقافة العربية؛ ترسيخ فكرة أن العرب مُفرطون في إصدار الكُتب، وأن تأليف الكُتب عملية مُعقدة لا يجب الإقدام عليها، وهذا بالضرورة صرف المقبلين على هذا الفن؛ الموهوبين والطامحين والمتجرئين - على حد سواء - إلى عالم الكتابة الوهمية منزوعة القيمة عديمة الأثر، والنتيجة أن سقطت الكتابة العربية في هوة سحيقة، ولم يتبق منها سوى اسمها ورسمها.

وقد كان لهذا أثر مهم في إضعاف القراءة، فأفضل أنواع القراءة هي القراءة لأجل الكتابة، والذي يُعطي الأهمية للكتابة هي القراءة، وما الكتابة - في الحقيقة - إلا تتويج للقراءة، فإذا ضَعُفت الكتابة أُصيبت القراءة في مقتل.

وقد كان القدامى أعظم اهتمامًا بالقراءة، لأنهم كانوا مع قلة

أعدادهم وضعف إمكانياتهم المادية عما نحن عليه الآن أكثر إنتاجًا للكُتب، فحينما كان المسلمون في أوج حضارتهم كان لديهم مئات الآلاف من الكُتّاب والكُتب في شتى العلوم، والخطوة الأولى التي نقلت أوروبا من حال التخلف إلى النهضة كانت نقل كتب المسلمين وترجمتها.

إن الحديث عن القراءة والكتابة صعب وسهل؛ صعب يَنْع وسهل ممتنع، وصعوبتهما لا تكمن في الفكرة ولا الموضوع، إنما في الرفض التام من الجمهور لنصائح القراءة والكتابة؛ ربما بسبب الفوضى الكبيرة في هذه النصائح حتى صارت ميدانًا واسعًا للإفتاء والتدريس والدعوة؛ فقليل يقرأ وكثير ينصح، كثير يكتب وقليل يُتقن!

وهذا الكتاب ليس كتابًا فكريًّا في القراءة، أو تعليميًّا في الكتابة، إنما هو **محض مذكرات قارئ وكاتب**، جمعتُ فيه ما خفي من أخبار المكتبات وقصص المؤلفين، وأهم أقوال الكُتّاب وأجلّها، وغرائب الكُتب وفرائد الكتابة؛ ما حُرق وما احترق، ما أُتلف وما غرق، هنا فوق المائتين مقولة ثمينة، ونحوها قصة قصيرة، قصيرة المبنى عميقة المعنى، أو بعبارة د. **عارف حجاوي**: "القصص الصغيرة أضواء كاشفة نتعب في التقاطها".

مذكرات وقصص وأقوال في أهمية القراءة والكتابة للفرد، وأثرهما في الأُمة، وعالم الكُتب والمكتبات، في القديم والحديث، في الشرق والغرب، ومهارات القراءة المُثمرة، ودورها في الكتابة، مع التركيز على أوهام القراءة وخرافاتها الشائعة، وأفكار شراء الكتب، وصِفات الكاتب الجيد، ولماذا يكتب، وكيف يتعاطى مع الكتابة، وهل هي موهبة أم مهارة مُكتسبة، وما هي دوافعها، وهل

لها سن مُحددة، وكيف تُكتسب مهاراتها وتُزال معوقاتها، وتجارب أشهر الكُتّاب في ذلك، قديمًا وحديثًا، شرقًا وغربًا، وبعض فنون الكتابة المخصوصة؛ كالتلخيص والتهذيب والعرض والتوثيق والفهرسة والترقيم، وغيرها من الفنون التي يحتاجها الكاتب.

لكن لا تعتقد عزيزي القارئ أنك بعد قراءة هذه الموضوعات وهذا الكتاب؛ ستصبح كاتبًا جيدًا أو قارئًا متمرسًا؛ فما أضمنه لك هو أن تعرف أشياء جيدة - من واقع الحياة والتجربة والتاريخ - عن الكتابة وأخرى عن القراءة؛ تُميز بها بين الحقائق والأوهام والخرافات في عالم القراءة والكتابة، وفي هذه اللحظة الواعية المدركة التي تتمكن فيها من التمييز بين هذه الأشياء الثلاثة؛ تأكد أنك أصبحت مؤهلًا لتكون كاتبًا عظيمًا وقارئًا أعظم!



الفصل الأول:
الكتاب

الكتاب من منظور حضاري

لعل أهم فضائل الكتاب من المنظور القيمي الديني؛ أن الدين كله نُقل إلينا كتابةً من كل جهات العلم، ابتداءً بتدوين القرآن الكريم وحفظه في المصاحف، ثم تدوين السُّنَّة وحفظها في الدواوين، ثم تدوين الفقه والعلوم الشرعية بتخصصاتها وفنونها وفروعها كافةً، وما بقيت المذاهب الأربعة إلا لحملها إلينا في الكُتب، وإلا فإن المذاهب الفقهية كثيرة؛ لكنها اندثرت بضياع كتب أصحابها أو فقدها، فالليث بن سعد والأوزاعي وشُعبة وسُفيان الثوري وغيرهم عشرات؛ كانوا أصحاب مدارس فقهية، لكنها اندثرت بموتهم، إذ لم يحملها عنهم طلبةٌ، ولم تُدوَّن في الكُتب وتُتناول بالمدارسة والشرح والتعليق والتنقيح والتجديد.

فلولا التدوين لاندرست سِمات هذا الدين، وضاعت معالمه؛ لأن أصحاب الصدور يَفنون، وأما ما دوَّنوه في السُّطور فلا يفنى.

ويكفي في فضل التدوين أن الإسلام حث على تعلمه وتعليمه، فرفع من شأن الكتبة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وشرَّفهم بكتابة القرآن الكريم، وتدوين سُنته صلى الله عليه وسلم، وجعل صلى الله عليه وسلم فداء أسرى بدر لِمن لم يستطع فداء نفسه بالمال أن يُعلم صبيان الأنصار القراءة والكتابة، وأذن للنساء بتعلمهما وتعليمهما.

وإليهما احتكم النبي صلى الله عليه وسلم عندما تحاكم اليهود

إليه في زانيين فغيروا حكم الله، فأمرهم أن يأتوا بالتوراة، فكان حكم الرجم ثابتًا فيها، وبهما أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يُحاجج من اتخذ الأصنام آلهة فقال: { أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [سورة الأحقاف: الآية ٤].

وجعل الشرع الكتابة سببًا في إثبات الحقوق، فأمر بكتابة الدين، وألا يُسأم من كتابته صغُر أم كبُر حفظًا له، وجعل الله تعالى كتابة الشهادة فيما يتعاطاه الناس من الحقوق بينهم عونًا عند الجحود، وجعل عدمها عند التنازع من قرائن بطلان العهود.

ومما ينبغي ذكره هنا أنه ليس بالتدوين فقط حُفِظ العلم وقامت به الحجة، فإنه لا قيمة للعلم المكتوب إلا بأن تكون كتابته جيدة، وهي لا تكون جيدة إلا إذا كان كتبته عدولًا ضابطين؛ لذلك كان من أهم مقاييس حضارة الأمم ونهضتها حال كُتابها وكُتبها، فعظمة الأُمم ورُقيّها يبدآن بإبداع عقول أبنائها، وتوالد الأفكار واتصالها جيلًا بعد جيل، وكُلما كانت هذه الأفكار أكثر قوةً وأشد نبالةً كانت أدعى لاعتناقها وحملها والدفاع عنها، بل والموت دونها.

فعندما كان المسلمون في أوج حضارتهم كان لديهم مئات الآلاف من الكُتّاب، وأضعاف أضعافها من الكُتب في شتى العلوم، وهو خيرُ شاهد على عظمة الأُمة وقوتها ورُقيّها.

وقد كان أئمة المسلمين يعتنون أشد ما يكون بالقراءة والكتابة، ويحثون خلفَهم على التصنيف والإكثار منه، من ذلك قول **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧١م): "ينبغي أن يُفرغ المصنف للتصنيف قلبه، ويجمع له همه، ويصرف إليه شغله، ويقطع به وقته"، وقال

محمد بن علي الصري: "رأيت **أبا محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ** (ت ٤٠٩هـ) في المنام؛ فقال لي: يا أبا عبد الله خرّج وصنف قبل أن يُحال بينك وبينه، هذا أنا تراني قد حيل بيني وبين ذلك، ثم انتبهت"[١].

ولذلك أكثر المسلمون الأوائل من الكتابة في كل علم وكل فن، فعلى سبيل المثال: **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٣م) أحصوا له أكثر من مائتين وخمسين كتابًا، **والذهبي** (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) خلَف أكثر من مائتي كتاب، **وللسيوطي** (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) أكثر من خمسمائة كتاب، وغيرهم كثير يطول ذكرهم.

كيف بدأ تدوين العلم في الحضارة الإسلامية؟

بدأت حركة تدوين العلوم في الحضارة الإسلامية مُنذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، بعدما أذن بتدوين كلامه، بعد أن منع ذلك لئلا يختلط القرآن بغيره من حديثه، وليكون الصحابة أكثر تركيزًا في حفظ القرآن وحمله في صدورهم؛ لأن الذين كانوا يُحسنون الكتابة وقتها قليل، ومنه يُفهم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ»[٢].

فلما اطمأن صلى الله عليه وسلم لحفظ الصحابة، وحملهم كلام الله تعالى مُميزًا عن غيره، وأمن من تخليطهم فيه؛ أذن في كتابة حديثه، فثبت أيضًا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة

---

(١) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف (الرياض)، ج ٢ ص ٢٨٣.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠٠/ كتاب الزهد والرقائق) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

رضي الله عنه، أن خُزاعة قتلوا رجلًا من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم؛ فركب راحلته، وخطب فقال: «إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ القَتْلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وَالمُؤْمِنِينَ، أَلاَ وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، ولا تحلُّ لأحد بَعْدِي، أَلاَ وَإِنَّهَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، أَلاَ وَإِنَّهَا ساعتي هذه حرامٌ، لاَ يُخْتَلَى شَوْكُهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ، فَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِمَّا أَنْ يُعْقَلَ، وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ أَهْلُ القَتِيلِ»، فجاءه رجلٌ من أهل اليمن، فقال: اكْتُبْ لي يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اكْتُبُوا لأَبِي فُلاَنٍ»، فقيل البخاري: أيَّ شيء كَتَبَ له، فأجاب: كَتَبَ له هذه الخُطبةَ[١]، وهو المعروف في مصادر أخرى بحديث أبي شاة.

وكان **أبو هريرة** رضي الله عنه (ت ٥٩هـ / ٦٧٩م) يقول: "ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحدٌ أكثرَ حديثًا مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يَكْتُبُ ولا أَكْتُبُ"[٢]، فجعل كتابته سببًا في إكثاره من جمع الحديث، حتى فاق أبا هريرة رضي الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (١١٢/ كتاب العلم)، ومسلم في صحيحه (١٣٥٥/ كتاب الحج) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح موقوف: أخرجه البخاري في صحيحه (١١٣/ كتاب العلم) من قول أبي هريرة رضي الله عنه.

ولعل هذا من وهم أبي هريرة رضي الله عنه بسبب حرص عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما على التدوين، إذ لم يكن ثَمَّةَ صحابيٌّ يُدانيه في المنزلة في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يُقاربه، لا عبد الله رضي الله عنه، ولا وغيره، وقد كان هذا مصداقًا لطلب النبي صلى الله عليه وسلم منه أن يبسط رداءه، فبسطه فدعا له بالبركة، ثم ضمه، فلم ينس شيئًا قط، وكان أحفظ الصحابة، وأجمعهم لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، وأكثرهم رواية.

عنه، وهو من أكثر حفظة الحديث ورواته، وهذا يدل على أن **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما (ت ٦٥هـ/ ٦٨٤م) كتب الشيء الكثير جدًا، وهي التي سماها البعض بـ "**الصحيفة الصادقة**" التي رواها حفيده عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، والمتفق على تحسينها سندًا.

يُصدِّق هذا ما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما نفسه إذ قال: "كُنت أكتبُ كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر، يتكلمُ في الغضب والرضا، فأمسكتُ عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا حق»"[١].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "مَا عِنْدَنَا كِتَابٌ نَقْرَؤُهُ إِلاَّ كِتَابَ اللَّهِ، غَيْرَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ"، ثم أخرجها، فإذا فيها أشياء من الجراحات، وأسنان الإبل[٢] - أي في القضاء - ولا يُحتجُّ بالنفي والاستثناء على أنه لم تكن ثمَّة كتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن عليًا رضي الله عنه إنما حكى ما تحت يده، بدليل ما رُوي في شأن عبد الله بن عمرو بن العاص والرجل من أهل اليمن في

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٢)، وأبو داود في سُننه (٣٦٤٦/ العلم)، والدارمي في سُننه (١/ ٤٢٩)، والحاكم في المُستدرك (١/ ١٨٧) وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) صحيح موقوف: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٧٥٥/ الفرائض)، ومسلم في صحيحه (١٣٧٠/ الحج).

حديث أبي هريرة رضي الله عنهم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَتَبَ لَهُ فَرِيضَةَ الصَّدَقَةِ الَّتِي فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم[١]، وعن مَعْن: "أخرج إليَّ عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابًا، وحلف لي أنه خط أبيه بيده"[٢].

فتدوين الحديث والسُّنة من عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس كما زعم البعض أن تدوين الحديث لم يبدأ إلا في مُنتصف القرن الثاني من الهجرة، فالنهي عن تدوينه كان في أول الإسلام فقط؛ خشية أن يتوطن في النفوس توطن القرآن، أو أن يختلط بالوحي، فلما توطن القرآن وتميز نوعي الكلام عن أي اشتباه أُذن في الكتابة، بل وحُضوا عليها كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة.

وقد ذكر **أبو العباس القلقشندي** (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له نيّف وثلاثون كاتبًا[٣]، وكان ألزمهم

---

(١) صحيح موقوف: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٩٥٥/ الحيل).

(٢) أبو بكر بن أبي شيبة: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ج ٥، ص ٣١٣.

(٣) وهم: أبو بكر الصّديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعليّ بن أبي طالب، وعامر بن فهيرة، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأبان أخوه، وسعيد أخوهما، وعبد الله بن الأرقم الزّهريّ، وحنظلة بن الربيع الأسديّ، وأبيّ بن كعب، وثابت بن قيس بن شمّاس، وزيد بن ثابت، وشر حبيل بن حسنة، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن زيد، وجهيم بن الصّلت والزّبير بن العوّام، وخالد بن الوليد، والعلاء بن الحضرميّ، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن رواحة، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أبيّ، ومعيقب بن أبي فاطمة، وطلحة بن زيد بن أبي سفيان، والأرقم ابن الأرقم الزّهري، والعلاء بن عتبة، وأبو أيوب الأنصاريّ، وبريدة بن الخصيب، والحصين بن نمير، وأبو سلمة المخزومي، وحويطب بن عبد العزّى، وأبو

له في الكتابة معاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت.

وبعد قبض النبي صلى الله عليه وسلم؛ كتب الصحابة إلى من خلفهم، ففي الصحيحين من حديث الشَّعْبِيِّ قال: حدَّثني كاتبُ المُغيرة بن شُعْبَةَ قال: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْمُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ: أن اكْتُبْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فكَتَبَ إِلَيْهِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثاً قِيلَ وقال، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»[1].

وفي صحيح مسلم أن نَجْدَة بن عامر كتب إلى ابن عباس رضي الله عنهما يَسْأَلُهُ عَنِ الْعَبْدِ وَالْمَرْأَةِ يَحْضُرَانِ الْمَغْنَمَ، هَلْ يُقْسَمُ لَهُمَا، وَعَنْ قَتْلِ الْوِلْدَانِ، وَعَنِ الْيَتِيمِ مَتَى يَنْقَطِعُ عَنْهُ الْيُتْمُ، وَعَنْ ذَوِي الْقُرْبَى مَنْ هُمْ؟ فَقَالَ لِيَزِيدَ: "اكْتُبْ إِلَيْهِ، فَلَوْلاَ أَنْ يَقَعَ فِي أُحْمُوقَةٍ، مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ، اكْتُبْ: إِنَّكَ كَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْمَرْأَةِ وَالْعَبْدِ يَحْضُرَانِ الْمَغْنَمَ هَلْ يُقْسَمُ لَهُمَا شَيْءٌ؟ وَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُمَا شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُحْذَيَا، وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ قَتْلِ الْوِلْدَانِ؟ وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمْ يَقْتُلْهُمْ، وَأَنْتَ فَلاَ تَقْتُلْهُمْ، إِلاَّ أَنْ تَعْلَمَ مِنْهُمْ مَا عَلِمَ صَاحِبُ مُوسَى مِنَ الْغُلاَمِ الَّذِي قَتَلَهُ، وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْيَتِيمِ مَتَى يَنْقَطِعُ عَنْهُ اسْمُ الْيُتْمِ؟ وَإِنَّهُ لاَ يَنْقَطِعُ عَنْهُ اسْمُ الْيُتْمِ حَتَّى يَبْلُغَ وَيُؤْنَسَ مِنْهُ رُشْدٌ، وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي

سفيان بن حرب، وحاطب بن عمرو، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.
أحمد بن علي الفزاري القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية (بيروت)، ج ١ ص ١٢٦.

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (١٤٧٧/الزكاة)، ومسلم في صحيحه (٥٩٣/الأقضية) من حديث المغيرة رضي الله عنه.

عَنْ ذَوِي الْقُرْبَى مَنْ هُمْ؟ وَإِنَّا زَعَمْنَا أَنَّا هُمْ فأبى ذلك علينا قومنا"[١].

وأخرج أيضًا عن ابن أبي مُلَيْكَةَ قال: كَتَبْتُ إلى ابن عباس رضي الله عنهما أَسْأَلُهُ أن يَكْتُبَ لي كِتَابًا وَيُخْفِي عَنِّي، فَقَالَ: "وَلَدٌ نَاصِحٌ، أَنَا أَخْتَارُ لَهُ الأُمُورَ اخْتِيَارًا، وَأُخْفِي عَنْهُ"، فدعا بِقَضَاءِ عَلِيٍّ، فَجَعَلَ يَكْتُبُ مِنْهُ أَشْيَاءَ، وَيَمُرُّ به الشَّيْءُ فَيَقُولُ: "وَاللهِ مَا قَضَى بهذا عَلِيٌّ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ ضَلَّ"[٢]، وفيه دليل على أن ابن عباس جمع كتابًا من الأحكام التي قضى بها عليّ رضي الله عنهم في الأقضية التي عُرضت عليه.

ورُوي عن ابن شهاب الزُّهْري أنه قال: "لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض لرأيت أنها ستذهب من الناس"[٣]، وكان زيد رضي الله عنه (ت ٤٥هـ/ ٦٦٥م) من الراسخين في العلم، وأبصر الناس بالفرائض.

وكذلك كتب **أُسيد بن حضير الأنصاري** رضي الله عنه بقضاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، إلى مروان بن الحكم[٤]، وكتب **جابر بن سمرة** إلى عامر بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥]، وكتب **عبد الله بن أبي أوفى** رضي الله عنهما إلى عمر بن

(١) صحيح موقوف: أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١٢/ الجهاد والسير).

(٢) حسن موقوف: أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (٢٢).

(٣) رواه البيهقي في الكبرى (٦/ ٢١٠)، وابن عساكر في تاريخه (١٩/ ٣٢٢).

(٤) صحيح: أخرجه النسائي في سُننه (٤٦٨٠/ البيوع)، وعبد الرزاق في مُصنفه (١٠/ ٢٠١)، والحاكم في المُستدرك (٢/ ٤١)، وغيرهم.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٢٢/ الإمارة).

عُبيد الله بحديث النبي صلى الله عليه وسلم[١]، وغيرها من كتابات الصحابة رضي الله عنهم لبعضهم، ولمن خلفهم من التابعين كثير، وإنما أوردت المشهور منها.

والحقيقة أن هذه الوقائع وغيرها لا تُسقط فحسب فكرة عدم التدوين في العهد الأول للإسلام التي يستدل بها منكرو السُّنة، إنما تُسقِط كل المبررات التي انساق بها من ردوا عليهم لتأكيد ثبوت السُّنة؛ مثل ضعف ثقافة الكتابة والخبرة بها، أو الاستعاضة بالحفظ بديلًا عن الكتابة؛ حتى لا تضيع ملكة الحفظ عند العرب، وغير ذلك، فكل هذه الدعاوى تسهم بصورة أو أخرى في تأييد دعاوى منكري السُّنة غير الصحيحة أساسًا علميًّا وتاريخيًّا.

وبعد عهد الصحابة كتب **القاسم بن أبي بَزّة** (ت ١٢٤هـ) **التفسير عن مجاهد**، قال ابن حبان: "ابن أبي نجيح (ت ١٣١هـ) نظير ابن جريج في كتاب القاسم بن أبي بَزّة عن مجاهد في التفسير"[٢].

وكتب أبو بكر بن حزم كتابًا إلى عمر بن عبد العزيز، كما روى مالك في موطئه عن يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم: "أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سُنته، أو حديث عمر أو نحو هذا، فاكتبه لي، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب العلماء"[٣].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٦٥/الجهاد)، ومسلم في صحيحه (١٧٤٢/الجهاد والسير).

(٢) أحمد بن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية (الهند)، الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ، ج ٦ ص ٥٤.

(٣) مالك بن أنس: الموطأ، رواية: محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق: عبد الوهاب

وعن ابن شهاب الزُّهْري أنه قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا[١]، ويذكر ابن قيم الجوزية أن مُصنفًا للزهري في الفقه كان في ثلاثة أسفار، وأن فتاوى الحسن البصري كانت في سبعة أسفار مرتبة على أبواب الفقه[٢]، وكان الشعبي يحث على كتابة العلم خشية اندراسه، وصح عنه أنه قال: "إذا سمعت شيئًا، فاكتبه ولو في الحائط"[٣].

ثم شاع التدوين في الطبقة التي تلت ذلك، وكانت هذه الكتابات هي النواة الأولى لما صنف في القرنين الثاني والثالث من الجوامع والمسانيد والسنن وغيرها.

المقصود أن كتابة الحديث أستمرت خلال القرن الأول بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، مضافًا إليها أخبار الصحابة مصحوبةً بالأسانيد التي كانت تُشكل وسيلة التوثيق العلمية لعملية التدوين والتحديث، فلما اتسعت الرواية، وتباين الناس في الحفظ بشكل

عبد اللطيف، المكتبة العلمية، الطبعة الثانية، ص ٣٣٠، ودُروس العلم: أي ذهابه بموت العلماء.

(١) يوسف بن عبد الله بن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي (السعودية)، الطبعة الأولى ١٩٩٤م / ١٤١٤هـ، م ج ١ ص ٣٣١.

(٢) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٩١م / ١٤١١هـ، ج ١ ص ٢٠.

(٣) صحيح عن الشعبي: أخرجه أبو خيثمة في العلم (٣٤)، والخطيب البغدادي في تقييد العلم (١٠٠).

ملحوظ، وظهرت في الأمة الفرق والأحزاب، وزادت الفتوحات الإسلامية التي أودت بحياة كثير من الحفظة وأوعية العلم، فضلًا عن اتساع رقعة العالم الإسلامي، وتفرق الصحابة وتلاميذهم في البلاد؛ احتيج في حفظ الدين وصيانته لوسيلة ضبط أوثق وأبقى من "**ضبط الصدر**"[١]، فلجأ العلماء إلى التدوين بشكل منظم مميز - وهو ما عُرف لاحقًا بـ"**ضبط الكتاب**"[٢] - فأمر أمير المؤمنين عُمر بن عبد العزيز؛ **ابنَ شهاب الزُّهْري** (ت ١٢٣هـ / ٧٤١م)، بتدوين السُّنة، فكان أول من دونها.

وكان في مُستهلِّ من دوَّن بشكل منهجي في الطبقة الأولى من الرواة: **عبد الملك بن جريج** (١٥٠هـ / ٧٦٧م) في مكة، **ومحمد بن إسحاق** (١٥١هـ / ٦٩٩م) في المدينة، **والربيع بن صبيح** (ت ١٦٠هـ) **وسعيد بن أبي عروبة** (١٥٦هـ / ٧٧٣م) في البصرة،

---

(١) وهو أن يُثبت الراوي في ذاكرته ما سمعه، بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء.

(٢) صيانة الراوي كتبه منذ سمع فيها وضبطها وصححها إلى أن يؤدّي الرواية، وقيل: يحفظهُ من وراقي السوء، على أن هذا في الراوي الذي يعتمد في روايته على كتبه لا حفظه.

ومثال الذين ضُعفوا حديثيًا بسبب عدم ضبط كتبهم: **سفيان بن وكيع**، وكان لهُ وراق سوء، يُدخِل في كتبه ما ليس منها، فضعف بسبب ذلك، **وعبد الله بن صالح** كاتب الليث؛ تُكلم فيه بسبب جار سوء أدخل في كتبه ما ليس منها، **وقيس بن الربيع** كان لهُ ابن سوء يُدخل في كتبه ما ليس منها، **وعبد الله بن لَهِيعَة** (ت ١٧٤هـ) احترقت كتبه، فحدّث من حفظه بعد احتراق كتبه فأخطأ، **وعبد العزيز بن عمران الأعرج** المعروف **بابن أبي ثابت** (ت ١٩٧هـ) احترقت كتبه، فحدث من حفظه فاشتد غلطه، حتى قال بعضهم: متروك.

وممن ضعفوا أيضًا بسبب ضياع كتبهم: **محمد بن عبيد الله بن أبي سليمان الفزاري** (ت ١٥٥هـ)، **وحيدر بن يحيى الجيلي**، **ومحمد بن إسماعيل المستملي الوراق** (ت ٣٧٨هـ)، **وأبو النصر بن مُسْكان النيسابوري** (ت ٤١٣هـ)، **وعمر بن السراج** المعروف **بابن الملقن الشافعي** (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م).

وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ / ٧٧٨م) في الكوفة، **وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي** (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤م) في الشام، **ومَعْمر بن راشد** (ت ١٥٣هـ / ٧٧٠م) في اليمن، وقد اجتمعوا في عصر واحد ولا يُدرى أيهم سبق إلا ظنًّا وتخمينًا، فضلًا عن غيرهم ممن لم نعلمهم، ولم تصلنا أخبار مدوَّناتهم.

وتلاهم مباشرة في التدوين والكتابة المنتظمة، وربما عاصرهم فيها: **مالك بن أنس** (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م) في المدينة، **وحماد بن سلمة** (ت ١٦٧هـ / ٧٨٣م) في البصرة، **وهُشيم بن بشير** (ت ١٨٣هـ) في واسط، **وجرير بن عبد الحميد الضبي** (ت ١٨٨هـ / ٨٠٤م) في الري، **وعبد الله بن المبارك** (ت ١٨١هـ / ٧٩٧م) في خراسان، وغيرهم.

لقد فرضت العناية بالقرآن والحديث الاهتمام بالكتابة وتطويرها مبكرًا، وقد كان العرب قليلي الاهتمام بها، فيذكر د. مصطفى محمد الشكعة أن قريشًا كلها لم يكن بها أكثر من بضعة عشر فردًا يكتبون، وفي المدينة كانوا أقل[١]، وقد أسهم الإسلام من خلال تعليم النبي صلى الله عليه وسلم، وعناية الصحابة رضوان الله عليهم بالقرآن والسُّنة في تنمية الشعور بأهمية القراءة والكتابة، وتعلمهما وتعليمهما.

بل كان الاهتمام بتدوين القرآن والحديث أحد عاملين أساسيين للاهتمام باللغة وضبطها وتقنين علومها، فابتكروا التنقيط مع ظاهرة

---

(١) مصطفى محمد الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين (بيروت)، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٤م، ص ١٥.

التصحيف[١]؛ وهي الظاهرة التي عالجها الكُتّاب والمدونون بصفة عامة، والمحدّثون بصفة خاصة من خلال العديد من التصانيف المتخصصة، وما أدت إليه طبيعة الكتابة العربية قبل التنقيط من اشتباه الحروف ودمجها، وعدم كتابة المدود ونحو ذلك، وكان العامل الثاني هو دخول شعوب كثيرة من غير العرب في الإسلام، إذ كانت الحاجة مُلِحة وضرورية لتعليمهم القراءة والكتابة، لتعلم القرآن والسُّنة - لاسيّما وقد فشا اللحن بين الناس - ولذلك لم يكن مستغربًا أن كثيرًا ممن برعوا في علوم التفسير والحديث الذين كانوا بارعين في اللغة أيضًا هم من غير العرب.

وتوالت التصانيف في السُّنة وفي السير والمغازي؛ لاسيَّما في الحجاز والشام، وما لبث التدوين أن اتسعت مجالاته، وزادت فنونه، وتعددت مصنفاته، واشتغل به فحول أهل العلم، فجمعوا ما في الصدور، واستوعبوا ما تفرق في البلاد، وتتابع الناس في التأليف والتصنيف، ليس في الحديث والسير والمغازي فحسب، بل ازدهرت الكتابة في اللغة والشعر، ثم الفقه ثم الأصول ثم الجرح والتعديل وعلل الحديث ومُصطلحه ثم الفلسفة، ثم تشعبت المُصنفات، وكثرت كثرة يستحيل الإحاطة بها، وحصل للمسلمين في حركة التأليف ما لم يحصل لغيرهم من قبل.

والحقيقة أن المباني المنهجية في الكتاب التراثي العربي / الإسلامي كانت فريدة عجيبة، فكان لها في كل لون من ألوان العلم

(١) ما اشتبه من الكلام بغيره وأخطأ فيه راويه، أو سقط منه بعض حروفه من غير اشتباه، وهو فن مهم في علم الحديث، يقع على أقسام: تصحيف في متن الحديث، وتصحيف في الإسناد، وتصحيف البصر، وتصحيف السمع، وتصحيف اللفظ، وتصحيف المعنى.

شخصية مستقلة ومعالم مختلفة بحسب نوع المعرفة التي يتضمنها هذا العلم، ولم يمنع تقارب العناوين وتشابه المسميات؛ الاختلاف الموضوعي والبنائي للكتب، ولعل هذا أوضح ما يكون في كتب التفسير وكتب الطبقات، فرغم وحدة التصنيف في كل منهما؛ فإن بنية كل كتاب منها تكاد تكون متفردة، بل يمكن أن نلحظ هذا؛ حتى في كتب الغريب والنحو وأصول الفقه والسياسة الشرعية، وهي سمة انعدمت تمامًا في الكتاب العربي المعاصر لاسيَّما العلمي الأكاديمي، الذي هو عبارة عن "نسخ مقلدة" متداخلة متناظرة في البنية والموضوع!

وعلى عكس ما هو منتشر الآن أيضًا؛ فيبدو أن العلماء القدامى كانوا يميلون إلى التأليف والتصنيف أكثر من ميلهم إلى التدريس[1] والخطابة، وفي ذلك قال ابن الجوزي: "رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقًا لا تحصى ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم"[2]، وقال أبو بكر الصولي: "الكتاب يتصفح أكثر من الخطاب، لأن الكاتب متخير والمخاطب مشافه مضطر، ومن يَرِد عليه كتابك ليس يعلم أسرعت فيه أم أبطأت، وإنما ينظر

---

(١) قاسم خلف مشاري السكيني: أسباب التأليف عند العرب: دراسة أدبية لآراء القدماء والمحدثين، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، العدد ٢، المجلد ٤٣، ٢٠١٨م، ص ٤٣٠.

(٢) أبو الفرج الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق: حسن المساحي سويدان، دار القلم (دمشق)، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ٢٤١.

أصبت أم أخطأت، أو أحسنت أم أسأت؟"[١].

وكانت بلاد المسلمين عامرة بالمكتبات الزاخرة بالكُتب، من أهمها وأقدمها؛ **بيت الحكمة** الذي أسسه الخليفة العباسي **أبو جعفر المنصور** (ت ١٥٨هـ / ٧٧٥م) في بغداد، وطوره **هارون الرشيد** (ت ١٩٣هـ / ٨٠٩م)، ثم **المأمون** (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م) الذي أضاف إليه كتب المعتزلة والفلاسفة، حتى آلت الخلافة إلى **المتوكل** (ت ٢٤٧هـ / ٨٦١م) حيث قام بضبط المكتبة وفَرْز مُحتوياتها.

وكان بها ما لا يُمكن وصفه من الكتب، حتى تواترت الأخبار على أن المغول قاموا بعد اجتياح العاصمة العباسية عام ٦٥٦هـ بحرقها، وإغراق كتبها في نهر دجلة، فبقيت مياه النهر سوداء لستة أشهر بسبب الحبر الذي انسال من كميات الكُتب الهائلة التي رُميت فيه، فلنا أن نتخيل الكم الهائل الذي كان فيها من الكتب، وكيف أن عمرها ناهز الخمسة قرون بما زاد عن أعمار دول وحضارات.

يليها زمنيًّا **مكتبة الحكم الثاني** المعروفة **بمكتبة قرطبة**، أو **المكتبة الأموية**، التي أسس نواتها الخليفة الأموي الأندلسي **عبد الرحمن الناصر** (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م)، ثم طورها حفيده **أبو العاص الحكم الثاني** المُلقب بالمُستنصر (ت ٣٦٦هـ / ٩٧٦م)، وبلغت في عهده أن صارت أعرق مكتبات الأندلس، بل كانت من أعظم مكتبات المسلمين على الإطلاق، حيث حوت ما يقرب من أربعمائة ألف كتاب، جمعها المُستنصر من العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا، بالإضافة إلى مؤلفات الأندلسيين، حتى إن فهارسها وحدها

---

(١) محمد بن يحيى الصولي: أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية (مصر)، والمكتبة العربية (بغداد)، ١٣٤١هـ، ص ١٥٨.

وقعت في أربعة وأربعين دفترًا، وكان المُستنصر يأمر بمقابلة الكُتب على بعضها وضبطها وتصحيحها.

وكانت المكتبة تشغل إحدى أجنحة قصر الخلافة بقرطبة؛ وعُرفت **بمكتبة القصر**، وعندما ضاقت غرف المكتبة بما تحويه من كتب، ولم تقدر الغرف على استيعاب الزيادة المُطردة فيها؛ نُقِلت المكتبة في مكان آخر مُستقل، وقد استغرقت عملية النقل ستة أشهر كاملة!

ودار العلم في بغداد، وأسسها **سابور بن أردشير** (ت ٤١٦هـ)، في القرن الرابع الهجري في بغداد، ونافت كتبها على العشرة آلاف كتاب، وضمت جلائل الآثار ومهام الأسفار.

ثم **دار الحكمة** المعروفة بدار العلم في مصر، التي كانت بمثابة جامعة، أسسها الخليفة الفاطمي **الحاكم بأمر الله** (ت ١٠٢١م) عام ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م، وتذكر المصادر أنها حوت ما يقرب من مليون وستمائة ألف مجلدة، ضمّت ستة آلاف وخمسمائة مخطوطة في الرياضيات، وثمانية عشرة ألف مخطوطة في الفلسفة، وكان الدخول إليها والنسخ والترجمة مجانًا.

وجدير بالذكر أن أكثر كتبها أُخذت من المكتبات التي أنشأها الأغالبة التميميون في صقلية وشمال أفريقيا، وأن العبيديين أكثروا فيها من كتب علوم الكلام والفلسفة وأصحاب الفرق.

ومن أعجب مكتبات الحضارة الإسلامية؛ **دار العلم** في الشام، المعروفة **بمكتبة بني عمار**، التي أنشأها سلاطين بني عمار في القرن الخامس الهجري في طرابلس الشام، وقيل إن عدد كتبها بلغ ثلاثة

ملايين كتاب، كلها في علوم الشريعة والقرآن والحديث والأدب، منها نحو خمسين ألف نسخة من القرآن الكريم، وعشرة آلاف كتاب تفسير، وكان فيها مائة وثمانون ناسخًا ينسخون بالجراية والجامكية، منهم ثلاثون نفسًا لا يفارقونها ليلًا ولا نهارًا، وكان لها في جميع البلاد عُمال بمثابة سُفراء يشترون وينسخون لها أحدث الكتب، وقصدها العلماء والفضلاء من سائر الأقطار، فكانت كما ذكر المؤرخون من عجائب الدنيا، حتى لم يكن في جميع البلاد مثلها كثرةً وحسنًا وجودة، ولعل هذا ما أثار حقد الصليبيين؛ فأحرقوها عام ٥٠٣هـ، بعدما استولوا على شيءٍ من كتبها، ونقلوه إلى بلادهم.

وكذلك **المكتبة المُستنصرية** التي أسسها الخليفة العباسي **المُستنصر بالله** (ت ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م) في بغداد عام ٦٣١هـ مع المدرسة المُستنصرية؛ إحدى المدارس الفريدة في تاريخ المسلمين، حيث كانت بمثابة جامعة إسلامية، مدة الدراسة فيها عشرة أعوام، وكانت المكتبة المُستنصرية من مرافق المدرسة التي تخدم طُلاب العلم والعلماء، وقد حوت نحو أربعمائة وخمسين ألف مجلدة في مختلف العلوم والفنون، فضلًا عما نُقل إليها من كتب المدارس النِّظاميَّة السُّلجوقيَّة، التي أسسها الوزير السُّلجوقي نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الذي اغتاله الباطنيون.

وكانت المكتبة مُقسمة إلى أقسام عديدة، أهمها: علوم القرآن، والسُّنَّة النبوية، والمذاهب الفقهية الأربعة، واللغة العربية والنحو، والفرائض، ومنافع الحيوان، والفلسفة، والرياضيات، والصيدلة، والطب، وشهدت مع المدرسة فترات انقطاع في أثناء الاحتلال المغولي لبغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، ثم استُؤنفت الدراسة في

العام نفسه، وظلت الدراسة قائمة بها بانتظام بعد سقوط بغداد نحو قرن ونصف من الزمن، ثم توقفت الدراسة فيها وفي غيرها من المدارس بسبب تدمير تيمورلنك لبغداد مرتين، الأولى عام ٧٦٥هـ، والثانية عام ٨٠٣هـ، حيث دمّر مدارسها، وأتلف كُتُبها، ونهب مكتباتها، ونكّل بعلمائها، وفَقدت المُستنصرية في هذه الهجمة الشرسة مكتبتها العامرة[١]، وظلت متوقفة بعد جرائم تيمورلنك نحو قرنين من الزمن، حتى افتُتحت للدراسة عام ٩٩٨هـ، ثم أغلقت أبوابها عام ١٠٤٨هـ، وافتتحت مدرسة الآصفية مكانها.

ومنها **خزانة القرويين** التي أنشأها السلطان المغربي **أبو عنان المريني** (ت ١٣٥٨م)، بمدينة فاس بالمغرب عام ٧٥٠هـ، وتحوي رصيدًا هائلًا من الكُتب والمؤلفات القيّمة والنادرة، التي ربت على إحدى **وعشرين ألف مؤلف مطبوع**، ونحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسين مخطوطًا، من بينها مخطوطات كبار علماء المغرب الإسلامي؛ كابن طفيل وابن رشد وغيرهما.

ومكتبة **الفاتح** التي أسسها السلطان العثماني **محمد الفاتح** (ت ٨٨٦هـ / ١٤٨١م)، حين أنشأ الجامع الذي عُرف باسمه في إسطنبول عام ١٤٧٠م، وقد أنشأ مع الجامع ثماني مدارس حوله، وهذه المكتبة المركزية الكبيرة؛ لينتفع بها جميع الدارسين، وكانت المكتبة تضم نحو ستة آلاف مخطوطة، فضلًا عن آلاف الكُتب المطبوعة، وقد عين السلطان الفاتح قيّمًا على هذه المكتبة، وكان يشترط فيمن يلي هذه الوظيفة أن يكون من أهل العلم والتقوى،

---

(١) وتكرر هذا على يد الإسبان حيال مخطوطات جامع الزيتونة المعمور عام ٩٤٢هـ / ١٥٥٣م.

متبحرًا بمعرفة أسماء الكُتب والمؤلفين، وكانت المكتبة تُعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكُتب بطريقة منظمة دقيقة، حيث كانت تُسجل أسماء الكُتب المُعارة في دفتر خاص، وكانت المكتبة تخضع للجرد والتفتيش كل ثلاثة أشهر على الأقل.

ومن أهم المكتبات في العصر العثماني **المكتبة السليمانية**، وكانت عبارة عن مدرسة للصبيان أُنشئت في عهد السلطان العثماني **سليمان القانوني** (ت ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م) عام ١٥٥٧م، ثم تحولت عام ١٩٥٧م لمكتبة عامة، وتُعد أهم مركز للمخطوطات الإسلامية والعربية على الإطلاق، حيث يقدر ما تحتويه بنحو خمسين ألف كتاب مطبوع، ونحو مائة وخمسة وعشرين ألف مخطوطة، والتي تم جمعها ونقلها إليها من دور الوقف الخيرية والمدارس والخانات والتكايا والزوايا والمساجد، فضلًا عن نحو سبع عشرة ومائة مكتبة من مكتبات السلاطين والوزراء والعلماء وشيوخ الإسلام.

وتُعد مخطوطاتها من أقيم وأندر المخطوطات في العالم، حيث تعود أقدم مخطوطاتها إلى القرن الثالث الهجري، وهي مقسمة بحسب مصادرها إلى مجموعات تربو على المائة مجموعة؛ أهمها مجموعات أيا صوفيا ووهبي البغدادي وجار الله والداماد إبراهيم وأسعد أفندي والفاتح والحميدية وقليج علي وغير ذلك، وتتنوع لغاتها ما بين اللغة العربية؛ والتي تمثل القدر الأكبر فيها، حيث تقدر بنحو ثمانين ألف مخطوطة، وأخرى باللغات التركية والفارسية والشرقية[1]، وفيها مخطوطات من أنفَس المخطوطات،

(١) ولا زالت بعض الكُتب والمخطوطات الموجودة فيها غير مُصنفة ولا مُفهرسة.

بعضها مكتوب بخطوط المؤلفين، وبعضها مكتوب بخطوط مشاهير الخطاطين، وبعضها نادرة جدًّا وحيدة فريدة، لا أُختَ لها في مكان آخر، وبعضها مقروء على كبار العلماء، وعليها توقيعاتهم وإجازاتهم وزياداتهم وحواشيهم، وبعضها ذات قيمة أثرية من جهة الخط والزخارف والنَّمْنَمات الملونة والتذهيب والتصوير والتجليد الفاخر.

يضاف إليها **مكتبة أيا صوفيا**؛ وهي المكتبة التي أنشئت عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م في عهد السلطان **محمود الأول**؛ خدمةً للمدرسة التي أُنشئت وأُلحقت بمسجد أيا صوفيا في العام ذاته، وكانت المكتبة تضم آلاف المخطوطات النادرة التي آلت جميعها فيما بعد إلى المكتبة السليمانية حين صدر قانون توحيد التدريس، وقانون إغلاق التكايا والزوايا عام ١٩٢٤م، ضمن مخطط التغريب والإفساد الذي وضعه كمال أتاتورك، ومات دونه.

وفي العصر الحديث تعد **دار الكتب المصرية** واحدةً من أكبر المكتبات العربية في العالم، أسسها **علي باشا مبارك** (١٨٢٣: ١٨٩٣م)؛ مدير المعارف في مصر عام ١٨٧٠م بالقاهرة، ثم ضُمت إليها مكتبة **مصطفى فاضل باشا** بعد وفاته عام ١٨٧٦م، ومكتبة **محمد قدري باشا** (١٨٢١: ١٨٨٦م) في التشريع والقضاء عام ١٨٨٨م، ومكتبة **خليل نبراوي في التاريخ**، ولا زالت هذه الدار منذ ذاك في نهضة ورُقي بفضل الإهداءات إليها، وهي مقسَّمة بحسب مصادر الكُتب والمخطوطات فيها، ولعل أهم أقسامها: الخزانة التيمورية، مكتبة مصطفى فاضل، مكتبة قولة، مكتبة خليل أغا، مكتبة إبراهيم حليم، مكتبة خليل أغا، مكتبة الشنقيطي، الخزانة الزكية، وجميعها أُهديت لدار الكُتب بعد وفاة أصحابها ومالكيها، بالإضافة إلى الرصيد العام للدار، حتى بات عدد

المخطوطات بها يقدر بنحو خمسين ألفًا وأربعمائة مخطوط، فضلًا عن عشرات الآلاف من الكُتب المطبوعة[1].

ولا تقل **المكتبة الأزهرية** عن الدار المصرية أهمية، حيث تُعد من أكبر خزائن الكُتب والمخطوطات في مصر، حيث تضم نحو مائة وثمانية وعشرين ألف مخطوطة كتاب، ونحو اثنين وأربعين ألف مخطوطة، وفيها من أمهات الكُتب ونوادرها ما ربما لا يوجد في أي دار كتب أخرى، على الرغم مما كان ينتاب الجامع الأزهر في بعض الأزمان من النوائب بسبب الحرائق والفتن والثورات والاعتداءات، وعلى الرغم مما تم اختلاسه وانتهابه من كتب أروقته.

وكانت حتى عام ١٨٩٧م عبارة عن مكتبات صغيرة متناثرة في أروقة الجامع الأزهر الخاصة ببعض الطوائف من الطلبة؛ كالأتراك والمغاربة والشوام والسنارية والحنفية والشرقاوية والعفيفي والجبرتي والزرقانية والجيزاوية والشنوانية واليمنية والبحاروة والصعايدة والفشنية والعباسية وغير ذلك، والتي أُنشئت على فترات متباعدة منذ إنشاء الجامع الأزهر عام ٣٥٧هـ، وجملتها تسعة وعشرين رواقًا، وكان في جُل هذه الأروقة - من تمام التيسير على

(١) وتحتوي الدار على وحدة للميكروفيلم تربو مفرداتها على الاثنين وستين ألف وستمائة ميكروفيلم، وأهم ما يعيب هذه الدار قلة معرفة وخبرة موظفيها بعلم المخطوطات والمكتبات، وعدم تنظيم الكُتب والمخطوطات فيها، لاسيّما المخطوطات التي لم يتم حصرها وفهرستها إلى اليوم فهرسة كاملة، وقد بذل القائمون على الدار اليوم جهدًا لفهرستها فهرسة إلكترونية تفصيلية باستخدام الكمبيوتر، بيد أنها جاءت غير منظمة، ومليئة بالأخطاء من حيث البرمجة؛ حيث بُنيت على تنظيم عشوائي للفنون، ومن حيث اللغة؛ حيث تُكثر في البيانات المسجلة والتصحيفات والتحريفات والأخطاء الإملائية التي يصعب معها التوصل للمخطوطات المطلوبة، وعلى أي حال؛ فهذه الفهرسة تُسهل للباحثين عملية البحث الآن أكثر من أي وقت مضى.

طلبة العلم - مكتبة خاصة بكل رواق، تبتدئ بعدد قليل من الكُتب يقفها أهل العلم والفضل، ثم تتزايد.

وظلت مكتبات الأروقة المُشار إليها دون ضبط أو رقابة أو تنظيم أو ترتيب أو صيانة أو رعاية؛ مما أدى إلى تلف أوراق كثير من مخطوطاتها، حتى لم يعد فيها كتاب سليم مستقيم؛ اللهم إلا ما ندر، كما أدى إلى ضياع كثير من نفائس الكُتب التي كانت مودعة بها، وتهريبها إلى مكتبات أوروبا بواسطة سماسرة الكُتب والمخطوطات، مستغلين جهل وجشع القائمين على مكتبات الأروقة، فبيعت في أوروبا بأبخس الأثمان، ولا أدل على ذلك من أن "ديوان عموم الأوقاف" أمَرَ عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م بجرد كتب مكتبات المساجد والتكايا وأروقة الأزهر وحاراته، وقيدت جميعها في سجلين جامعين؛ خصص أولهما لمكتبات الجامع الأزهر، وثانيهما لمكتبات المساجد والتكايا، وقد بلغ مجموع المجلدات الموجودة في مكتبات أروقة الأزهر نحو ثماني عشرة وستمائة مجلدة، وبالرجوع إلى هذا السجل التاريخي يتضح أن كثيرًا من نفائس الكُتب ونوادرها فُقدت، أو سُرقت بعبارة أدق، ومما يذكر أن السجلين ذاتهما المشار إليهما قد تسربا أيضًا خارج الأزهر، ولم يعودا إليه إلا بالشراء عام ١٩١١م[١]، وهذا من أعجب ما وقفت عليه!

---

(١) يقول **عبد الكريم سليمان** - وهو أحد أهم الذين عُهد إليهم ضم مكتبات الأروقة لبعضها، وإنشاء دار الكُتب الأزهرية الكبرى، وشاهد عيان على حالة الكُتب والمخطوطات عندما أُتي بها من مكتبات الأروقة لضمها للمكتبة الأزهرية - في كتابه (أعمال مجلس إدارة الأزهر في عشر سنين): "كان في الأزهر خزائن كتب وضعت في بعض الأروقة والحارات، وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفاكهاني وجامع العيني، ونيط حفظها جميعها بأشخاص يقال لهم "المُغيرون"، فتصرفوا فيها تصرفًا سيئًا

ورأى القائمون على أمر الجامع الأزهر في شعبان ١٣١٤هـ / مايو ١٨٩٧م، زمن مشيخة حسونة بن عبد الله النواوي (١٨٣٩: ١٩٢٤م)؛ أن يحصروا هذه الكُتب ويحصوها، فجمعت تلك الكميات القليلة المتفرقة، وتألفت منها دار الكُتب الأزهرية الكبرى، مع العلم بأن بعض مكتبات الأروقة؛ لاسيَّما الكبرى منها كأروقة المغاربة والأتراك والشوام والصعايدة والحنفية؛ لم تُضم لدار الكُتب

للغاية صح معه إطلاق اسم "المُغيرين" عليهم، لأنهم غيروا وضعها، وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها، وتركوا ما لا عناية لهم به منها في التراب يأكله العث ويبليه التراب، وهذا غير ما تصرفوا فيه تصرف الملاك، وصار بأيدي باعة الكُتب يباع على نفاسته بالثمن البخس، ولم يبال المتصرف الأول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكُتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء، وبالجملة فلم يكن ليعرف للكتب قيمة ولا ينتفع بها لعدم إمكان الانتفاع".

ثم يقول: "حُملت تلك الكُتب من خزائنها السابق ذكرها إلى ذلك المكان الجديد، فكان يأتي بها أولئك "المغيرون" محشوة في الزكائب والمقاطف، ثم يفرغونها تلالًا وأكوامًا عليها خيوط العناكب، وبينها الأتربة، وتتخللها الجلود البالية، وليس بينها من كتاب سليم مستقيم الوضع إلا ما لا يكاد يُذكر، وبجانبها أولئك الموظفون المكلفون بجمعها وترتيبها، وأعضاء المجلس والأمين يراقبون عملهم، ويرشدونهم إلى الطريق الأقوم، فعملوا وكدوا واستخلصوا من بين هذه الدشوت والأوراق المتفرقة كتبًا معتبرة في كل الفنون، وكان معهم مندوب من ديوان الأوقاف، وموظف أخر نيط به تقويم كل كتاب وجد أو جمع بالثمن اللائق به، وقُيِّدت في دفاتر بأعداد متسلسلة، واستلمها الأمين بأثمانها المقدرة لها، ثم اشتغلوا بعد ذلك في توحيد الفنون، وقرروا لكل فن موضعًا مخصوصًا من المكان، وقد استغرق عملهم هذا أزمانًا طوالًا كانت كلها أتعابًا ومشاق، وإني لأعرف كتبًا كثيرة مما تجده الآن كاملًا كان الكتاب الواحد منها بعضه في خزانة فلان، وبعضه الآخر في خزانة فلان، ولم تجتمع أجزاؤه بعضها على بعض إلا بطريق المصادفة الحسنة، وأعرف كذلك أن بعض الكُتب النفيسة النادرة الوجود وُجِد في دشت كان في خزائن الجامع العيني، ولم يعبأ به أحد ممن تولوا تقييدها للطلاب، ولم يُعْنَ بفرز الدشت لوجود تلك النفائس بين أوراقه إلا بعد أن كان قد صدر أمر أحد مشايخ الجامع بإحراقه، وتدارك الأمر من يعرف قيمة العلم، ولا يبالي بالتعب في المحافظة عليه، وقد رأيت بعيني كثيرًا من المصاحف الشريفة وهي بين الأتربة مع أنها من أجود المصاحف خطًا وورقًا، وفيها من الفوائد وعلوم التجويد ما لا يوجد في سواها، وغير ذلك كثير".

فور إنشائها، فظلت على حالها بالأروقة، وخصص لها أمناء عليها كانوا خاضعين لمراقبة دار الكُتب الأزهرية.

وقد أخذ أعيان المسلمين يمدون دار الكتب الأزهرية بعد إنشائها بنفائس الكُتب، وفي مُقدمتهم: حسونة النواوي شيخ الأزهر، وأحمد مختار باشا الغازي، وأحمد باشا راشد، ورضوان باشا، ورشيد باشا، وبعض مكتبة مدرسة القضاء الشرعي، والشيخ الطوخي، ومحمد فراج، وحسين سامي بدوي المُدرس بمعهد القاهرة، وإمام السقا، وأسماء هاشم طليمات، وبعض مكتبة زكي باشا، وورثة سليمان باشا أباظة، وبعض مكتبة إبراهيم حليم باشا بأمر من الملك فؤاد، وورثة عبد القادر الرافعي، ومحمد الأنبابي بواسطة وزارة الأوقاف، وأحمد باشا حسنين البولاقي، وورثة مصطفى العروسي شيخ الأزهر، ومحمد بخيت المطيعي مُفتي الديار المصرية، وقد مضى ذكر بعض هذه المكتبات.

وقبل أن يُتوفى **حسن باشا جلال الحسيني** القاضي بمحكمة الاستئناف؛ أوصى لدار الكُتب الأزهرية بنحو سبعمائة مجلدة من نفائس مكتبته الشهيرة، وأُهديت إليها مكتبة إبراهيم حفظي عام ١٩٢٢م، وعدد مجلداتها نحو ثلاثمائة وتسعين مجلدة، **والشيخ بسيم** كانت له مكتبة فيها نحو ألف مجلدة في مختلف الفنون برواق الجبرتي، ورغب في نقلها إلى المكتبة الأزهرية بخزائنها، فتمت رغبته عام ١٩٢٥م، كما أُهديت إليها مكتبة **إبراهيم السقا** وأخيه **عبد العظيم** عام ١٩٢٧م، وعدد مجلداتها خمسمائة وتسعين مجلدة، وبها نوادر من المخطوطات، ومكتبة **الشيخ أحمد الجوهري** عام ١٩٢٨م، وعدد مجلداتها نحو ثلاثمائة وأربعين مجلدة، ومكتبة

محمد عبد اللطيف الفحام (ت ١٩٤٣م) أهداها ورثته إلى المكتبة الأزهرية إثر وفاته، وبها نحو ألف مجلدة[1].

يُضاف إلى ما تقدم مكتبة الإسكندرية؛ وهي مُقسَّمة بحسب مصادر الكتب والمخطوطات فيها، ولعل أهم أقسامها: بلدية الإسكندرية، أبي العباس، والأولى تضم بمفردها ما يربو على ستة آلاف مخطوط.

ومكتبة طوب قابي في إسطنبول، وتضم نحو عشرين ألف مخطوطة، فضلًا عن آلاف الكتب المطبوعة، ولعل أهمية هذه المكتبة تكمن في أنها تحتوي على عدد هائل من وثائق الدولة العثمانية الرسمية.

ومكتبة الحرم المكي؛ وهي من أهم مكتبات الحجاز؛ حيث كانت موئل العلماء على مر الدهور، وضمت إلى جنباتها عشرات الآلاف من أنفس الكُتب والمخطوطات، بعدما فُصلت عن المسجد الحرام الذي كانت ملحقة به حتى زمن قريب، حيث نُقلت إلى حي العزيزية بمكة، وخُصص مبنى مستقل لها[2].

---

(١) وقد أدرك القائمون على الأزهر أهمية أن يكون للمكتبة بند خاص بميزانية الأزهر لسد حاجة المكتبة من النواقص، وشراء المطبوعات الحديثة، فرصدوا لهذا الغرض في ميزانية الأزهر مبلغًا خاصًّا، ولضمان حسن التصرف فيه على أكمل وجه قرر مجلس إدارة الجامع الأزهر في شوال ١٣٢٧هـ / نوفمبر ١٩٠٩م تشكيل لجنة برئاسة وكيل الجامع الأزهر، وعضوية أمين المكتبة وغيرهما؛ يكون من اختصاصها النظر في مشترى الكُتب اللازمة للكتبخانة.

بيد أن مما يحزن المرء أن بعض كُتب المكتبة لا يزال بغير حصر ولا ترتيب مناسبين، فلعل الله تعالى يقيض لها أمناء يبذلون جهدًا لائقًا مناسبًا لقدرها وقيمة ما فيها.

(٢) ومما يعيب المكتبة عدم تنظيم وفهرسة المخطوطات المصورة فيها بصورة كاملة، وإغفال تسجيل بعض البيانات الأساسية عن المخطوطات بها، وقلة معرفة وخبرة

وهذا غيض من فيض، وقليل من كثير؛ لندرك كيف كُنا وإلام صِرنا، وإلا فإن تُراث الأمة أكثر من أن يُحصى، ومكتبات المسلمين أكثر من أن تحصر، وهو ما جعل المستشرقة الألمانية **سيجريد هونكة** Sigrid Hunke (١٩١٣: ١٩٩٩م)[١] تقول في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب): "نَمَت دور الكُتب في كل مكان في بلاد المسلمين نمو العُشب في الأرض الطيبة، حتى أنها بلغت في بغداد وحدها عام ٨٩١م أكثر من مائة دار كتب عامة"[٢].

موظفيها بعلم المخطوطات والمكتبات.

(١) مستشرقة وكاتبة ألمانية، درست علم أصول الأديان ومقارنتها والفلسفة وعلم النفس والصحافة، وحصلت عام ١٩٤١م من جامعة برلين على دكتوراه في الأدب، وكانت أطروحتها في (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية)، واشتهرت بدفاعها عن التاريخ الإسلامي، ورد الأباطيل الغربية حوله، في عام ١٩٥٥م صدر مؤلفها الأول (الرجل والمرأة)، وهو كتاب تاريخي أكدت فيه فضل العرب والمسلمين على الحضارة الغربية خاصة، والإنسانية بصفة عامة، ثم وفي ١٩٦٠م أصدرت كتابها (شمس الله تسطع على الغرب)، ونالت شهرة طائلة بسببه، حيث تدور فكرته الأساسية حول أفضلية الحضارة الإسلامية على الغربية، وأن كل ما جاء في الحضارة الغربية يرجع فضله إلى العرب، بل لولا العرب ما وصل الغرب إلى ما وصلوا لهُ الآن، وفي عام ١٩٧٤م اشتركت مع د. مصطفى ماهر وآخرين في مقال واسع بعنوان (أنهار من الشرق تُسقي حقول الثقافة الألمانية)، ثم في ١٩٧٦م أصدرت كتابها (الإبل على بلاط قيصر)، وفي ترجمة أخرى (قوافل عربية في رحاب قيصر)، ثم في ١٩٩٥م نُشرت الطبعة العربية لكتاب (الله ليس كذلك)، الذي كشفت فيه عن الأحكام المسبقة والمغلوطة التي روجت في الغرب ضد الإسلام وأهله، وصدر بمشاركة ثلاث مؤسسات؛ هي دار الشروق المصرية، ومؤسسة "بافاريا ميونخ" الألمانية، ومجلة النور الكويتية، ثم أعاد المركز القومي المصري للترجمة إصداره، وآخر كتبها كان (التوجه الأوربي إلى العرب والإسلام)، وتوفيت في هامبورغ عن عمر يُناهز ثلاثة وثمانين عامًا، وتذكر بعض المصادر أنها أسلمت قبل وفاتها بعام أو عامين، ولا يُعلم من مصدر موثوق فيه أنها أسلمت حتى وفاتها كما أُشيع عنها.

(٢) سيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، دار صادر (بيروت)، الطبعة الثامنة، ص ٣٨٥.

وجدير بالذكر أن عنوان الكتاب الأصلي (شمس الله تسطع على الغرب)، لكن الخلفية

وعلى سبيل المثال؛ فإن عدد الكتب المخطوطة في مكتبات تركيا العامة - دون الخاصة - والبالغ عددها نحو خمس وثلاثين مكتبة عامة؛ يُقدر بثلاثمائة ألف مخطوطة، منها باللغة العربية ما يربو على مائة وستين ألف مخطوطة، بينما يبلغ عدد المخطوطات باللغة التركية سبعين ألفًا، والفارسية ثلاثة عشر ألفًا، وغيرها مئات المخطوطات باللغات اليونانية والأرمنية والسريانية، كل هذا خلاف مخطوطات وثائق **الأرشيف العثماني**؛ التي يُقدر عددها بنحو مائتين وخمسين مليون مخطوطة، هذا فضلًا عن عشرات الآلاف من المخطوطات المنتشرة في المكتبات الخاصة، وفي شتى بلاد العالم في الشرق والغرب.

القومية لمترجميه أثرت في عنوان الترجمة العربية الصادرة، وجدير بالذكر أيضًا أن ظهور الكتاب حدثٌ كبيرٌ في أوروبا بصفة عامة، وألمانيا بصفة خاصة، وتعرضت المؤلفة بسببه لهجوم قوي جدًا من قبيل النقّاد في الصُحف والمجلات، على نحو لم يَسبقها فيه أحد، حيث اتهموها بالتعصب للعرب، والتحيز للمسلمين، أثر هذا الهجوم تأثيرًا كبيرًا في ذيوع الكتاب وانتشاره، وتلقي مادته بالقبول والاستحسان، على الرغم من أنه كان في الأصل موجهًا للمواطن الغربي المُثقف بصفة عامة كما هو واضح من التعليقات والشروح في آخر كل باب، ولم يكن موجهًا للعامة، ولم يصدر أي كتاب في نقد موضوعه حسبما أعلم، وقد تُرجم إلى سبع عشرة لُغة، وطُبع مئات الطبعات. وعلى الرغم من أن الكتاب يتميز بالكثافة العلمية والاستقصاء البحثي الذي يدُل على أن الكاتبة تعمقت في دراسة التاريخ الأوروبي، وحقبه المُختلفة، والتاريخ الإسلامي أيضًا، وحقبه المُختلفة بعُمق أكبر، وعَلى الرغم من الغزارة الشديدة بالمعلومات؛ فإنه يعيبه عدم تنظيمه، وعدم وضوح تقسيمه، والخلط المستمر بين العرب والمسلمين، تُشير الكاتبة إلى علماء مسلمين ليسوا عربًا على أنهم عرب، وهو خطأ شائع بين كثير من القراء والكُتّاب في التاريخ الإسلامي، وحتى بين عموم الناس عربًا وغير عرب، بالإضافة لعدم التوثيق العلمي للمعلومات والبيانات، فالكتاب في غالبيته لا يوجد فيه ذكر للمراجع والمصادر التي استقت منه الكاتبة مادتها العلمية.

نحن والغرب

من أهم الأسباب التي أدت إلى تخلف الفكر الإسلامي والعربي ترسيخ فكرة أننا مُفرطون في اقتناء الكُتب وتأليفها، وقد كان المسلمون الأوائل شغوفين بالعلم والمُطالعة والمدارسة واقتناء الكُتب وتصنيفها شغفًا مُنقطع النظير، يُشبه إلى حد كبير شغف الناس في عصرنا بالملابس والتكنولوجيا واقتناء الأجهزة والسيارات، بل إن ثراء الناس كان يُقاس بما يملكونه من كُتب كما يُقاس ثراء الناس اليوم بما يملكونه من أموال وعقارات.

فأحدث الإحصاءات تُثبت أن عدد ما تطبعه الدول العربية بأجمعها من الكُتب يُقارب المليون كتاب سنويًا، موزعة على ثلاثمائة مليون مواطن؛ ٦٠٪ منهم أميون وأطفال، و٢٠٪ لا يقرأون أبدًا، و١٥٪ يقرأون بشكل متقطع وليسوا حريصين على اقتناء الكُتب، ونسبة ٥٪ هم المواظبون على القراءة، وهم نحو خمسة عشر مليون فرد فقط، أي أن نصيب المواطن الواحد أقل من كتاب واحدٍ سنويًا؛ في مقابل نحو خمسمائة وعشرين كتابًا للمواطن الأوروبي، ومائتين وعشرة كتبٍ للمواطن الأمريكي سنويًا!

وبناءً على استطلاعات (ورشة العمل العربية لإحياء القراءة)، والنتائج الصادرة من (اتحاد كتاب الإنترنت العرب)؛ تبين أن الوقت الذي يستغرقه المواطن العربي في القراءة الحُرة لا يتعدى الدقيقتين في العام، بينما تصل في أوروبا إلى ست ساعات للفرد في العام.

وأشار بعض الباحثين العرب إلى أن كل ثلاثة آلاف ومائتي مواطن عربي يقرأون كتابًا واحدًا في السنة، في حين أن متوسط ما يقرؤه الأوروبي هو خمسة وثلاثين كتابًا في السنة، والمواطن الهندي يقرأ ما يُقارب عشر ساعات أسبوعيًا.

بل في بعض سجون البرازيل؛ يستطيع المسجون أن يُقلص مدة عقوبته أربعة أيام إذا قرأ كتابًا وكتب عنه تقريرًا[١]، وفي بعض بلديات رومانيا تُمنح تذاكر وسائل النقل العام مجانًا لمن يقضون أوقاتهم في القراءة في أثناء ركوبها.

فنسبة المُطالعة والاهتمام بالكتاب في العالم العربي هي الأقل من مثيلاتها في الشرق والغرب، والمؤسسات التعليمية والتربوية فيه عاجزة تمامًا، وغير قادرة على تنمية قيمة القراءة الحُرة، والارتقاء بمستوى المواطن فيما يتعلق بالاهتمام بالقراءة، أو توفير مناخات مُشجعة على الإبداع وتنمية مهارات الكتابة، ناهيك عن دور المؤسسات والجماعات الدينية التي تمارس أبشع أدوار الإقصاء العلمي، الذي يُؤثر سلبًا في الاهتمام بالقراءة والكتابة.

في المقابل؛ فإن الخطوة الأولى والأهم التي نقلت أوروبا من حال التخلف إلى النهضة كانت الاهتمام بالقراءة والكتابة، ونقل تُراث المُسلمين وترجمته.

فبينما أشهر أديرة الغرب في القرن الحادي عشر الميلادي لم

---

(١) وفي بعض سجونها أيضًا - كسجن سانتا ريتا - يستطيع المسجون تقليص مدة العقوبة يوم كل أربعة وعشرين ساعة يقوم فيها بممارسة الرياضة على عجلة تستخدم في توليد الكهرباء للمنطقة المحيطة بالسجن.

نحو أكثر من اثني عشر كتابًا، رُبطت بالسلاسل خشية ضياعها[١]، فمكتبة واحدة من مكتبات المسلمين وقتها هي **دار الحكمة**؛ المعروفة **بدار العلم** في مصر، كانت تحوي ما يقرب من مليون وستمائة ألف مجلدة، بينها ستة آلاف وخمسمائة مخطوطة في الرياضيات وحدها، وكان الدخول إليها والنسخ والترجمة مجانًا.

وفي حين كانت إنجلترا في القرن السادس عشر الميلادي تنتج نحو أربعين كتابًا فقط سنويًا حسب إحصائيات المكتبة البريطانية[٢]، كانت بغداد وحدها تنتج أكثر من عشرة أضعاف هذا العدد.

وفي الوقت الذي كانت بلاد المسلمين عامرةً بالمدارس العلمية والفكرية، والمكتبات زاخرةً بمئات الآلاف من المُعلمين والطلبة المُتقنين؛ كان يُنظر للقراءة والكتابة في أوروبا في القرن **الثالث** عشر الميلادي على أنهما صنعتان معقدتان لا يصلح لهما إلا رجال الدين، وظل تعليم القراءة والكتابة بدائي الشكل، مُرتبطًا بالعقائد الدينية، ولم يكن اقتناء الكتب مُتيسرًا إلا لفئات قليلة جدًّا من الناس، فضلًا عن فهمها، فلم تكن ثمَّة طريقة موحدة لكتابة الكلمات، وكانت القراءة عملية شاقة، حتى على المُترهبنين أنفسهم، وفي أغلب الأحيان فإن المُعلم كان هو الشخص الوحيد الذي يعرف فنون القراءة، ويحرص على اقتناء الكتب[٣].

---

(١) سيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

(٢) مات هيغ: ملاحظات حول كوكب متوتر، ترجمة: محمد الضبع، دار كلمات (الكويت)، الطبعة الخامسة ٢٠٢٠م، ص ٨٥.

(٣) آلبرتو مانغويل: تاريخ القراءة، ترجمة: سامي شمعون، دار الساقي (بيروت)، الطبعة الرابعة ٢٠١٤م، ص ٨٨: ٩٤.

لكن سرعان ما تبدلت الأحوال، وأصبحت مكتبات أوروبا بعد تحضرها وتخلف المسلمين زاخرةً، لا أقول بآلاف ومئات الآلاف؛ بل بملايين المخطوطات، فإسبانيا وحدها بها أكثر من ثلاثمائة ألف مخطوطة من تراث المسلمين، وفي مكتبة واحدة من مكتبات ألمانيا هي "**شتات بيبليوتيك**" في العاصمة الألمانية برلين، والتي تأسست عام ١٦٦١م على يد **فريدرش فيلهم فون** (١٦٢٠ : ١٦٨٨م)؛ حاكم براندنبورغ بروسيا، وكانت ملكه الخاص؛ يوجد فيها وحدها نحو خمسة عشر ألف مخطوطة من مخطوطات المسلمين باللغة العربية، وفيها مجموعة هي من أندر المخطوطات في العالم.

و**المكتبة الوطنية** في باريس، وهي من أهم مراكز المخطوطات في العالم، يُقدر ما فيها بنحو مائة وخمسة وعشرين ألف مخطوطة، ومثلها في إنجلترا المكتبة البريطانية؛ التي تضم عددًا هائلًا من أنفس المخطوطات الإسلامية والعربية، وتقدر المخطوطات الإسلامية والعربية فيها بنحو خمسة عشر ألف مخطوطة، وفي الولايات المتحدة العديد من المكتبات الكبرى؛ من أهمها مكتبة جامعة برنستن؛ التي تضم نحو عشرة آلاف مخطوطة، ومكتبة جامعة بابل في نيوهافن، وتضم نحو ألف ومائتي مخطوط.

وبالطبع فنصيب الهند ربما يكون هو الأكبر من باقي الدول؛ لتاريخها الإسلامي، ودور علمائها في علوم الحديث والفقه منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وأهم مكتبات التراث فيها **مكتبة خدا بخش الشرقية العامة**، التي تضم ما يزيد على العشرين ألف ومائة مخطوطة، منها ما يقرب من تسعة آلاف باللغة العربية، و**متحف سالار جنغ** الذي يوجد فيه أكثر من ثمانية آلاف وخمسمائة

مخطوطة، منها أكثر من ألفين وستمائة مخطوطة باللغة العربية، وفهارسه وحدها تقع في سبع عشرة مجلدة باللغات العربية والفارسية والأردية، فضلًا عن **مكتبة جامعة همدرد** التي تأسست عام ١٩٥٦م، وضمت ما يزيد على ثلاثة آلاف وستمائة مخطوطة، أغلبها باللغتين العربية والفارسية، بالإضافة إلى **دائرة المعارف العثمانية** في حيدر أباد؛ التي تأسست عام ١٩١٨م، وكان الهدف من تأسيسها تجميع المخطوطات الإسلامية وصيانتها وتحقيقها ثم طبعها، لاسيَّما القديم والقيم منها، الذي يرجع تاريخه إلى ما بين القرن الأول والثامن الهجريين، وتضم أكثر من ثلاثة آلاف وأربعمائة مخطوطة، منها نحو ألف وسبعمائة مخطوطة باللغة العربية.

وغير ما تقدم؛ مئاتُ المكتبات التي تضم ما لا يمكن تصوره من مخطوطات المسلمين، ولم يكن أهم ما ارتكبه الأمريكان في العراق عام ٢٠٠٣م القتل والتشريد، بل سرقة مكتباتها وآثارها وتراث المسلمين المخطوط والفني الموجود بها.

وبالمثل ارتكب الفرنسيون في اعتدائهم على دولة مالي[١]، فبعد أن خرجت فرنسا منها عام ١٩٦٠م، ومعها مئات المخطوطات من تراث المسلمين نقلتها إلى متاحف باريس ومكتباتها العامة، تكررت المأساة عام ٢٠١٣م، إذ قامت الجيوش الفرنسية الغازية بتدمير مدينة تمبكتو؛ إحدى أهم عواصم الثقافة الإسلامية في إفريقيا، وإحدى أكبر محطات التراث الإسلامي المخطوطة، والتي تحتوي على

(١) وهي ذات أكثرية سكانية مسلمة، وقد كانت مستعمرة فرنسية منذ عام (١٩٠٤م)، وسُميت بالسودان الفرنسية، ثم استقلت عن الاحتلال الفرنسي في (٢٢ سبتمبر ١٩٦٠م).

كثير من المعاهد والمراكز الثقافية؛ أهمها معهد أحمد بابا التمبكتي للدراسات العليا والأبحاث الإسلامية، والذي كان يضم ما بين ستين ألف إلى مائة ألف مخطوطة هي من النفائس، فضلًا عن غيره من المعاهد والمراكز التعليمية والثقافية التي تضم أكثر من سبعمائة ألف مخطوطة من تراث المسلمين باللغة العربية واللغات الأفريقية المحلية، حيث مثلت "تمبكتو" مُلتقى علماء غرب ووسط أفريقيا[1].

وقد روجت فرنسا لجرائمها تلك بنشر أخبار تؤكد أن الثوار في مالي هم من أحرقوا مخطوطاتها وآثارها وتراثها، ودمروا مكتباتها ومتاحفها، وذلك في سياق تغطيتها على عمليات النهب والسرقة التي قامت بها، وهذا ما أكدته صحيفة لوس أنجلوس تايمز الأمريكية، عندما تحدث مندوبها للمُشرفين على مكتبات المخطوطات في "تمبكتو"، ونفوا قيام الإسلاميين بحرقها[2].

لقد أجمع الغالب من مفكري الغرب ومستشرقيه على أن تراث المسلمين المكتوب كان له أعظم الأثر في التأسيس لحضاراتهم وازدهارهم ومدَنيّتهم، وإذا جئنا لمقارنة سريعة بين أحوالهم وأحوالنا

(١) وقد أفاض الرحالة ابن بطوطة في وصف حُسنها وأهميتها العلمية، لكنها لم تحظ - للأسف الشديد - في العصر الحديث باهتمام الماليين أنفسهم، حيث حرص المُحتل الفرنسي على إبعاد أهل مالي عن اللغة العربية، وعمل على نشر الثقافة واللغة الفرنسية، في إطار سياسات تغريب الشعب المالي وعلمنته.

(٢) جدير بالذكر أن فكرة نهب المكتبات ترجع إلى الأوربيين القُدماء، يذكر **لورنس س. تومبسون** أن المكتبات الرومانية المُبكرة تكونت في المقام الأول من المخطوطات الإغريقية التي سرقها الرومان، حيث نهبوا محتويات المكتبات الإغريقية عن بكرة أبيها، ومنها: المكتبة الملكية المقدونية، مكتبة مثريداتس من بونتوس، مكتبة أبيليكون من تيوس، وغيرها من المكتبات.

Lawrence S. Thompson; Notes on Bibliokleptomania, New York, Sep 1994.

الآن، فنحن لسنا أقلهم في القراءة فحسب، بل بالتبعية نحن أقلهم إنتاجًا للكتب والكُتّاب، فمجموع إنتاج الكُتب في العالم العربي لا يتجاوز ما نسبته ١,١٪ من الإنتاج العالمي، وفي مجال واحد يُعد من أهم مجالات الكتابة؛ وهو دراسات النشء، أثبتت إحدى الدراسات الصادرة عن مُنظمة اليونسكو أن حجم الكُتب المخصصة للطفل العربي سنويًا يُقدر بأربعمائة كتاب؛ مقابل أكثر من ثلاثة عشر ألفًا ومائتين وخمسين كتابًا في السنة للطفل الأمريكي، ونحو أربعة آلاف للطفل البريطاني، وألفين ومائة كتاب للطفل الفرنسي، وألف وخمسمائة للطفل الروسي!

كُل هذا ونحن نتكلم عن المادة المنشورة فقط، وإلا فإن المواد المنشورة في هذه البلدان لا تُمثل سوى أقل من ١٠٪ من المواد المخطوطة التي تبحث عن ناشر، وفي بلد كالولايات المتحدة يوجد سنويًا ما يقرب من مليون مخطوطة؛ لا يُطبع منها سنويًا سوى ١٪ بحسب دراسة نشرها موقع Publishing Explained، وأوردتها ميريديث ماران Meredith Maran في مقدمة كتاب (لماذا نكتب؟ .(Why We Write?

ونحن بالتبعية - ضرورةً - الأقل أيضًا في مبيعات الكُتب، وعلى الرغم من زيادة السكان؛ فإن مبيعات الكُتب تقل كل عام بنسبة متوسطها ٣٪، ودور النشر والطباعة تعاني أشد المعاناة، وتضطر مع انخفاض مبيعات الكُتب سنويًا لزيادة أثمانها؛ لتغطية تكاليف نشاطها، ولا يغُرنّ البعض معارض الكُتب السنوية التي نُفاخر بها في الرياض والكويت والشارقة والقاهرة والجزائر وغيرها، فمعارض الكُتب في الغرب لا تنقطع، فالكتاب عندنا في محنة كما القراءة،

بل محنة القراءة من محنة الكتابة، وهذا من أهم أسباب ضعف أمتنا، وتكالب الأمم عليها.

ويُمكن أن يُقال إن هذه الجناية كانت انعكاسًا طبيعيًا للبون الشاسع بين دور النشر العربية والغربية من ناحية، والكاتب العربي والكاتب الغربي من ناحية أخرى.

والحقيقة إن دور النشر العربية لا يُمكن مقارنتها بدور النشر الغربية، من كل الوجوه، فأكثر الدور العربية لا تعرف شيئًا عن أصول النشر والتوزيع، ولا حتى تعرف أقسام الكتاب من الناحية الببليوغرافية، ويكاد دورها ينحصر في أنها وسيط بين المطبعة والمؤلف.

أما دور النشر الغربية فأكثر تنظيمًا، وأكثر تخصصًا، وأكثر وعيًا بمهمتها ودورها في المجتمع، ويستطيع الكاتب أن يترك لديها مسوّدة كتاب مهم وهو مطمئن أنها سوف تقوم بمراجعته، وتصحيح لغته، وتنسيقه وإخراجه على أحسن صورة، ونشره على أوسع نطاق.

ولذلك ثمة فرق كبير بين الكتاب العربي المعاصر والكتاب الغربي، من الناحية الفنية الخالصة، إذ توجد لدى دور النشر الغربية معايير متفق عليها لجودة الكتاب، وتوثيق مادته، وصلاحيته للنشر، وأخرى لإنتاج الكتاب والتدقيق في لغته، وتنسيقه، واستيفاء أقسامه وفهارسه وترتيبها في الطباعة.

فلا غرابة إذَن أن ينفر الغربي من الكتاب العربي، ويعده غير جدير بالثقة - بصرف النظر عن مضمونه الفكري - عندما ينظر إليه ولا يجد فيه مثلًا إشارات مرجعية في هوامشه للمعلومات والأخبار المحضة، أو لا يجد في آخره كشافًا بالموضوعات والأعلام التي

وردت فيه.

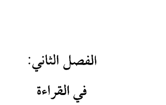
علمًا بأن مهمة توزيع الكُتب ليست في الأصل من اختصاصات دور النشر، فثمة مؤسسات للتوزيع مستقلة، لذلك تتفرغ دور النشر الغربية في الغالب لتحسين أدائها، وتوسيع نشاطها في مجالات بحثية لا يتطرق إليها الناشر العربي مطلقًا، مثل دراسة الميول القرائية، ودراسة الأسواق، وبعضها يكلف الكُتّاب المتخصصين للكتابة في موضوعات محددة مطلوبة من جمهور القُراء، إذ تعد الكتاب كأي سلعة أخرى مطلوبة لنوع معين من المستهلكين، ولذلك ليس بمستغربٍ أن نراها تشجع منافذ بيع السلع الغذائية (السوبر ماركت)، وتقديم الخدمات العادية؛ على تخصيص أركان للكتب تباع فيها كما تُباع باقي السلع.

وأما الفارق الجوهري بين الكاتب العربي والكاتب الغربي؛ فهو بإيجاز كالفارق بين الأُمة العربية الآن في العلم والأُمم الغربية فيه، فهو اختلاف حضاري وثقافي بالدرجة الأولى، إذ ينزع الكاتب الغربي عمومًا إلى أن يُقدّم الجديد المبتكر من الأفكار لقرائه، ويعد هذا إنجازًا كبيرًا إذا نجح فيه، ولا يسوءه في هذا أنه يطرح أفكارًا غير مألوفة للقارئ، ولا يهمه أن يتملّق مشاعره، بل لا يعبأ أن يصدم مألوفاته، أو أن يصطدم بالسُلطة، أما الكاتب العربي - في الغالب - فإنه يتحرى وهو يكتب مواضع الحساسية من الرقابة والسُلطة؛ ليتجنبها أو يدور حولها، ولا يعبأ كثيرٌ من الكتاب المُؤدلجين أن يكذبوا على خصومهم، ويحرّفوا التاريخ من أجل الوصول إلى غايتهم، ولا يلتزمون بالحقيقة الموضوعية حتى وهم يكثرون من الحديث عنها.

هذه الرقابة الفوقية والخوف الذي يسيطر على الكُتّاب والناشرين من السُّلطة؛ أساء إلى التأليف، وحرم القارئ العربي تمامًا من نوع من الكتابة بالغ الأهمية، يتمثل في المذكرات والخبرات الخاصة للقادة والزعماء والمشاهير، فكل من عمل مع هؤلاء واختلط بهم عن قرب رأى أشياء تهم القارئ، وتعلّمه أشياء تمثل قدرًا ولو ضئيلًا للغاية من التاريخ، ستظل خافية إلى الأبد ما لم يكتبها أو يكتب عنها أحد.

ولكن الذي يحدث عادة هو أن كل من اتصل بهؤلاء يُلقَى على خبرته ستارٌ من الصمت، ويطويها في عالم النسيان، ولا يجرؤ على البوح بها، خوفًا على حياته من مقصلة السلطة المستبدة.

ربما يقول البعض محقًّا أني لم أنصف؛ لأني جئت بأفضل النماذج الغربية، وقارنتها بأسوأ النماذج العربية، لكن أستطيع أن أقول بلا ريب أن النموذج الأول يُمثل الشريحة الأكبر من المؤلفين في الغرب، وأن الثاني يُمثل الشريحة الأكبر من المؤلفين العرب، وهي في النهاية ستكون الانطباع الأول لأي قارئ يُحسن اختيار الكُتب، ويقرأها بشغف، ويغوص في أعماقها، ففرصته في البحث عن مبتغاه في الكتب العربية ضئيل محدود، ومحفوف بعدم الثقة إلا في قليل من المؤلفين المُفكرين، حتى أنه سيُدرك مع الزمن وتقدم العمر أن فُرصته لا تحتمل تبديد الوقت في قراءة غثاثات من الكتب، تخدع شهرة أصحابها عوام الناس، ولا يكشف غثاءَها إلا تعاقبُ الأيام.



الفصل الثاني:
في القراءة

لماذا نقرأ؟

كانت "اقرأ" أول ما أمر به رب العزة نبيه صلى الله عليه وسلم، بالطبع لا يوجد اتفاق بين المفسرين حول معنى لفظة { اقْرَأْ } [سورة العلق: الآية ١، ٣] القرآنية، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، لكن دلالتها تكاد بينهم تكاد تكون واحدة، وهي التوجيه نحو التعلم والمعرفة؛ حفظًا واستذكارًا وخطًّا.

وبينما كون النبي صلى الله عليه وسلم أميًّا لا يقرأ المخطوطة؛ كما قال **ابن خلدون** (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)؛ فهو "كمالٌ في حقّه، بالنّسبة إلى مقامه؛ لشرفه وتنزّهه عن الصّنائع العمليّة الّتي هي أسباب المعاش والعمران، ولأنه مُنقطع إلى ربّه"[١] فإنها نقصٌ في حق سائر البشر وعيب، ولذلك جاء الأمر الإلهي بـ { اقْرَأْ } وبتشريف القلم بأن يكون موضعًا لقسم الله عز وجل به، حيث قال: { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } [سورة العلق: الآية ٤]، وهو لا يُقسِم إلا بكل عظيم، فكان القلم بمنزلة سائر مقسُوماته العظيمة كالسماء والشمس والقمر والقيامة وغيرها، وتشريف القلم تشريف للقراءة والكتابة لا ريب.

والقراءة لُغةً: الإظهار والإبراز، تقول العرب: "لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا"، أي لم تُنتِج، وهكذا أثرها في عقل الإنسان وتأثيرها في فكره، فالقراءة ليست مجرد نشاط بصري يتعرف إلى الرموز والأشكال المخطوطة

(١) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر (بيروت)، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج١ ص ٥٢٧.

والمطبوعة، بل هي سلوك مُنْتِج، يحتوي كل أنماط التفكير والتحليل والنقد والحُكم، وهي عملية كبيرة يدخل فيها الفهم والإدراك والربط والموازنة والاختيار والترتيب والتنظيم، ومن هذا المُنطلق تُعرف قيمتها في اكتشاف الأشياء، والوصول للحقائق، واكتساب المعرفة، وتطوير العقل، وتقوية المدارك، وخلق الوعي، وتعميق الفِكر، وتعلم المهارات، وتحسين اللُّغة، وإثراء المُفردات، وتوسيع الخيال، وفهم ما وراء الطبيعة، وإدراك ما لا يُمكن إدراكه بالحواس الجسدية، وبناء الشخصية المتوازنة، وتعزيز المهارات الاجتماعية، وتحسين التواصل الاجتماعي، وضبط السلوك، واكتساب الخبرة، وزيادة الجانب الإبداعي في الإنسان.

ولا تقف أهميتها عند هذا الحد، بل لها من الفوائد النفسية التي تنعكس على السلوك وتُؤثر في الشخصية ما لا يُمكن حصره، فعشرات التجارب الطبية أثبتت أن القراءة تُؤدي لتحسين الذاكرة، وزيادة التركيز، واكتساب الذكاء، وتجديد النشاط العقلي، وفي الغرب يقولون: Reading is exercising the mind, Otherwise the mind gets dumb.

وهي تجمع النفس وتقويها، وقد أُثر عن عشرات الكُتاب - مثل فرانسيس بيكون، وصامويل جونسون، وإمرسون، وهارولد بلوم - قولهم: "نحن نقرأ لتقوية النفس"[١]، فلا يوجد وسيلةٌ أجدى من القراءة تُصلح النفسَ، وتجعلها أكثر استعدادًا لخوض تجارب الحياة بقوة وفاعلية، لاسيَّما القراءة في التاريخ والسير والمذكرات الذاتية

(١) هارولد بلوم: كيف نقرأ؟ ولماذا؟، ترجمة: نسيم مجلي، المركز القومي للترجمة (القاهرة)، الطبعة الأولى ٢٠١٠م، ص ٣٢.

وتجارب الحياة ومعارفها.

يقول أستاذ الأدب الإنجليزي والدراسات الإنسانية **هارولد بلوم** Harold Bloom (١٩٣٠ : ٢٠١٩م): "القراءة حين تنهار؛ يتبعثر معها قدر كبير من النفس"[١]، ولذلك قيل إن القراءة التي ينتبه لها القارئ تخبره كثيرًا عن نفسه.

وتُساعدُ القراءةُ في التخلص من القلق والاكتئاب والملل والرتابة، والحد من التوتر، حتى أن دراسة عن جامعة سايكس عام ٢٠٠٩م؛ أثبتت أن ست دقائق فقط من القراءة يوميًا تكفي للحد من التوتر بنسبة ٦٨٪[٢]، وأثبتت التجارب التي أجرتها الدراسة أن القراءة أفضل وأسرع وسيلة للاسترخاء وتهدئة الأعصاب بفاعلية، وتخفيف التوتر في العضلات والقلب، وعلى حد تعبير د. **ديفيد لويس** David Lewis (١٩٤٢م: -) **أستاذ الطب العصبي والنفسي المعرفي**: Losing yourself in a book is the ultimate relaxation.[٣]

والأهم أن للقراءة أبعاد اجتماعية في المجتمعات المُتعلمة، أو ذات الحضارة العريقة؛ أبعد مما تقدم، فهي إحدى أهم الوسائل للدخول إلى قلب الجماعة، والتفاعل مع تاريخها؛ إما تأثُّرًا أو تأثيرًا، فلا غرابة أن تعد إحدى وسائل تعبئة الجماهير.

لذلك مثلت القراءة قيمة خاصة جدًا لدى بعض المُجتمعات

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) في حين كان نصيب المشي في خفض معدلات التوتر ٤٢٪، وشُرب الشاي ٥٤٪، والاستماع إلى الموسيقى ٦١٪، وفي المقابل زادت ألعاب الفيديو من التوتر بنسبة ٢١٪.

(3) https://cutt.ly/xElNAnc.

التي فقدت اتصالها بالماضي، مثل المجتمع اليهودي في العصور الوسطى، الذي كان يقوم بطقوس احتفالية لتعلم القراءة، كاحتفاله بالطقوس الاعتقادية، وفي المجتمع المسيحي قبل القرن الثالث عشر الميلادي كانت القراءة - مع صعوبتها وندرتها - مهمة لبعض الفئات الخاصة؛ كأبناء الطبقة الأرستقراطية[١].

فالثقافة لا تنمو إلا باللغة، واللغة لا تنمو إلا بالقراءة، وإذا كانت بعض اللغات، وفي مقدمتها العربية تمتلك الكثير من الألفاظ والمعاني وبالتبعية الدلالات، فميدانها الأساسي هو الكتاب، واللغة المنطوقة مهما توافرت ومهما تنوعت مفرداتها لا يمكن أبدًا أن تُكافئ اللغة المكتوبة، فضلًا عن أن القابلية للانحدار والانهيار في المنطوقة أوفر وأوسع بكثير مجالًا من تلك المكتوبة بفعل "العامية" و "السوقية"، لذلك كانت القراءة المصدر الأساسي لكسب اللغة كسبًا حقيقيًا والمضي فيها لأبعد مدى، يحكي **محمد الخضري بك** الفقيه المصري (١٨٧٢: ١٩٢٧م) أنه تقابل مع **محمد محمود التُرْكُزِي التلاميد الشنقيطي** (١٨٢٩: ١٩٠٤م) ذات مرة، فأعجب الأخير - وهو من هو في اللغة والفصاحة - بفصاحته وأدبه، فسأله عمن تلقى الأدب العربي، فأجابه الخضري: "عن الكتب يا سيدي"، فاستغرب الشنقيطي وقال: "إن الكتب لا تصلح معلمًا"، فقال الخضري: "وماذا نصنع وقد انقطعت الصلات بيننا وبين أسلافنا، فلا معلم ولا مسند وإذا رأيتك فقطني"، فتهلل وجه الشنقيطي من جوابه.

إن السبب الرئيسي لانتشار اللغة الإنجليزية اليوم في العالم

(١) ألبرتو مانغويل: تاريخ القراءة، مرجع سابق، ص ٨٧: ٨٨.

كلغة أولى نطقًا وكتابة، بعيدة كل البعد عن كل اللغات تقريبًا؛ أنها مادة القراءة الأساسية في المجتمعات العلمية والبحث العلمي بل وأحيانًا في الثقافة والقراءة الحرة، فهي الميدان الرحب للعلوم والفكر والأدب العالمي، ولا مجال لاستغناء أي باحث في أي تخصص عن المصادر الإنجليزية في تخصصه.

وفي المجتمع الإسلامي؛ كان للقراءة مكانتها العريقة في قيام الحضارة، إذ كان لعموم المسلمين شغف شديد في القراءة والمُطالعة بصورة لم تحدث من قبل ولم تتكرر، ويكفي في إيضاح هذا الشغف قول المُبرد: "ما رأيتُ أحرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، أما **الجاحظ** فإنه كان إذا وقع في يده كتابًا قرأه من أوله إلى آخره، أي كتاب كان، وأما **الفتح بن خاقان** فكان يحمل الكتاب في خُفه، فإذا قام من بين يدي المتوكل ليَبول أو ليُصلي؛ أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي، حتى يبلغ الموضع الذي يُريد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه، وأما **إسماعيل بن إسحاق** فإني ما دخلت عليه قط إلا وفي يده كتاب ينظر فيه، أو يُقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه، أو ينفض الكتب".

قال الذهبي في ترجمة **الجاحظ** (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م): "لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته، حتى إنه كان يكتَري[1] دكاكين

(١) أي يُؤجر.

الكُتُبِيِّينَ، ويَبِيتُ فيها للمطالعة، وكان باقِعَةً[1] في قُوة الحفظ"[2].

إن القراءة كالمال وكالصداقة؛ وسيلة لإشباع احتياج ما، وبالطبع هو احتياج معنوي بالأساس، قد يبدو ذلك قليلًا بالنظر إلى المال، وما يمكن أن يُشْبِعه من الحاجات المادية والمعنوية، لكن بالنظر إلى أن الحاجات المعنوية التي تُشْبِعها القراءة غير محدودة؛ فربما كان ذلك كثيرًا جدًّا بالنظر إلى المال! وقد يبدو إشباع القراءة قاصرًا بالنظر إلى الصداقة، وما يُمكن أن تُكفله من تواصل اجتماعي، لكن بالنظر إلى أن القراءة لا يمكن أن تثير عليك شرًّا، أو تفشي لك سرًّا، أو تنم عليك، أو تسعى إليك بنميمة؛ فربما كان إشباعها الاجتماعي آمنًا جدًّا بالنظر إلى الصداقة، ولذلك قالوا قديمًا: "الكتاب جليس لا مئونة عليك فيه".

قال الجاحظ: "الكتاب نعم الذخر والأنيس والقرين والدخيل والوزير والنزيل.. وعاء مليءٌ علمًا، إن شئت كان أبين من سحبان وائل[3]، وإن شئت كان أعيا من باقل[4]، إن شئت ضحكت من نوادره،

(١) أي داهية، سُمي باقعة لحلوله بقاع الأرض، وكثرة تنقيبه في البلاد، ومعرفته بها، فشبه الرجل البصير بالأمور، الكثير البحث عنها، المجرب لها به، والهاء دخلت في نعت الرجل للمُبالغة في صفته، كما قالوا: رجل علامة ونسابة.

(٢) محمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ج ١١ ص ٥٢٧.

(٣) **وائل بن معد بن مالك بن مضر المعروف بسحبان وائل** (ت ٥٤هـ) صحابي مخضرم، كان خطيبًا بليغًا في الجاهلية حتى ضُرب به المثل في الفصاحة من شدة بلاغته، فيقال: "أفصح من سحبان وائل".

(٤) **باقل** رجل ضُرب به المثل في البلادة، قيل أن أمه كانت تُعَلِّمُه اسمه طوال النهار، فإذا حلّ المساء نسِيَه، حتى لجأت إلى تعليق قلادة تحمل اسمه في رقبته، واشترى يومًا ظبيًا حيًّا بأحد عشر درهمًا، فسُئل وهو في الطريق بكم اشتريته؟ فأشار بأصابعه العشرة،

وعجبت من غرائب فوائده، وإن شئت شجتْك مواعظه، ومن لك بواعظ مثله، وبشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والحسن وضده.. لا أعلم جارًا أبر، ولا خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية، ولا أقل خيانة، ولا أقل صلفًا وتكلفًا؛ من كتاب، فمتى رأيتَ بستانًا يُحْمَلُ في رَدَنٍ[1]، وروضة في كف، وحَجَرًا ينطقُ عن الموتى، ويُتَرْجِمْ كلام الأحياء؟! ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، أبر من أرض، وأكتم للسر من صاحب السر، وأضبط لحفظ الوديعة من أرباب الوديعة، صامت ما أسكته، وبليغ إذا استنطقته؟! ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه؟! إن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك مكان بعضك، هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك، والصاحب الذي لا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يختال لك بالكذب، إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوَّد بيانك، وفخم ألفاظك، وعمر صدرك"[2].

ومد لسانه ليشير إلى العدد أحد عشر، فشرد الظبي منه لما أفلته، فعيروه بذلك، وضُرب به المثل بالحمق والغباء.

(١) نوع من أكمام القمصان والثياب.

(٢) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، إحياء السنة النبوية (بيروت)، ص ١٢١: ١٢٢.

حول خُرافة القراءة السريعة

لا يبدأ العلم إلا بنقد الخُرافات؛ هذه الخُرافات التي تُزينها آمالنا وتطلعاتنا، فالإنسان بطبعه يميل إلى الكسل والدعة والراحة، ويتطلع لبلوغ الأماني بأقل جُهد ممكن، وقد انعكس هذا ليس على حياته المادية فحسب؛ بل وأيضًا الفكرية، ويظهر هذا الطبع كأظهر ما يكون في هذا الجانب الأخير، فالرغبة الشديدة في جمع أكبر قدر ممكن من الأفكار، واكتساب أوسع مساحة ممكنة من الثقافة، بأقل جُهد وفي أقل وقت، جعلته يبتكر أساليب مُبْتَذَلة لاكتساب المعرفة، لكنها معرفة مُزيفة تكشفها الأيام.

ولعل من أهم هذه الأدوات الخادعة لاكتساب المعرفة (القراءة السريعة)، فكثُر الترويج لها، ولأهميتها الثقافية، بل أصبح الحصول على الثقافة الجيدة رهن عدد الكلمات التي يستطيع القارئ أن يُنجزها في الدقيقة الواحدة، ولا نتكلم عن مائتي أو مائتي وخمسين أو حتى ثلاثمائة كلمة في الدقيقة، بل عن مُعدل يتراوح ما بين خمسمائة إلى ثمانمائة كلمة في الدقيقة، وأكثر، بما يتجاوز الحد الأقصى لسرعة استيعاب مُقلة العين الآدمية من الكلمات في الدقيقة الواحدة، والتي يُقدر العلماء حد استيعابها الأقصى بثلاثمائة كلمة فقط[١].

(١) سكوت ليلينفيلد وآخرون: أشهر ٥٠ خرافة في علم النفس: هدم الأفكار الخاطئة الشائعة حول سلوك الإنسان، ترجمة: محمد رمضان داود وإيمان أحمد عزب، دار كلمات (القاهرة)، الطبعة الأولى ٢٠١٣م، ص ٣٥.

يقول د. كيث راينر Keith Rayner (١٩٤٣: ٢٠١٥م) الأستاذ في جامعة ماساشوستس، وأحد أشهر خبراء طب أعصاب العيون؛ بأن قلة قليلة جدًا من القُراء - لا يتجاوزون ما نسبته ٥٪ - مَن يُمكنهم قراءة أربعمائة كلمة في الدقيقة، وأي مكسب يحصلون عليه من جراء مثل هذه القراءة هو في الحقيقة يُمثل خسارة مؤكدة في الفهم، أما قراءة أكثر من هذا فهو مُستحيل طبيًا، لأنه يفوق القدرات الميكانيكية لتحريك العينين، ومعالجة المعلومات بصريًا[1].

بل لا يُمكن على المستويات التشريحية والعصبية معالجة المعلومات في سطور متعددة - على نفس نسق المسح الضوئي التصويري Scanning - في كل حركة عين، بسبب الحقيقة العلمية التي تُثبت أن عيوننا عدسات هزيلة مُقيدة فعليًا في كمية المعلومات التي تتدفق في كل حركة عين، من خلال تجويف Fovea Centralis المسئول عن حدة النظر، والذي يقوم بنشاط القراءة، وغيره من الأنشطة[2].

أما د. باربرا أوكلي Barbara Oakley (١٩٥٥: -)؛ إحدى أشهر أساتذة الهندسة العصبية والخبيرة في سيكولوجية التعلم وأنماط التعليم؛ فتُشبه البناء المعلوماتي في المُخ ببناء الجدار الأسمنتي الذي يحتاج لوقت كافٍ (فواصل زمنية) ليستقر ويتماسك ويثبت، بينما الاستمرار في البناء - والذي تُطلق عليه باربرا "حشر

---

(1) https://cutt.ly/oElNC7w.
https://cutt.ly/DElN1ii.

(2) https://cutt.ly/2ElN9UB.
https://cutt.ly/kElN5Y3.

المعلومات"؛ فلا ينتج عنه إلا أكوام من الفوضى التامة[1].

فالقراءة الصحيحة هي التي تُبنى على التأني والتدقيق في الكلمات والسطور؛ لذلك كان أثرها اللازم هو الفهم كليًا أو جزئيًا، وغير ذلك إنما هو محض دجلٍ أو وهم، يُكذبهما العلم الصحيح والمنطق السليم، فالحقيقة التي لا يُمكن أن يُجادل فيها قارئ حقيقي، أو خبير تعليم؛ أن المُضاعفة غير المشروطة من مُعدل القراءة تتم على حساب الفهم، إذ الأصل أن العلاقة بينهما عكسية.

أما ما ورد في تاريخ القراءة من أن كثيرًا من السلف قرأوا آلاف المُجلدات والكُتب، فإنما هو بفضل عامل الوقت الذي بورك لهم فيه؛ بسبب انقطاعهم التام للمُدارسة والمُطالعة، ثم نعمة شَظَف العيش، وخلو زمانهم من مُلهيات الأزمان اللاحقة، فأقبلوا على القراءة والكتابة إقبالًا مُنقطع النظير، واكتسبوا من المعارف ما يصعب تصوره في حساباتنا المادية، ولم تكن القراءة السريعة يومًا سببًا من أسباب اكتسابهم تلك المعارف، آية ذلك عظيم ما خلفوه من الآثار العلمية التي لم تتكرر لا في الشرق ولا في الغرب، بل كل ما وصلت إليه الحضارة الغربية - كما اعترفت المُستشرقة الألمانية سيجريد هونكة - يرجع فضله إليهم، ولولاهم ما وصل الغرب إلى ما وصلوا إليه من أسباب التقدم والتحضر، فكيف يُمكن أن تكون القراءة عديمة الفهم ضعيفة النفع السريعة سببًا من أسباب ما بلغوه من القوة في الإنتاج العلمي؟!

فمقصود المُطالعة: الفهم والاستيعاب، وليس الإنجاز أو

(1) https://cutt.ly/iElMeVk.

السرعة، فالعبرة بالجودة لا بالكم، ولذا كان الكُتّاب أعظم القراء، لا لأنهم قرأوا كثيرًا، بل لأنهم قرأوا ما قرأوه جيدًا، من أجل ذلك كان المُستحب في القراءة إعادتها وتكرارها، لذلك أُثر عن **عباس العقاد** (١٨٨٩ : ١٩٦٤م) قوله: "قراءة كتاب ثلاث مرات خيرٌ من قراءة ثلاثة كُتب"، ذلك أن أهمية القراءة تنبع مما تتركه من أثر في فِكر القارئ، وفي تفاعله مع الواقع، وهذا يكون أفضل ما يكون في حال الإعادة والتأمل، إن النص الواحد يُقرأ قراءات متعددة، وإن نَفْس القارئ ليقرأ نفْس النص قراءات مختلفة في أوقات متباينة وربما في الوقت ذاته!

وسُئل **البخاري** (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م): الحفظ بأي شيء يكون؟ فأجاب: "بإدامة النظر"؛ أي بتكرار القراءة، وذَكر السُّبكي عن **الربيع المُرادي** (٢٧٠هـ / ٨٨٤م) تلميذ الشافعي قوله: "أنا أنظرُ في كتاب (الرسالة) مُنذ خمسين سنة، ما أعلمُ أني نظرتُ فيه مرة إلا وأنا أستفيد شيئًا لم أكن عرفته"[١]، ونُوزِعَ **النووي** (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) مرةً في نقل عن (الوسيط) للغزالي، فقال: "يُنازِعوني في (الوسيط) وقد طالعته أربعمائة مرة؟!"[٢].

ويحكي **عبد الله بن محمد** فقيه العراق أنه قرأ (المُغني) ثلاثةً وعشرين مرة، وقال **ابن فرحون المالكي** (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م):

(١) عبد الوهاب بن علي السُّبكي: طبقات الشافعية الكُبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، ج ٢ ص ٩٩.

(٢) محمد بن عبد الرحمن السخاوي: المنهل العذب الرّوي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ٤٣.

"لازمت تفسير ابن عطية حتى كدتُ أحفظه"، ونقل القاضي عياض عن **ابن التبّان المالكي** (ت ٣٧١هـ / ٩٨١م) أنه قرأ (المدونة) أكثر من ألف مرة، وحكى عن نفسه ما لاقاه من الصعاب في بداية طلبه للعلم فقال: "كنت في أول ابتدائي أدرسُ بالليل، فكانت أمي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنتُ آخذ المصباح وأجعله تحت الجفنة وأتعمد النوم، فإذا رقدتْ أخرجتُ المصباح وأقبلتُ على الدرس"، و**محمد بن سليمان الكافيجي** (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) شيخ السيوطي لُقِب بذلك بسبب كثرة اشتغاله بكتاب (الكافية) لابن الحاجب قراءةً وإقراءً، وغير ذلك من القصص العجيبة، حتى إننا إذا أردنا - أو لو كان بوسعنا - أن نكتب تاريخًا للقراءة؛ فإن هذه الوقائع تعد أحداثًا كبرى في تاريخ القراءة وعلامات فارقة في النهضة الثقافية للبشرية.

وفي دراسة نُشرت في مجلة Consumer Research عام ٢٠١٢م؛ تبين أن إعادة قراءة الكتاب توفر للقارئ فوائد صحية وعقلية لا توفرها له القراءة الأولى؛ لأن الثانية تسمح لعقله ووجدانه بالاتصال بشكل أعمق بالمادة المقروءة أكثر من القراءة الأولى، التي تجذب الانتباه بصورة أكبر للأحداث والحبكة[1].

ويذكُر العلماء أن ذاكرة الإنسان الحقيقية ليست هي الذاكرة النشطة Short Term Memory، بل الذاكرة طويلة الأمد Long Term Memory؛ التي هي أشبه ما تكون بمستودع تخزين شاسع المساحة، وهذه الذاكرة لا تنتقل إليها المعلومات من الذاكرة النشطة إلا بالتأمل

(1) Rob Waugh; Reading a book really is better the second-time round - and can even offer mental health benefits, Daily Mail, 15 Feb 2012. https://cutt.ly/hElMiDl.

والتكرار المُتباعد، وكلاهما يحتاج إلى وقت، أما الذاكرة النشطة فلا تحتفظ إلا بقدر ضئيل من المعلومات؛ لأنها محدودة النطاق[1].

وليس الأمر مبناه فقط على التعمق في الأفكار بتكرار القراءة، أو الربط بين الأحداث بإعادة القراءة، أو الفهم أو تثبيت المعلومات أو استذكارها، بل الأهم من ذلك أن الأفكار والأحداث تُعيد تسكين نفسها في وجدان القارئ وخريطته الإدراكية، فكأنه يقرأ كتابًا آخر وسطورًا وفقرات أخرى.

عن ذلك يُعبر الروائي الألماني **هرمان هيسه** Hermann Hesse (١٨٧٧: ١٩٦٢م) فيقول حاكيًا قصته مع مكتبة جده: "وكان يوجد في مكتبة جدي الكبيرة كتاب بالغ الضخامة والثقل، غالبًا ما كنت أتصفحه وأقرأ فيه في أماكن متفرقة، في الكتاب توجد قصة جميلة للغاية عصية على الفهم، حتى أني قرأتها مرات ومرات، ولم يكن العثور عليها ممكنًا دائمًا؛ كثيرًا ما كانت تختفي تمامًا وتبقى متوارية، وكثيرًا ما كانت تبدو لو أنها غيرت مكانها وعنوانها، عندما تقرؤها في بعض الأوقات تكون قريبة للنفس، وفي وقت آخر غاضبة وممتنعة"[٢].

في النهاية؛ لنواجه هذه الحقيقة؛ لا شك أن القراءة ليست بالشيء السهل، كثيرون يدعون أنها كذلك، لكنهم لا يصبرون على قراءة كتاب واحد! كثيرون يزعمون حُب المعرفة؛ لكنهم لا يقدرون على إعادة قراءة كتاب قرأوه من قبل ولم يفهموه جيدًا! كثيرون لا

---

(1) https://bit.ly/3bbHAYP.

(٢) أحمد الزناتي: خزانة الكتب الجميلة: كيف نقرأ؟ ولماذا؟، دار كلمات (الكويت)، الطبعة الثالثة ٢٠١٨م، ص ٨: ٩.

يملون من ادعاء أن القراءة مصنع الأفكار، لكنهم لا يُخصصون لها من وقتهم إلا أقل القليل!

ولا أقصد بهذا التنفيرَ من القراءة أو تعقيدها، لكن إدراك الحقائق هو البداية الصحيحة للتغيير، إذا كُنا نرغب في الخروج من أزماتنا الفكرية والتيه الثقافي الذي نُعاني منه، فلا بُد من التخلي عن التضليل المعرفي والغطرسة الثقافية التي لم تُقدم ولم تُؤخر، فالإصلاح لن يتم إلا باستصلاح الهمم، وبذل الجُهد والوقت المُناسبين لآمالنا في إحداث التغيير.

القارئ والمعنى والنص: كيف نقرأ؟

هل يكوّن القارئ المعنى؟

كثير من فلاسفة التأويل يُجيبون عن هذا السؤال بالإيجاب، حتى زعم الناقد الأدبي **جاك دريدا** Jacques Derrida (١٩٣٠: ٢٠٠٤م) أن القارئ يكتب النص! وبعضهم يقول: القارئ يُعيد إنتاج المعنى الماثل في النص! فإن النص مهما استطاع أن يوصل من معاني إلا أنه يخضع حين يُقرأ إلى عمليات ملائمة عميقة، وهذه العمليات تكون أكثر فاعلية عندما يكون النص ذاته معمقًا، فمهما كان النص جيدًا فلا يمكن أن يكبح فعالية القارئ الجيد، فثمة عالم يُثيره الكاتب وثمة عالم يبنيه القارئ.

إن تكوين القراء للمعنى يتفرع عن محددين أساسيين:

الأول: قصد أو إرادة المؤلف؛ الذي يغيب ويحضر، يظهر ويختفي، إما عمدًا وإما بغير قصد، فالمؤلف في كثير من الأحيان يعتمد على ذكاء القارئ وقدرته على استنباط المعنى، وربما عمد بالتأثيرات اللغوية والإبداعية **إلى** تنشيط ملكات القارئ.

الثاني: طبيعة العلاقة بين النص وتحقيق القارئ له، وما يُعرف بمكانة الذات القارئة من النص المقروء.

إن القراءة الجيدة هي استنزاف النص المقروء لصالح المعنى، وهي لا تعتمد على قراءة النص أكثر من مرة فقط، بل تعتمد بشكل أكبر على التفاعل مع النص، من خلال كتابة المُلاحظات، وتدوين

الأفكار، واستحضار الأمثلة والأسئلة المنطقية، والسُؤال عن السبب والنتيجة، وربط النص بالواقع أو التجربة الشخصية، فالقارئ الجيد يوظف عددًا من الاستراتيجيات، ويتخذ قرارات مدروسة خلال عملية القراءة ربما وهو لا يشعر، لأن العمليات الدماغية عندما تنشط في الوقت نفسه، أو واحدة بعد أخرى؛ فإن واحدة منها فقط عند التكرار تميل لنقل استثارتها إلى الأخرى.

إن القُراء المُتمرسين يتمتعون بالقدرة على توليد أسئلة داخلية تُمكنهم من القراءة بفهم، كما يستطيعون مراقبة عملية فهمهم للنصوص، والتقييم والتحليل النقدي للمعلومات، وأظهرت الدراسة أنهم حين يقومون بهذا كله يقومون به دون جُهد يُذكر، ويرجع ذلك إلى أنهم يقومون باستيعاب العمليات المُعقدة، والتعامل معها وكأنها جزء منهم، ومن ثَمَّ لا يضطرون إلى التفكير في المهارات والاستراتيجيات التي يستعملونها، ولا في الكيفية التي يستخدمونها بها، وكأن عقولهم قد باتت مُبرمجة على القراءة الفعالة[1].

وهذا يجعلنا نسأل: هل القراءة على الحقيقة: فعل أم سلوك؟! نظر أم طريقة تفكير؟!

فالقراءة العقلية هي أعظم أنواع القراءة فائدةً، لا القراءة العينية التي تستهلك النص بشكل طيع، لأن القراءة العقلية تعتمد على التمحيص والنظر وإعمال الفِكر، وبذل أكبر قدر ممكن من الطاقة العقلية في هضم المعلومات واستخلاص المعاني، والأهم من ذلك كله والأصعب؛ ملء الفراغات التي يتركها الكاتب.

---

(1) R.I. Nicolson, A.J. Fawcett; Automaticity: A new framework for dyslexia research, 1990, Cognition, 35, PP. 15982.

ولذلك فليست العبرة بكثرة القراءة، كما ليست بكثرة الكتابة، بل بما ينتج عنهما، وما يُخلفانه في الفكر الإنساني، فهذا الإنسان الواسع الاطلاع ونادر المثال الذي قرأ الكثير؛ كيف يكون له متسع من الوقت للكتابة؟! وهذا العلامة الذي كتب الكثير وسود آلاف الصفحات؛ كيف بقي له متسع من الوقت للقراءة؟!

يقول علي عزت بيجوفيتش: "القراءة المُبالغ فيها لا تجعلنا أذكياء، فبعض الناس يبتلعون الكتب ابتلاعًا، وهم يفعلون ذلك دون فاصل يتوقفون فيه للتفكير فيما قرأوا، فالتفكير ضروري لكي يُهضم المقروء، ويُفهمُ ويُستوعب، ويكتسب فاعلية، القارئ الجيد هو الذي يبذل جهدًا فكريًّا كأنه يُسهم إسهامًا شخصيًّا في تأليف النص المقروء، وهذه العملية ضرورية مثلما هو ضروري للنحلة؛ العمل الداخلي والزمن؛ لكي تحوّل رحيق الأزهار التي جمعتها في بطنها إلى عسل، فلا يجب أن نتحول إلى مجرد آلات إعادة قراءة أو ترديد ما نسمع، بل لا بُد من إعمال العقل في كل ما يُرى ويُسمع، وأيضًا أن نُضيف له من إسهاماتنا الشخصية، بهذا فقط تنمو المعرفة، وتتبلور الشخصية الإنسانية المُتميزة".

فهذا الذي ذكره بيجوفيتش هو ما يُعبر عنه بـ **"نظام القراءة"** الذي يتضمن موقف القارئ من الشخصيات والوقائع والأفكار والسياقات الزمانية والمكانية؛ التي تشكل في مجموعها نسقًا من القيم والأفكار والتخيلات.

ويُمكن أن نضع مؤشرًا للقراءة المثمرة عبر تأثيراتها المختلفة؛ فأعلى تأثيراتها حقًّا هي تلك التي تؤدي في القارئ وظيفة العلم؛ فإما أن تُعيد صياغة تفاعلاته وعلاقاته مع العالم، فيفهم من خلالها،

وتتشكل لديه مساحات الاحتواء والتبعية والاشتباك مع الآخرين، وإما أن يتحول إلى عنصرٍ فاعلٍ في تغيير العالم، فيصير فاعلًا لا مفعولًا به، وهذا هو جوهر وظيفة العلم؛ معرفة الأشياء وفعل الأشياء، أو المعرفة وتفعيل المعرفة.

وأقل تأثيرات القراءة المثمرة أن تؤدي في القارئ وظيفة الإيمان[١]؛ فإما أن تسلي المصاب والمُتْعَب، أو تروح عن النفس، أو تُمْتِع الذهن، أو تُغذي الروح، وهذا هو جوهر وظيفة الإيمان بالأشياء؛ تجييش العواطف وتوجيه المشاعر، وهي أقل تأثيرات القراءة المثمرة؛ حيث لا يمكن أن يُتجه بها إلى العلم والمعرفة.

وكل قراءة لا تُؤدي لشيء مما تقدم فهي والعدم سواء!

فالذي لا يقرأ جيدًا، وأولى منه الذي لا يقرأ مطلقًا؛ يظل أسيرًا للأسئلة والحيرة والشك والأوهام، أما القارئ؛ فعلى قدر ما يعطي القراءة تعطيه من الإجابات والثبات والثقة والحقائق، فلا يتوقف ولا يستكين حتى يذهب بعيدًا إلى المناطق المهمشة والمساحات المهملة.

ولتقريب هذه المؤشرات وقياسها؛ يمكننا أن نتأمل أحوال السابقين الذين لم يكن لديهم تلك الوفرة التي بين أيدينا من الكتب؛ بطباعتها الفاخرة، وجودة صفحاتها وخطوطها، وأحجامها المحدودة مهما تضخمت صفحاتها.. إلخ، ولم يحظوا بذلك الاستمتاع الذي نحظى به من سهولة اقتنائها وتداولها، ومع ذلك لا يوجد وجه للمقارنة بين ما أنجزوه على مستوى ثمرة القراءة، لا على مستوى

(١) المقصود هنا المعنى اللغوي: التصديق، لا المعنى الديني الشرعي بالطبع.

الإنجاز الحضاري لمجتمعاتهم، ولا على المستوى الشخصي لأنفسهم في العلم والمعرفة من جهةٍ، وفي الرّقي الديني والأخلاقي وصفاء النفس من جهة أخرى.

فالفرق بين القراءة السطحية والقراءة بتعمق؛ أن القراءة السطحية تهدف في الغالب إلى حفظ واستظهار المعلومات اللازمة لتكليف مُحدد أو نشاط مفروض كاختبار أو جدل، أما القراءة المتعمقة فتهدف إلى فَهم ما يرمي إليه الكاتب في المقام الأول، وتتحرى منطقية الحُجة التي يوردها، وتربط الأدلة بالنتائج.

تُركز القراءة السطحية على بعض التفاصيل ولا تتضمن أي قدر من تكوين صورة كلية من المادة المقروءة، أما القراءة المتعمقة فتسعى إلى تكوين صورة كلية من المادة المقروءة، وتربط الأفكار الجديدة بالمعارف القديمة، والمفاهيم الحديثة بخبرات الحياة اليومية المتراكمة.

وبذلك، فلا تُؤثر القراءة السطحية في عقل القارئ ووعيه واستيعابه للآخرين، أما القراءة المتعمقة فتوسع مدارك القارئ وتزيد وعيه وتحد من عصبيته وتجعله أكثر تفهمًا لنقاط الخلاف.

ولا تقف القراءة السطحية كثيرًا عند المُعضلات أو الإشكاليات العلمية أو المواطن المزعجة، أما القراءة المتعمقة فتتفاعل بقوة مع السياق من خلال التوقف والتأمل واستحضار الأمثلة وطرح الأسئلة.

مُدمن روايات

لا يُمكن الحديث عن القراءة والكتابة في عصرنا الحاضر دون التعرض لقراءة الروايات التي أضحت القراءة الحُرة الأولى بلا مُنازع، والتي أدت إلى رواج سوق الروايات بشكل كبير؛ حتى بات يُمثل ما يجاوز نصف الناتج الإجمالي من الكتب التي تصدر سنويًا.

وهذا النوع من القراءة قد يكون من أنفع الوسائل لإزالة حالة القلق والتوتر والكآبة، كما أنه مُفيد للأعمار الصغيرة لإدخالها عالم القراءة الحُرة، وقد يكون وسيلة جيدة لتعلم اللغات الأجنبية، ولتعلم بعض أساليب الكتابة، لكن في الحقيقة كُل هذا لا ينال من أن أضرارها كبيرة إذا ما جاوزت الحد المطلوب، إذ لا يجب أن تستهلك أكثر من ١٠ أو ١٥٪ من وقت القراءة، فهي في الغالب لا تُثمر في فكر القارئ، ولا تُضيف للأُمة بقدر غيرها من الكتابات العلمية والفكرية والأدبية، بل إن حُمى الروايات المنتشرة اليوم قرينة على حالة الضعف الشديد التي وصلت إليها الأُمة.

فالإفراط في قراءة الروايات وكتابتها يُؤدي إلى:

أولًا: تضييع الوقت مقابل فوائد ثقافية وفكرية فعلية أقل قيمة بكثير من الوقت المُهدر.

ثانيًا: ربط القارئ تدريجيًا بنوع محدد من القراءة، ووضع حواجز نفسية وفكرية بينه وبين الكتب العلمية والفكرية التأسيسية، التي تحتاج لجُهد وممارسة ودربة في قراءتها، ومع الوقت يصعُب

استيعاب المصطلحات والتعبيرات الفكرية، وطريقة عرض الكتب العلمية، وهذا أمر مُشاهد ملموس، وقد سألتُ إحدى الفتيات التي كانت مولعة بقراءة الروايات - حتى أنها كانت تقرأ نحو خمس عشرة رواية شهريًا - عن مدى قُدرتها على قراءة الكُتب الفكرية أو العلمية، فأجابت بأنها لا تُحب ولا تُفضل، ولا تستطيع أصلًا قراءة أي كتب من هذا النوع، وأنها لم تقرأ سوى الروايات، وحين حاولت قراءة مذكرة فكرية لم تتجاوز مُقدمتها.

ثالثًا: تجييش العواطف، والتأثير على واقع القارئ، وإثارة خياله فيما لا حقيقة له، بل ما لا يُمكن أن يكون حقيقة على الإطلاق في كثير من الأحيان، بما يترتب على ذلك من أزمات نفسية، وانعزال عن المجتمع وقضايا الأُمة.

رابعًا: تضييع الموارد الفكرية والثقافية المُتعلقة بالتأليف والطباعة والنشر فيما لا يُسهم فعليًا في نهضة الأُمة علميًا أو ثقافيًا أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا بصورة مباشرة.

خامسًا: ابتذال موهبة الكتابة، لتجرُّؤ غير المُؤهلين - في الغالب - على كتابة الروايات بأسلوب الحكايات والقصص، وعدم مراعاة اللغة العربية والترويج للعامية، بل وبعض الألفاظ العامية الساقطة للأسف الشديد، ومن ثمَّ إهمال الاهتمام بتنمية مهارات الكتابة الفعلية واكتساب المعارف الفكرية وبذل الجهد في الكتابات العلمية والفكرية التأسيسية، وعدم التشجيع عليها؛ لصالح الكتابات الأسهل جُهدًا وأكثر رواجًا (الروايات)، وهو أمر مشاهد ملموس في أسواق الكتب.

ولا مجال مع ما تقدم الاحتجاج بكثرة القَصص في القرآن الكريم، لأن كثرتها لم تكن إلا لعبرة ومعنى ديني شرعي، لا يتحقق

في العمل الروائي، ولذلك لم يختلف أهل العلم في جواز تذكير الناس ووعظهم بما كان من أنباء السابقين، وليس العمل الروائي على ذات الأهمية والنسق، ولو كان الأمر كذلك لما كره أهل العلم القَصص المُختَرع، بل روى خَبّاب بن الأَرَتّ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا هَلَكُوا قَصُّوا»[1]، أي أخلدوا إلى القصص وتركوا العمل، فكان ذلك علامة هلاكهم.

ولم تُذكر مهنة القُصّاص في كُتب التاريخ والتراجم والجرح والتعديل إلا في مواضع الذم والانتقاص، عن ذلك يقول **مصطفى صادق الرافعي** (١٨٨٠: ١٩٣٧م): "ولم يكن القَصصُ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لاجتماع كلمة المسلمين، ولقُرب العهد من الرسالة، وإنما أُحدثت القَصص في زمن معاوية، حين كانت الفتنة بين الصحابة رضي الله عنهم، وكانت مقصورةً على الموعظة الحسنة والتذكير، وما إلى ذلك، ولم يكن القَصص في القرن الأول مرذولًا، ولم يكن يشوبه شيء إلا ما كانوا يسمونه بالعلم الأول، وهو ما يتعلق بأخبار الأُمم السالفة، ولمّا كان القرن الثاني وقد اضطربت الفتن، وكثُر الكلام، وفشت الأكاذيب في الحديث، وفي أخبار العرب، وفي الشعر، وصار همُّ القاصِّ أن يجيء بالغرائب، ويُكثر من الرقائق؛ لأن أهل العلم انصرفوا إلى حلقات الرواية[2]، ولم يبق في حلقات القصّاص

(١) حسن: أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٤/ ٨٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣٦١)، وعبد الحق الإشبيلي في الأحكام الكبرى (١/ ٣١٤) جميعهم من حديث خبّاب بن الأرت رضي الله عنه.

(٢) أي رواية الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

إلا العامة وأشباههم، فمن ثمَّ ساءت المقالة فيهم، وصار القاصّ عند أهل العلم أحمقَ مُمَخْرِقًا لا يعرفونه بغير ذلك، ولمّا نضجت العلوم في القرن الثالث ذهب القصَّاص، وخلَفَهم الوُعّاظ من المتصوفة والزُّهاد، إذ كان اسم القاصّ قد أصبح لقبًا عاميًّا مُبتذلًا"[١].

وقال د. **جواد علي** (١٩٠٧ : ١٩٨٧م): "والقصص مظهر من مظاهر الفكر الجاهلي، وكان شائعًا عند الجاهليين، وبعضه ملامح يمكن إرجاعها إلى عناصر أعجمية، دينية، وغير دينية، تسرب إلى الجاهليين من اتصالهم بالأعاجم، واتصال الأعاجم بهم"[٢].

ولم يُعلم في تاريخ الأُمة في أي مرحلة من مراحل التاريخ أنهم كتبوا مثل هذه النوعية من الكتب، أو فضلوها، أو حثوا عليها، أما في العصر الحاضر فقد يكون لها أهمية خاصة من الناحية الأدبية أو التعليمية، لكن إذا لم تجاوز القدر المطلوب، ولم تتعد الضوابط الحاكمة.

ولأن العمر لا يتسع لقراءة كل شيء، ومن باب أولى صرفه في القراءات غير المثمرة، ولترشيد الإفراط في قراءة الروايات وإدمانها بشكل عملي واقعي يمكن الآتي:

أولًا: تقليل الوقت المُخصص لقراءة الروايات تدريجيًّا حتى لا يتجاوز أكثر من ١٠ أو ١٥٪ من الوقت المُخصص للقراءة الحُرة، ولو زاد على ذلك لتحول إلى ما يُشبه إدمان المُخدرات لكن من

---

(١) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي (بيروت)، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ج ١ ص ٣٧٩: ٣٨٣.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي (بيروت)، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج ١٦ ص ٥.

ناحية فكرية، نعم قد يبدو هذا القول صادمًا أو مُفاجئًا بالنسبة للبعض فلا يستسيغه، لكنه حقيقي وواقعي تمامًا، تؤيده تجارب الشباب.

ثانيًا: تخيُّر الروايات القديمة أو التأسيسية فكريًّا أو أدبيًّا، منها: نجيب محفوظ (الشحاذ) و(الحرافيش) و(كفاح طيبة)، (حضرة المحترم)، فريد الأنصاري (آخر الفرسان) و(عودة الفرسان)، نجيب الكيلاني (الظل الأسود)، والمنفلوطي (الفضيلة) و(العبرات)، فيكتور هوجو (البؤساء)، تشينو أتشيبي (الأشياء تتداعى)، دوستويفيسكي (الجريمة والعقاب)، ليو تولستوي (الحرب والسلم)، هيرمان ملفيل (موبي ديك)، مارك توين (مغامرات هكلبيري فين)، جورج أورويل (١٩٨٤)، وغير ذلك من الأعمال الأدبية.

ثالثًا: إحلال بعض القراءات قريبة الشبه منها في الأسلوب الأدبي أو التعبيري **الأعمق منها فكريًّا وثقافيًّا**؛ كالكتب الأدبية التي بها خواطر وتجارب ونظرات في الحياة، مثل: كتاب (الاعتبار) للفارس الرحالة **أسامة بن مُنقذ** (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) ولا نبالغ إذا اعتبرناه من أقدم كتب المذكرات واليوميات، سَجَّل فيه مؤلفه ذكرياته وتجاربه ومشاهداته في الحرب، ووصف فيه صورًا نادرة في البطولة والشجاعة، لأعدائه قبل أصحابه، وتحدث عن طبائع المحاربين والأجانب وأخلاقهم وعاداتهم، وذكر جملة من الوقائع الجماعية والشخصية التي مرت به أو عاناها بنفسه أو وقعت لأصدقائه وأعدائه؛ بروح الجد تارةً والدعابة تارةً أخرى، وكتاب (صيد الخاطر) **لأبي الفرج الجوزي** (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٣م) الذي التقط فيه كثيرًا من الإشارات حول موضوعات مختلفة، وضمَّنه نظرات في النفس والناس والأشياء، كأنه يقرأ ما حوله من خلال

علاقاته الاجتماعية ونشاطاته العلمية، كتبه بأسلوب بليغ يجمع بين سمة كتب المذكرات الأدبية، وسمة كتب المنثورات والفوائد الفكرية، ويبدو من لغة الكتاب أنه كُتب على فترات طويلة، ولم يُتمه مؤلفه إلا في سن متأخرة، بل لعله لم يُتم أكثره إلا في سن متأخرة، وربما يحتاج القارئ إلى قراءته مرةً بعد أخرى، بلا مللٍ من تكرار النظر فيه.

ومنها هذه الكتب أيضًا كتاب (من وحي القلم) **لمصطفى الرافعي** (١٨٨٠: ١٩٣٧م)، و(النظرات) **للمنفلوطي** (١٨٧٦: ١٩٢٤م)، و (كناسة الدكان) **ليحيى حقي** (١٩٠٥: ١٩٩٢م)، وغيرها.

ومن جنسها كتب الشعر والنثر، فأقل ما يتحقق من هذه النوعيات من الكتب إنماء المهارات اللغوية، واكتساب الأساليب البلاغية، وجمال التعبير عرَضًا بغير تقصُّدٍ، وزيادة السليقة على حساب التكلف، والقريحة على حساب التصنع، وكان الشاعر **عبد الرحمن صدقي** (١٨٩٦: ١٩٧٣م) يعلل جمال أسلوب الأديب **إبراهيم عبد القادر المازني** (١٨٨٩: ١٩٤٩م) بقوله: "إن المازني يحفظ كثيرًا من الشعر العربي القديم، وهو بارع في الاغتراف منه في كتابته، فيلتقط المعاني الشعرية، ويفرط عقدها، ويجعلها جزءًا من أسلوبه"، وكان المازني من القلائل الذين جمعوا ثقافة التراث العربي والأدب الإنجليزي كغيره من أدباء **مدرسة الديوان**[1]، وترجم

(١) حركة تجديدية في الأدب العربي، ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين على يد عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري، الذين كانوا متأثرين بالرومانسية في الأدب الإنجليزي، ولديهم في نفس الوقت اعتزاز شديد

الكثير من الشعر والنثر إلى اللغة العربية، حتى قال العقاد عنه: "إنني لم أعرف فيما عرفت من ترجمات للنظم والنثر أديبًا واحدًا يفوق المازني في الترجمة من لغة إلى لغة، شعرًا ونثرًا"، وقيل: من الصعب أن يتخيل أحدٌ للمازني مهنةً غير الأدب.

ومن الكتب قريبة الشبه من الروايات في الأسلوب الأدبي، لكنها أعمق فكريًا وثقافيًا؛ المذكرات الذاتية التي تقف في مكان وسط بين الرواية والتاريخ والسيرة، وربما مجالها أوسع بحسب خصوصية الكاتب الثقافية والعملية، ومنها على سبيل المثال: (مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني) **لعبد الحميد الثاني** آخر سلاطين آل عثمان، و(هروبي إلى الحرية) و(مذكراتي) **لعلي عزت بيجوفيتش** الرئيس البوسني والفيلسوف الإسلامي المعروف، و(دفاع عن المدنية) للكاتب التركي **فريدون قاندمير**، و(شهادة العصر والتاريخ) **لأنور الجندي**، و(أيام من حياتي) **لزينب الغزالي**، و(عندما غابت الشمس) **لعبد الحليم خفاجي**، و(سنوات عصيبة) **لمحمد عبد السلام** النائب العام في عهد عبد الناصر، و(مذكرات سعد الدين الشاذلي) للفريق **سعد الدين الشاذلي**، و(رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر) **لعبد الوهاب المسيري**، وغيرها مئات الكتب.

واليوم لم تعد كتب المذكرات صنفًا واحدًا، بل منها أنواع وألوان، فمنها: حكايات الحروب، وأدب السجون، ومذكرات الساسة، وغير ذلك، وتجري مجراها كتب التجارب التي كتبت في القرون القديمة إبان ازدهار حضارة العرب والمسلمين؛ مثل

بالتراث العربي والثقافة العربية، سُميت بهذا الاسم تيمنًا بكتاب (الديوان في الأدب والنقد)، الذي ألفه العقاد والمازني ووضعا فيه مبادئ مدرستهم.

(رحلة أبي بكر بن العربي)، و(التحدث بنعمة الله) **للسيوطي** (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، و(الفنون) **لابن عقيل** (ت ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م)، و(الأخلاق والسير) **لابن حزم** (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، وهما قريبا النسق، و(طوق الحمامة) **لابن حزم أيضًا**، و(مصادق الجراد) **للسان الدين بن الخطيب** (ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م).

وفي النهاية ليست العبرة بكثرة القراءة، بل العبرة بالقراءة الجيدة، والتنوع في القراءة بين قراءات علمية تُبصر القارئ وتُكسبه قدرات علمية متنوعة، وفكرية تُصقل فِكره وترفع قُدراته الإبداعية، وأدبية تُنمي مهاراته اللغوية والأدبية، وفلسفية تُعمق فيه الأبعاد الإنسانية.

القراءة وقود الكتابة

القراءة متنفس الكُتَّاب، والكتابة متنفس المبدعين، فعُظماء الكُتَّاب كانوا دومًا قُراءً عُظماء، قد يكونون قرأوا القليل من الكتب، لكنهم فعلوا ذلك بشكل جيد، حيث كرروا قراءتها، وأداموا النظر فيها.

الكاتب الجيد هو القارئ الجيد، حتى في الكتابة الأدبية، أو ما تُعرف بالإبداعية - لمن وُهب القدرة الشعرية أو القصصية - فأصحاب هذه المواهب يتفاضلون فيما بينهم بالثقافة الأوسع والأعمق، والقراءة أهم أبوابها، والذي يكتب دون أن يقرأ ويشعر من قراءاته بالامتلاء الفكري؛ يخدع نفسه ولا يَحترم القراء؛ لأنه سيتورط حتمًا في التفاهة والسطحية، وسيلجأ مضطرًا إلى التلفيق والكذب.

ومن هنا - وفي المقابل - يكتسب الكتاب قيمته؛ لأنها لا تتحقق ولا تُقاس إلا بالقراءة الجيدة، المرتبطة بنوعية القُراء، الذين يُعيدون إنتاج الأفكار وتطويرها بحسب الأثر الذي خَلفته في نفوسهم، يقول د. **محمد يوسف عدس** (١٩٣٤: ٢٠١٧م): "لا تُقاس قيمة كتاب بسعة انتشاره، ولا بحفاوة القُراء به فحسب، وإنما تُقاس - إلى جانب ذلك - بنوعية القُراء الذين احتفوا به، وتناولوه بالقراءة والاستيعاب، ثم تقاس بعُمق الأثر الذي خلفته هذه القراءة في عقولهم وقلوبهم".

والدراسات الغربية تُثبت أن القُراء ثلاثة أنواع، أكثرهم يقرأون للتسلية؛ وهي أدنى أنواع القراءة، والمرتبة التي تليها مرتبة القراء

الذين يبحثون عن المعرفة لأغراض شخصية؛ كتحسين مهاراتهم، أو الارتقاء بمستوى الفهم والفكر، أو لاستخدام هذه المعارف في نقاشاتهم وحواراتهم.

يلي ذلك في المرتبة "الكُتّاب" وهم أندر أنواع القُراء، حيث يُمعنون في الأفكار، ويخضعون المقروء للتحليل والبحث والدراسة؛ لإعادة طرحه على الناس بفهم مختلف أو معالجة مختلفة، وهؤلاء يُضيفون لأنفسهم ويُضيفون للأمة، وهم أفضل القُراء بلا نزاع.

وقد كان الأئمة والعلماء القدامى أعظم علمًا وأكثر إنتاجًا للكتب - مع غزارة ما فيها من علم - لِشغفهم ونهمهم الشديد في القراءة والاطلاع، مع عدم وجود المطابع، وقلة نُسخ الكتب، وصعوبة الوصول إليها والحصول عليها، بعكس ما هو عليه الحال اليوم.

نقل ابن قيم الجوزية عن شيخه **ابن تيمية** (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م) أنه لما مرض واشتد عليه المرض؛ قال له الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقال له ابن تيمية: "لا أصبر على ذلك"[١]، ويقول **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٣م) عن نفسه في كتابه (صيد الخاطر): "ما أشبعُ من مُطالعة الكُتب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أره؛ فكأني وقعت على كنز، ولو قلت إني طالعت عشرين ألف مجلدة كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب"[٢]، ويوصي بعض طُلابه فيقول: "ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور

(١) ابن قيم الجوزية: روضة المُحبين ونُزهة المُشتاقين، دار الكتب العلمية (بيروت)، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٧٠.

(٢) أبو الفرج الجوزي: صيد الخاطر، مرجع سابق، ص ٤٥٤.

كتبك، وتجري في حلبات فكرك"[١].

فلا عجب بعد ذلك أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه من العلم، وأن يبلغوا ما بلغوه في القدر والمكانة، يقول الكاتب الأمريكي **ستيفن كينج** Stephen King (١٩٤٧م: -)[٢] عن أهمية القراءة للكاتب: "إذا أردت أن تصبح كاتبًا عليك القيام بأمرين قبل كل شيء: اقرأ كثيرًا، واكتب كثيرًا".

وهذا هو جوهر فكرة "الممارسة" في الكتابة، إنها ممارسة للقراءة وممارسة للكتابة، **فثقافة الكاتب** تؤثر على كتابته؛ نحتًا وصياغةً وموضوعًا وعرضًا، فمهما أوتي الكاتب من تمكن من المادة العلمية التي يكتب فيها؛ فإن ضعف ثقافته العامة ستؤثر سلبًا في المنتج الذي يقدمه، لاسيَّما في فنون الترجمة والتحقيق والتحرير من فنون الكتابة، وكم رأينا من المترجمين المهرة لغةً أساءوا لأعمال عظيمة، وأهدروا قيمتها العلمية التي كانت عليها قبل أن يتناولوها في فنونهم، على نحو ما حدث لكتاب (الاستشراق) **لإدوارد سعيد**، الذي ترجمه د. محمد عناني وكمال بوديب[٣]، فقال عنهما أساتذة

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٦.

(٢) روائي وكاتب أمريكي تخرج من جامعة مين، وكان له فيها نشاط أدبي إلى جانب تفوقه الدراسي، ثم عُين بها مُدرسًا عام ١٩٧٠م، حتى قدم استقالته عام ١٩٧٤م، ليتفرغ تفرغًا تامًا للكتابة والتأليف، له أكثر من اثنتين وأربعين رواية، وعدد كبير جدًا من القصص القصيرة، كثير منها عُد من أكثر الروايات مبيعًا في العالم، تجاوز إجماليها ثلاثمائة وخمسين مليون نسخة حول العالم، وحاز على العديد من الجوائز؛ أهمها ميدالية مؤسسة الكتاب القومية، ميدالية الاستحقاق من جمعية الكتاب الوطنية، وغيرها عشرات الجوائز الأدبية، وفي عام ٢٠٠٣م عُدَّ أهم وأشهر روائي القرن العشرين، وقد حولت الكثير من رواياته إلى أفلام سينمائية.

(٣) ويُعد كتاب (الاستشراق) من أكثر الكتب المعاصرة التي تعددت ترجماتها من

اللغة: "لا يُدرى أيهما أسوأ؟!"[١].

ونحو ذلك فيما يخص الترجمة الإنجليزية ما وقع لرواية (الحرب والسلام) الشهيرة للروائي الروسي **ليو تولستوي Leo Tolstoy** (١٨٢٨: ١٩١٠م)؛ التي ترجمت للعديد من اللغات، ومن بينها الإنجليزية، لكن من بين جميع ترجمات الرواية؛ فإن ترجمة **دانيغان** عام ١٩٦٨م كانت هي المعتبرة[٢]؛ بسبب العديد من التعبيرات والأمثال الشعبية الروسية التي جعلت كثيرًا من مواضع الرواية المترجمة مُربكةً، فضلًا عن معلومات مكثفة حول الجيش الروسي الإمبراطوري، وتنظيمه وحروبه، وأكثر من نحو مائة وستين شخصية حقيقية، حتى قيل إن تولستوي قرأ جميع كتب التاريخ المُتاحة بالروسية والفرنسية التي تتحدث عن الحروب النابليونية، إلى جانب قراءته للرسائل والمجلات والسير الذاتية لنابليون، وعشرات الفاعلين في تلك الحروب، فضلًا عن العديد من الكتب الرئيسة المنشورة في ذلك العصر!

الإنجليزية للعربية، فقد صدرت ترجمته الأولى عن طريق الناقد السوري المعروف كمال بوديب عام ١٩٨١م، ثم ترجمة د. **محمد عناني** عام ٢٠٠٦م، قبل أن يُترجمه نذير جزماتي عام ٢٠١٦م الترجمة الأخيرة، وربما يعزى ذلك للتعقيد الشديد في لغة إدوارد سعيد، وشائكية المصطلحات التي يستخدمها، والموضوعات التي يطرحها في كتابه، وربما لاتهام الترجمات المتقدمة إما بالتعقيد أو التسطيح.

(١) سمعت هذا الاقتباس بنصه من د. **أحمد إبراهيم درويش**؛ أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المقارن بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، لكنه عقب عليه بأنه مبالغ فيها على الرغم من كل الإشكاليات الموجودة في الترجمتين، معتبرًا ترجمة كمال هي الأسوأ التي لا تتفق مع روح التقريب.

(٢) من ترجمات (غارنيت) و(مود) و(إدموندز) مثلًا؛ التي وجدت جميعها غير دقيقة، وتفتقر للبراعة في التعامل مع الأمثال الشعبية الروسية.

وهذا ما يفسر لنا لِمَ لم تحظ كتابات بعض المفكرين بنفس تأثيرها عند نقلها للغات أخرى، فكثيرٌ منها مثل أعمال **كافكا** و**إدغار آلان بو** لم تحظَ بترجمات جيدة إلا في السنوات الأخيرة رغم بعد الزمن الذي ظهرت فيه، فقد كان من الصعب ترجمتها مع إبقاء الإبداع والإتقان فيها، ودون تحويلها إلى أعمال فوضوية رديئة، بغير إدراك ثقافة المجتمع الذي نمت فيه[١].

والكاتب الجيد لا يقرأ بقصد النقد والنقض، بقدر قصد إمعان النظر، والموازنة بين الأفكار، وإشباع العقل، ومِلْء النفس، وكثيرًا ما كان **فرانسيس بيكون** Francis Bacon (١٥٦١: ١٦٢٦م)[٢]؛ فيلسوف الثورة العلمية والمنهج العلمي في الغرب؛ ما ينصح تلامذته بقوله: "اقرأ لا من أجل المُعارضة والنقض، ولا من أجل الإيمان والتسليم، ولا من أجل السعي إلى المُجادلة والحوار، ولكن لكي تزن الأمور وتُمعن النظر فيها"[٣].

فيجب أن يُنوع الكاتب قراءاته بين علميةٍ تُكسبه مادة يستطيع استخدامها والركون إليها في كتاباته التخصصية، وفلسفية يُعالج من خلالها القضايا ذات الأبعاد الإنسانية العميقة، وأدبية تزيد فصاحته، وتُمده بأساليب أدبية ومعاني رقيقة، لاسيَّما في كل ذلك؛ تلك التي

(١) أحمد الزمام: العاقل الذي ركل رأسه، دار كلمات (الكويت)، الطبعة الأولى ٢٠٢٠م، ص ١٨٨: ١٨٩.

(٢) فيلسوف إنجليزي، التحق بجامعة (كامبريدج)، ثم رحل إلى فرنسا، واشتغل مدة في السفارة الإنجليزية بباريس، ثم ما لبث أن عاد إلى وطنه، وعمل كمستشار للملكة (إليزابيث)، عُرف في الغرب بقيادته للثورة العلمية من خلال فلسفة الملاحظة والتجريب، ومن أوائل الفلاسفة الغربيين الذين انتقدوا المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس.

(٣) هارولد بلوم: كيف نقرأ؟ ولماذا؟، مرجع سابق، ص ٣١.

حيكت بإتقان ومهارة فائقة، فالكاتب ما هو إلا عبارة عن "إسفنجة" تشرب ما توضع فيه، فإن وضعت في ماء عكر لن تُخرج إلا ماءً عكرًا، وإن وضعت في ماء نظيف لن تُخرج إلا الماء النظيف.

يقول الكاتب الأمريكي **ويليام فوكنر** William Faulkner (١٨٩٧: ١٩٦٢م)[١]: "اقرأ واقرأ واقرأ، اقرأ كل شيء وأي شيء، مثل النجار المحترف الذي يصنع أثاثًا جميلًا من كل أنواع الخشب، وإن أردت أن تعرف قيمة ما قرأته لا بد أن تكتب، فإذا خرجت كتاباتك قيِّمة راقية؛ هنا فقط ستتأكد أنك كنت تقرأ في الموضوعات الصحيحة القيِّمة".

ويجب على الكاتب ألا يخشى قراءة الكتب والمقالات العميقة التي يعدها فوق مستواه، نعم قد يستغرق وقتًا أطول، وعددًا غير قليل من عمليات البحث قبل أن يُتم قراءة مقال، أو فصل كامل من كتاب، لكن في كل مرة سيحاول فيها ذلك سيتمكن من الحصول على كم كبير من الأفكار، وقُدرة هائلة على التعبير، فهي كالكُتب الأجنبية بغير اللُّغة الأم للقارئ، تبدأ مُربكة، ثم سرعان ما تُصبح سهلة، ومصدرًا غنيًّا لأفكار وتعبيرات وثقافات جديدة.

---

(١) روائي وشاعر أمريكي قضى معظم حياته في أكسفورد بنفس الولاية، عمل كاتبًا سينمائيًّا لسنوات في هوليوود في الفترة من عام ١٩٣٢ حتى ١٩٤٥م، حصل على العديد من الجوائز والأوسمة؛ أهمها جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٩م، ويُعد من أشهر الأدباء الغربيين في القرن العشرين، حتى أن البعض يعده أعظم روائي في التاريخ.
ومن غرائب الأشياء التي تُحكى عنه أنه كان لا يحسن الكلام، وليس لديه أي ملكات في الإلقاء، وعندما ذهب لاستلام جائزته وقف في حفل التكريم ليُلقي كلمته، فألقاها بصعوبة بالغة، وبطريقة جعلت الجمهور لم يستحسنها، ولم يتفاعل معها مطلقًا، وفي اليوم التالي نُشرت الكلمة التي ألقاها في الصحف، فلاقت كلمته رواجًا واستحسانًا شديدًا، حتى نال عنها جائزة أخرى كأقوى كلمة مكتوبة في الصحف في العام الذي نُشرت فيه!

عن شراء الكتب

من لم تكن النفقة على الكتب أحب إليه مما سواها؛ لم يبلغ في العلم مبلغًا مُرضيًا، الكتب هي المادة الخام للعلم، من خلالها يمكن إنتاج عشرات الصور والأشكال في العلوم والمعرفة، وكم من عالم ونابغ افتقر بسبب انشغاله بجمعها واقتنائها.

والحقيقة التي لا أُجادل فيها أن شراء الكتب شهوة، لكنها لا تضر بحال من الأحوال، فاقتناء الكتب في ذاته قيمةٌ، حتى وإن لم توفِ حقها في القراءة، لكن السيطرة على سلوك (الاقتناء)، وتوجيهه الجيد؛ يُعظم من فائدته، ويزيد من فرص الانتفاع به، ولا أقصد بالتوجيه هنا تحديد قوائم معينة للشراء، أو ترتيب أولويات فيه، إنما معرفة كيف يُمكن توظيف الشراء ليؤدي دوره المُتخيَّل في تكوين القارئ معرفيًّا؟ أو بعبارة أدق توظيف الشراء في الوصول للمعرفة.

وابتداءً؛ لا بأس بالفوضى الخلاقة في شراء الكتب! أي لا بأس ألا يكون لدى القارئ ترتيب في الشراء وأولويات؛ المهم هو أن يعرف كيف يشتري الكتاب، لا ماذا يشتري؟!

فيجب ألا يغتر القارئ بالأغلفة، فالمؤلف لا يصمم غلاف الكتاب، والمصمم قد يكون أمهر من المؤلف، والمؤلف قد يكون أعمق من مصمم الغلاف، وكثيرًا ما يكون الكتاب "التافه" صاحب وجه (غلاف) جميل، كالإنسان قيمته لا تنبع من مظهره وصورته، بل صفاته التي تظهر في المعاملة هي معيار قيمته ووزنه كإنسان، وإذا

كان ولا بُد من نصيحة في الغلاف؛ فلتكن في انتقاء الغلاف المتين الذي يتحمل استعمال القارئ النهِم، بالطبع من غير أن يتوقف على ذلك شراء الكتاب من عدمه.

وكما أن الغلاف لا ينبغي أن يكون دافعًا في ذاته للشراء؛ كذلك عنوان الكتاب، فكم من عناوين جذابة لكنها خادعة؛ لذلك من المهم أن يتصفح القارئ الكتاب جيدًا قبل شرائه، دون أن ينخدع بالأغلفة الجذابة أو بلاغة العناوين، وأن يطلع على مُقدمة الكتاب، وفهرس موضوعاته، وبعض فقرات منه في مواضع مختلفة منه، ولو استدعى الأمر تكرار زيارة المكتبة.

ولا شك أن أهم الكتب من حيث المحتوى هي الكتب العلمية والفكرية التأسيسية، لاسيَّما كتب أساطين العلوم والفكر، وكتب المذكرات والسير المهمة، خاصةً لأصحاب التجارب الكبيرة من الساسة والمُفكرين ومشاهير العالم الذين أثروا في حركة التاريخ ومجريات الأمور في مجتمعاتهم ودولهم.

وعلى الرغم من أهمية كتب التراث بوصف ارتباطها بالهُوية الثقافية، وإذ هي كثيرة جدًّا ومتنوعة جدًّا، ومطولة في كثير من الأحيان، مكتوبة بلغة جزلة رصينة جزلة صعبة لمن لم يعتد القراءة فيها؛ فيُفضل أن تُشترى بناء على نصيحة مَن خبروا بها، وأن تخدم نشاط القارئ واهتماماته المعرفية، وعمومًا فكتب ابن القيم وابن الجوزي والغزالي وغيرهم تعد من التراثيات العامة التي يمكن لأي أحد الاستفادة منها، وأعم منها ما يُعرف بكتب "الزهد والرقائق" في

التراث، على أنه ينبغي على القارئ أن يهتم بأن يكون الكتاب **مُحققًا**[1]

---

(١) **التحقيق**: إخراج النصوص القديمة في صورة صحيحة متقنة، ضبطًا وإيضاحًا، وفق أصول متبعة معروفة، تضبط اللفظ وتوضح المعنى، بحيث يكون النص المحقق أقرب ما يكون إلى ما أراده المؤلف الأصلي عندما كتبه، ولزوم التحقيق للكتب التراثية من جهة أن كتابتها في أزمنة غابرة بوسائل قديمة في الغالب ما تؤدي إلى ضياع حروفها وأجزاء منها، أو اشتباه الحروف والكلمات بغيرها.

وقد أحسن د. **محمود الطناحي** (١٩٣٥: ١٩٩٩م) حين قسم المصححين المدققين الذين عنوا بنشر كتب التراث منذ اختراع الطباعة إلى أربع طبقات (مجلة البيان، العدد ١٣٧، محرم / ١٤٢٠هـ، ص ٤٠)؛ فجعل في الطبقة الأولى: نصر الهوريني، ومحمد عبد الرحمن المشهور بقُطَّة العدوي، ومحمد الحسيني، وطه محمود، وغيرهم. عبر مطبعة بولاق (المطبعة الأميرية) التي أُنشئت عام ١٨١٩م تقريبًا، وظلت تعمل وحدها قرابة أربعين عامًا، ثم ظهرت المطابع الأهلية التي كانت أولها المطبعة الأهلية القبطية (الوطن فيما بعد)، ثم تلتها مطبعة وادي النيل، ثم تتابعت المطابع وتكاثرت، يقول الطناحي: "ومع هذا كانت تلك المرحلة من أغنى وأخصب مراحل نشر التراث العربي وإذاعته، وهي بكل خيرها و**عطائها قد أسلمت** إلى ما تبعها من مراحل، لكن يؤخذ عليهم أنهم لم يُعنوا بذكر الأصول المخطوطة التي اعتمدوها في إخراج الكتب، كما أن القوم لم يُعنوا بالفهارس الفنية الكاشفة عن كنوز الكتاب المنشور، واكتفوا بذكر فهارس موضوعية موجزة".

وفي الطبقة الثانية: محمد أمين الخانجي، و**مُحب الدين الخطيب** (١٨٨٦: ١٩٦٩م)، ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي، ومحمد حامد الفِقِي، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، يقول الطناحي عن الأربعة الأُول: "مرحلة الناشرين النابهين: وهم طبقة من عظماء الرجال، جاهدوا في سبيل نشر التراث جهادًا صادقًا دءوبًا، ومن عجائب الاتفاق أن أربعتهم من أهل الشام، نزلوا مصر واتصلوا بعلمائها، وعملوا على طباعة الكتب ونشرها، وتأثروا بتلك الروح التي سرت في مطبعة بولاق من نشر الأصول والأمهات، مع العناية بدقة التصحيح وأمانة الأداء، وأهم ما يميز منشورات هذه الطبقة: الحرص على ذكر مخطوطات الكتاب ووصفها، إلا أنها لم تُعنَ بالفهارس الفنية لما تنشره، إلا ما نراه من بعض مطبوعات الخانجي ومحب الدين الخطيب".

ثم قال الطناحي عن الأخيرين: "أما الأول مؤسس جماعة أنصار السُّنَّة بمصر، والذي أنشأ مطابع السُّنَّة المحمدية، ونشر فيها مؤلفاته، وكثيرًا من كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكتب الحنابلة وطبقات رجالها، وأما الثاني فهو محمد محيي الدين عبد الحميد، الذي يُعد صفحة حافلة من تاريخ نشر التراث العربي، وقدّم وحده للمكتبة العربية ما لم تقدمه هيئة علمية مدعومة بالمال والرجال، وقد رُمي الرجل بأنه أعاد طبعات سابقة

عليه مما أخرجته مطبعة بولاق ومطابع أوروبا، وأنه لم يعبأ بجمع مخطوطات الكتاب الذي ينشره، وأنه لم يضع الفهارس الفنية الجامعة لمسائل الكتاب المنشور، لكن هذا لا ينقص من قدر الرجل وجهده الذي بذله في التصحيح، وضبط النص ضبطًا صحيحًا، وإضاءته بالشروح اللغوية التي تنفي عنه الجهالة أو الغموض، مع العناية بعلامات الترقيم، وأوائل الفقرات، وعدم تداخل أجزاء الكلام، ويكفيه فضلًا أن كل من تعلم النحو في شرق الدنيا وغربها بعده مدينٌ له بدَيْن كبير؛ لما بذله من جهد بالغ في إخراج كتب النحو في أسلوب يُمتع الدارس ويصقل اللسان".

وفي الطبقة الثالثة: أحمد الزين، وعبد الرحيم محمود، والشاعر أحمد نسيم، ومحمد عبد الجواد الأصمعي، وأحمد عبد العليم البردوني، والعالم الجزائري إبراهيم اطفيّش، يقول الطناحي: "وقد برز في هذه المرحلة مشيخة جليلة من العلماء الذين بذلوا جهدًا واسعًا فيما أُسند إليهم، ولم يحظوا بمعشار ما يحظى به أدعياء التحقيق في هذه الأيام، وكان صاحب الفضل في هذا أحمد زكي باشا، الذي قال عنه شكيب أرسلان: "كان يقظةً في إغفاءة الشرق، وهبّة في غفلة العالم الإسلامي، وحياةً في وسط ذلك المحيط الهامد"، وقد مثلت هذه المرحلة مرحلة نضج وكمال من حيث استكمال الأسباب العلمية، واصطناع الوسائل الفنية المعينة على إخراج التراث إخراجًا دقيقًا يقوم على جمع نسخ الكتاب المخطوطة والمفاضلة بينها، ثم اتخاذ إحدى النسخ أُمًّا أو أصلًا، وإثبات فروق النسخ الأخرى، وما يتبع ذلك من إضاءة النص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتاب، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب، وبيان مكانته في المكتبة العربية، وموضعه من كتب الفن الذي يعالجه تأثرًا وتأثيرًا، ثم الترجمة لمؤلفه".

وفي الطبقة الرابعة: أحمد محمد شاكر، وأخوه محمود محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، والسيد أحمد صقر، يقول الطناحي: "وقد كان ظهور (الرسالة) للإمام الشافعي بتحقيق أحمد شاكر عام ١٩٣٩م إيذانًا ببدء مرحلة جديدة من النشر العلمي للتراث المستكمل لكل أسباب التوثيق والتحقيق، وهي مرحلة جديدة فيما يظهر للناس في تلك الأيام، ولكنها موصولة الأسباب والنتائج بما سنَّهُ الأوائل وأصّلوه، وقد جرى في تحقيق (الرسالة) على أعدل المناهج وأقومها من حيث التنبه الشديد لما بين النسخ من فروق، وإضافات النسّاخ فيما خفي ودقّ، وربط كلام الشافعي في هذا الكتاب بكتبه الأخرى، وتوثيق النقول، وتحرير المسائل، والعناية الفائقة بالضبط، وصنع الفهارس الفنية التي شملت آيات القرآن الكريم، وأبواب الكتاب على ترتيبها، والأعلام، والأماكن، والأشياء من حيوان ونبات ومعدن ونحو ذلك، والمفردات المفسّرة في الكتاب، والفوائد اللغوية المستنبطة منه، ومواضيع الكتاب ومسائله في الأصول والحديث والفقه على حروف المعجم، وكل ما قيل عن شاكر و(الرسالة)

تحقيقًا جيدًا - لا مُخرَّجَ[1] الأحاديث فقط، فهذا لا يُسمى تحقيقًا - ومن أهم المحققين: أحمد شاكر، ومحمود شاكر، وعبد السلام هارون، ومحمد راغب الطباخ، ومحمود الطناحي، والسيد أحمد صقر، ونجم عبد الرحمن خلف، وحكمت بشير ياسين، وصبحي السامرائي، ومحمد صبحي حلاق، وغيرهم.

كذلك من الجيد الاهتمام بنُسخ الكتب **المُفهرسة**، ويغلب أن تكون في كتب التراث والكتب الأجنبية أو المترجمة، ففائدتها على مستوى البحث والدراسة والمراجعة عظيمة، لكن للأسف تكاد لا تهتم بها دور النشر العربية الحديثة، أو لا تتقنها إلا في نطاق محدود للغاية، يخص كتب التراث، وكما أن للتحقيق أعلامه؛ فكذلك الفهرسة، ومنهم محمد فؤاد عبد الباقي، وعبد اللطيف عبد الرحمن آل الشيخ، وعبد الفتاح أبو غدة، ويوسف عبد الرحمن المرعشلي،

يقال عن أعلام هذه المرحلة: محمود محمد شاكر، و(تفسير الطبري)، و(طبقات فحول الشعراء) لابن سلام، وعبد السلام هارون، وآثار الجاحظ، والسيد أحمد صقر، وآثار ابن قتيبة، وغير ذلك من التحقيقات والمؤلفات التي انتصروا فيها للعربية وأعلوا رايتها".

وليس هؤلاء فحسب جهابذة المصححين، فثمة طائفة أخرى لا تقل في مكانتها وفضلها عمن ذكروا، فات الطناحي عدَّهم؛ فمن بينهم عبد الرحمن بن يحيى المُعلمي اليماني، ومحمد فؤاد عبد الباقي، والسيد هاشم الندوي، ومحمد طه الندوي، ومحمد عادل القدوسي، ومحمد رشاد بن محمد سالم، واللغوي محمد بن عبد الخالق عضيمة صاحب التحقيق المشهور لكتاب (المقتضب) للمبرد، وطائفة من المصححين والمدققين المعروفين في بلاد الهند، وغيرهم.

(١) **التخريج**: عزو الأحاديث إلى من أخرجها من أئمة وعلماء الحديث المعتبرين، والكلام عليها بعد التفتيش؛ عن أحوالها وحكمها من حيث الصحة والضعف، ومن حيث المتن والسند.

وغيرهم[١].

---

(١) ويمكن تقسيم الفهرسة الحديثة إلى ست طبقات بناء على ضابطي تفاوت الفترات الزمنية، وتلقي أصحاب الطبقة عمن سبقهم في المرتبة:

الطبقة الأولى: **أحمد تيمور باشا** (١٨٧١: ١٩٣٠م) وهو الذي وضع فهارس تفصيلية لكتاب (الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة) لابن الزيات، وأحمد زكي باشا (١٨٦٧: ١٩٣٤م) الذي صنع فهارس كتاب (الأصنام) لأبي المنذر هشام بن السائب الكلبي، و**عبد اللطيف عبد الرحمن آل الشيخ** (١٢٨٣: ١٣٦٣هـ) الذي وضع فهارس كتب: (وفيات الاعيان) و (الأغاني) و (تاريخ ابن الأثير) و (حياة الحيوان) و (رسالة الغفران)، و**محمد الشريف مصطفى التوقادي** وله فهرس هجائي للأحاديث التي وردت في صحيح البخاري سماه (مفتاح صحيح البخاري) ومعه فهارس شروح صحيح البخاري، و (إرشاد الساري) للقسطلاني، و(فتح الباري) لابن حجر العسقلاني، و(عمدة القارئ) للعيني، ومثله لصحيح مسلم سماه (مفتاح صحيح مسلم)، ومعه فهرسة لشرحه للنووي.

الطبقة الثانية: **مصطفى علي البَيُّومي** (١٣٠٨: بعد ١٣٦٥هـ) الملقب برائد الفهرسة المعاصرة، و**أحمد محمد شاكر** (١٨٩٢: ١٩٥٨م)، و**أحمد عبد الرحمن البنّا الساعاتي** (ت بعد ١٣٧١هـ) وله (الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد بن حنبل) و (بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن) و (منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود)، و**عبد الرحيم عنبر الطهطاوي** (ت ١٩٤٦م) من كتبه (هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري) وهو ترتيب (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح) المعروف بمختصر الزبيدي لصحيح البخاري، و**محمد فؤاد عبد الباقي** (١٨٨٢: ١٩٦٧م)، و**مُحب الدين الخطيب** (١٨٨٦: ١٩٦٩م).

الطبقة الثالثة: **محمد حسام الدين شفيق القدسي** (١٩٠٧: ١٩٨٠م) الذي صَنَعَ فهارس كتاب (ذيول تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي) لأبي المحاسن الحُسَيني الدمشقي وابن فهد المكي والسيوطي، و**محمد عبد الخالق عضيمة** (١٩١٠: ١٩٨٤م).

الطبقة الرابعة: **عبد الفتاح أبو غُدّة** (١٩١٧: ١٩٩٧م) الذي صنع فهارس دقيقة لكتاب (سنن النسائي) و (الجمع والترتيب لأحاديث تاريخ الخطيب) و (ترتيب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين)، بالإضافة لكتاب (المنار المنيف في الصحيح والضعيف) لابن قيم الجوزية و (المصنوع في معرفة الحديث الموضوع) للملا علي القاري و (التصريح بما تواتر في نزول المسيح) لمحمد أنور شاة الكشميري، و**عطية محمد سالم** (١٩٢٧: ١٩٩٩م) الذي صنع فهارس (التمهيد) لابن عبد البر بترتيب الزُّرْقاني للموطأ، و**محمود محمد الطناحي** (١٩٣٥: ١٩٩٩م)، و**محمد ناصر الدين الألباني** (١٩١٤: ١٩٩٩م).

الطبقة الخامسة: وهي أكبر الطبقات، وفيها زادت أعمال الفهرسة بشكل كبير، وزاد المهتمون بها، وتحولت من العمل الفردي للمؤسسي، وفي هذه الطبقة: **مصطفى حسين الذهبي** (١٣٣٣: ١٣٩٧هـ)، وله فهارس للسنن الأربعة: الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجة، **ويوسف عبد الرحمن المرعشلي** صاحب فهارس (سنن البيهقي الكبرى) و (سنن الدَّارَقُطْني) و (مسند أبي داود الطيالسي) و (علل الحديث) لأبي حاتم الرازي و (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير و (شرح السُّنَّة) للبغوي و (الكنى والأسماء) للدولابي و (عمل اليوم والليلة) لابن السني و (المطالب العالية) و (تلخيص الحبير) وكلاهما لابن حجر العسقلاني، و (المستدرك على الصحيحين) للحاكم النيسابوري و (الضعفاء) للبخاري و (الزهد) لأحمد بن حنبل و (مسند الحميدي) لعبد الله بن الزبير و (نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول) للحكيم الترمذي و (المراسيل) لأبي داود السجستاني، وغيرها من الفهارس المطبوعة مستقلة.

وفي هذه الطبقة أيضًا: **عبد العزيز محمد السدحان** صاحب فهارس (المعجم الصغير) للطبراني و(جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر، **ومحمد السعيد بسيوني زغلول** وله فهارس (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) للهيثمي و (حلية الأولياء) لأبي نُعَيْم الأصبهاني و (سنن ابن ماجة)، و (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي و (الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم الرازي و (مسند أحمد بن حنبل) و (البداية والنهاية) لابن كثير، وغيرها من الفهارس المطبوعة مستقلة، **وحسن محمود أبو هنية** وله فهارس (المُحَلَّى) لابن حزم و (جامع البيان) و (التاريخ) و (المنتخب) وجميعها لمحمد بن جرير الطبري، **وعبد الرحمن سعيد دمشقية** وله فهارس (السُّنَّة) لابن أبي عاصم و (سنن أبي داود) و (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) و (مسند أبي عَوَانَة)، **وشعيب الأرناءوط** وله فهارس (مسند أبي بكر الصديق) للمروزي و (شرح السُّنة) للبغوي و (سير أعلام النبلاء) للذهبي، **وعلوي السقاف** وله فهارس (مختصر العلو) للذهبي و (التمهيد) لابن عبد البر و (الشافي الكافي في تخريج أحاديث الكشاف) لابن حجر العسقلاني و (السُّنَّة) لابن أبي عاصم و (صحيح الترغيب والترهيب) و (تمام المنة في التعليق على فقه السُّنَّة) وكلاهما للألباني، وله أيضًا فهارس (الرجال الذين ترجم لهم الألباني في السلسلتين الصحيحة والضعيفة) و (رجال تفسير ابن جرير الطبري الذين ترجم لهم الشيخان أحمد ومحمود شاكر) وغيرها.

وغيرهم كُثر لا حيلة لنا في حصرهم، ثم تولت دور النشر عمل الفهارس للكتب، بالاستعانة بأجهزة الكمبيوتر، لكنها لم تكن على المستوى المأمول في الدقة، يقول **د. عبد الفتاح أبو غدة** في تعليقه على مقدمة أحمد شاكر لسنن الترمذي: "فُهرِسَتْ جُلُّ كتب الحديث الكبيرة والصغيرة المطبوعة، وصارت الفَهْرسة جزءًا من الأعمال التجارية، يُحسنها أفراد، ويتدخَّل فيها أفراد! وكُسِر سياجُ العلم، واندلقت الكتبُ الغُثاءُ

وكتب أعدائنا ليست أعداء لها، فمعيار شراء الكتب هو الجودة والرداءة في الأفكار والطرح، ومع ذلك لا يفضل شراء الكتب المترجمة إلا بناء على نصيحة ممن خبر بها، أو من أصحاب التخصص في مجالاتها، فللأسف تحمل في أحيان كثيرة أفخاخًا من جهة **سوء الترجمة**؛ إما بقصدٍ لتأثُّر قومي أو أيديولوجي، أو بغير قصد لضعف في اللغة المترجم منها أو المترجم إليها، ومن أهم المترجمين العرب من حيث الدقة والجودة؛ فؤاد زكريا وجورج طرابيشي وسامي الدروبي وعبد الرحمن بدوي ويمنى طريف وشوقي جلال وعبد الغفار مكاوي وخالد الجبيلي وسهيل إدريس وعبد السلام رضوان وغيرهم.

ومن وجهة نظري؛ فأكثر أنواع الكتب التي تحتاج إلى تدقيق وعناية عند الشراء: الروايات، وكتب التنمية البشرية، والكتب الوعظية، فأكثرها للأسف ضعيف وفوضوي، لا يصنع عالِمًا، ولا

من المطابع، واختلط الجيدُ بالرديء، والضارُّ بالنافع".
غير أنه لا زال القائمون على تلك الجهات يبذلونَ جهدًا كبيرًا في إعداد فهارس أمهات الكتب، منها؛ إدارة البحوث والموسوعات الإسلامية بوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت: التي أخرجت فهارس (حاشية رد المحتار) لابن عابدين و (فتح القدير) للكمال بن الهمام في الفقه الحنفي، و (شرح المنهاج) للمحلي مع حاشيتي (الشهابين القليوبي وعميرة البرلسي) في الفقه الشافعي و (جواهر الإكليل شرح مختصر خليل) لصالح عبد السميع الآبي و (شرح الزرقاني على مختصر خليل) في الفقه المالكي، و (منار السبيل في شرح الدليل) لإبراهيم بن سالم ضويان و (نيل المآرب على دليل الطالب) لابن أبي تغلب الشيباني في الفقه الحنبلي، وفي أصول الفقه؛ (شرح جمع الجوامع) للسبكي و (شرح مسلم الثبوت) لمحب الله بن عبد الشكور، وفي المعاجم؛ (معجم الفقه الحنبلي) المستخلص من كتاب (المغني) لابن قدامة و (معجم فقه المحلى) لابن حزم، كما أخرجت دليلًا لمواطن البحث عن الألفاظ والمصطلحات الفقهية من خمسة كتب.

يُكوّن فِكرًا؛ بسبب جرأة غير المؤهلين على الكتابة فيها، فصارت مادةً للعبث والدجل والإنتاج المسعور من قِبل دور النشر بهدف العائدات الكبيرة والفورية، ونال أكثرها شهرة زائفة تحت الشعارات التسويقية الكاذبة: "نوع جديد من الأدب"، "الكتاب الأكثر مبيعًا"، "رواية تستحق القراءة" .. إلخ.

وفي الجملة؛ الكتاب المُغالى في ثمنه مُغالى في تقديره، لاسيَّما إذا كان مُتوافرًا بصيغة إلكترونية، أو يوجد بديل في مادة الكتاب ذاتها أقل كلفة، فالحقيقة المُرة أن بعض دور النشر تتكسب من تجارة الكتب أضعاف أضعاف ثمن الكتاب وأزيد! مع العلم أن هذه ليست قاعدة عامة؛ فبعض الكتب غالية الثمن بسبب ندرة طبعتها، أو حجمها، أو غير ذلك، فإذا لم يستطع القارئ الحصول عليها فليبتعها بالغًا ما بلغ ثمنها، فإن أصحاب الاهتمامات التافهة يُنفقون على ما يتشوقون إليه من التوافه أكثر مما يُنفق أصحاب الهمم العالية في الاهتمامات الجديرة بالإنفاق!

يحكي محمد راغب الطباخ - أحد أهم المحققين في العصر الحديث - أن علّامة حلب **أحمد الحجار** (١٧٧٦ : ١٨٦٢م) بلغ من حبه اقتناء الكتب أنه رأى كتابًا يُباع، ورغب فيه ولم يكن معه دراهم، فنزع بعض ثيابه وباعها، واشترى الكتاب في الحال.

وقبله كان **لأبي عليّ القالي** اللغوي المعروف (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) نسخةٌ من كتاب (الجمهرة) لابن دُرَيْد بخط مؤلفها، وكان قد أُعطي بها ثلاثمائة مثقال ذهب، فأبى، فاشتدَّت به الحاجةُ، فباعها بأربعين مثقالًا، وكتب عليها الأبيات:

أَنِسْتُ بها عشرين عامًا وبِعْتُها
وقد طال وَجْدي بعدَها وحنيني
وما كان ظَنِّي أنني سأبيعُها
ولو خَلَّدَتْني في السجون ديوني
ولكن لعَجْزٍ وافتقارٍ وصِبْيَةٍ
صغارٍ عليهم تستهلُّ شئوني
فقلت ولم أملك سوابقَ عَبْرتي
مقالةَ مكوي الفؤاد حَزين
وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ
كرائمَ من رَبٍّ بهنَّ ضَنينِ

فأرْسَلها إليه الذي اشتراها، وأرسل معها أربعين دينارًا أخرى[١].

وكما أن للناس أعراسًا وحفلات يجتمعون فيها، ويُطلقون العنان لفرحتهم، فلا ريب أن معارض الكتب هي أعراس القراء وحفلات الكُتَّاب، لكن لأن أوقاتها دومًا محدودة، والعرض فيها أقل من الطلب؛ فمن المهم أن تُجْعَل الأولوية فيها لدور النشر التي لا يوجد لها فروع في دولة المعرض؛ لأن مكتبات الأخيرة موجودة باستمرار، اللهم إلا إذا سمحت ميزانية القارئ فيستفيد من تجمعها أيضًا في المعرض، المهم ألا ينخدع بدعايات الخصم المزعومة؛ لأنها - إن صدقت - تأكل من ميزانية الشراء، وهي في جميع الأحوال محدودة بالنظر للمعروض، وكما أن دعايات الخصم - في الغالب

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج ١ ص ٧٣.

- غير صادقة، فكذلك معلومات نفاد الكميات وآخر النسخ وجودة الطباعة.. إلخ، فتاجر الكتب - ولا أعمم - لا يتعامل مع الكتاب بذلك الاحترام الذي نظن، فهو محض سلعة يرغب في ترويجها دون إدراكٍ كافٍ لِقيمتها وفاعليتها.

ولا ينبغي أن تُؤخر زيارة المعارض لنهايتها؛ فالتجربة تثبت أن الكتب الجيدة تنفد في الأيام الأولى، وكذلك لا يُفضل أن يصحب الزائر معه أحدًا، فإن كان ولا بُد من صُحبة؛ فواحد له الاهتماماتُ ذاتها، فالعلاقة بين العدد والاستفادة من المعرض عكسيةٌ بلا أدنى شك، والعاقل النبيه صاحب الهمة هو الذي يغتنم الفُرصة حين تُتاح له ليخرج منها بشيءٍ ينفعه وينفع من حوله، وصُنع قوائم الشراء أمر جيد رغم غلبة ظن - أو بالأحرى قطعية - عدم الالتزام بها.

ومهم الاحتفاظ بدفتر يقيد فيه الزائر أهم ملحوظاته، وخواطره عن المكتبات والكتب وعناوينها ومؤلفيها وطبعاتها، وقد ذكر ابن حجر في ترجمة العالم الأصولي **محمد بن بهادر المعروف بالزركشي** (ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م)، صاحب كتاب (البحر المحيط) أنه كان لا يتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب، وإذا حضره لا يشتري شيئًا، وإنما يطالع في حانوت الكتب طول نهاره، ومعه ظهور أوراق يعلق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه[١]، قال **أحمد بن حسن بن الخطيب المعروف بابن قنفذ القسمطيني** (ت ٨١٠هـ): "إن معرفة الكتب وأسماء المؤلفين من الكمال، ومعرفة طبقات الفقهاء

(١) أحمد بن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، دائرة المعارف العثمانية (صيدر أباد)، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج ٥ ص ١٣٤.

وأزمانهم من مهمات الطالب - أي طالب العلم - وكذلك ما أُلف في عصره"[١].

وتزيد أهمية هذا الأمر لمتخصصي العلوم، وباحثي الدراسات العليا والماجستير والدكتوراه؛ فالمعارض فُرصٌ عظيمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى لجمع مواد علمية متخصصة في دراساتهم، وحمل حقيبة ظهر، أو أخذ حقيبة جر؛ للاحتفاظ بالكتب في أثناء التنقل بين دور النشر - لاسيَّما في المعارض الكبيرة؛ كمعرض القاهرة أو الرياض أو فرانكفورت - لا يضر، لكن الذي يضر قطع "أكياس" الكتب يد الحامل وظهره، ولا يضر كذلك اقتراض المال في أوقات المعرض إن لزم الأمر، طالما يُمكن السداد في وقتٍ لاحق، روى الخطيب البغدادي أن أحد القضاة كان يشتري الكتب بالدين والقرض، فعوتب في ذلك، فقال: "ألا أشتري شيئًا بلغ بمثله بي هذا المبلغ؟ قيل له: فإنك تُكثر! فقال: "على قدر الصناعة تكون الآلة"[٢]، بل على قدر الهمة يكون البذل، وعلى قدر المعرفة تكون التضحية.

بالطبع فإن ما ذكرتُه حول شراء الكتب يُمثل أدوات تفكير لا منهج عمل، أي أدوات للتفكر في عملية توظيف الشراء في تحقيق أكبر نفع ممكن للقارئ، وهي ليست لتقييد حركته في الشراء، إنما ترشيدها لتؤدي دورها الفعَّال في تكوينه معرفيًّا، وقبل ذلك إسعاده، ومن ثَمَّ من الضروري التأكيد على أمرين حيال هذه الأدوات:

(١) أحمد بن حسن بن قنفذ القسمطيني: شرف الطالب، ص ٩٠.

(٢) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سابق، ص ١٣٦.

أولًا: أنها استرشاديه، لا حصرية ولا قطعية، إنما تقبل الأخذ والرد والزيادة والتطوير.

ثانيًا: أنها ليست لتقييد حركة الاقتناء بقدر ما هي لتوجيهها.

وفي الاتجاه الآخر، فكما أن شراء الكتب له فنه وعاداته، فالاحتفاظ بها وحفظها له أعرافه وتقاليده، وكثير من العلماء والمفكرين كانوا يكرهون بيعها وإعارتها، حتى حُكي أن رجلًا باع كتابًا ظن أنه لا يحتاج إليه ثم احتاج إليه، فالتمس نسخةً به فلم يجدها بعارية ولا ثمن، وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلى بلده، فرحل إليه، وسأله الإقالة وارتجاع الثمن، فأبى، فسأله إعارته لنسخه، فلم يجبه، فآلى على نفسه ألا يبيع كتابًا أبدًا، وحُكيَ عن آخر قيل له: ألا تبيع من كتبك التي لا تحتاج إليها؟ فقال: "إن لم أحتج إليها اليوم احتجت إليها بعد اليوم"، **وفي الجملة كانوا يضنون** بإعارة الكتب، حتى أن بعضهم كان يمتحن المستعير؛ فإن وجده أهلًا له أعاره، وإلا منعه، يقولون: "لا تعر كتابًا إلا لذي علم ودين"، وبعضهم كان إذا سُئل وعد ورد السائل، فإن عاد إليه ولم يضجر أعاره، وإن لم يعد علم أنها محض شهوة كاذبة عرضت[1].

بالطبع كان هذا حالهم لأن الحصول على الكتب كان مكلفًا في الوقت والقيمة، وربما استغرق ذلك من بعضهم شد الرحال إلى البلاد البعيدة للحصول على نسخة كتابٍ ما، فلا نستطيع أن نعمم هذه الحال الآن ونعدها أصلًا، والإعارة، كما رد المعار؛ خُلق تعرفه الفِطر السوية، فضلًا عن أن فيها من نشر العلم والفكر ما لا يخفى،

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦، ١٤٦.

فالصواب في الرشد والخير في التوسط، فلا تمنع الكتب منعًا مفضيًا إلى كتمان العلم، ولا تباح مطلقًا فتؤدي إلى ضياع العلم وحرمان المعير منه.

فاقتناء الكتب كما أشرت من قبل قيمة في ذاته، لإبقاء العلم والفكر، وكثيرٌ من مكتبات المُقْتَنين الخاصة أسهمت في بقاء أشهر الكتب القديمة وأندرها إلى اليوم، وكانت وقودًا للمكتبات العامة وحفظ التاريخ.

ولم يكن هذا حال العلماء والأئمة فقط، بل كان هذا شأن عوام الناس وبُسطائهم في الثقافة والفكر، وكم من مغمور في الأمة كان مولعًا بشراء الكُتب واقتنائها، من ذلك ما يحكيه **ابن النديم** (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م): كان بمدينة "الحديثة" رجل يُقال له: **محمد بن الحسين، ويُعرف بابن أبي بعرة**؛ جمّاعة للكتب، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة، تحتوي على قطعة من الكتب العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة.. فلقيتُ هذا الرجل دفعات، فأنس بي، وكان نفورًا ضنينًا بما عنده.. فأخرج لي قمطرًا[١] كبيرًا، فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصر وورق صيني وورق تهامي وجلود آدم وورق خراساني، فيها تعليقات عن العرب، وقصائد مفردات من أشعارهم، وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسماء والأنساب، وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم،

---

(١) القِمَطْر: ما تُصان فيه الكتب، ويبدو أنها كانت جلود قوية ضخمة توضع فيها الكتب، قدر د. نزار الدباغ حجم الكبير منها بثلاثمائة رطل.

محمد نزار الدباغ: خزانة كتب شخصية في حديثة الموصل: تعليق على نص من كتاب الفهرست لابن النديم، دراسات موصلية، العدد ٤٢، فبراير ٢٠١٣م / ذو الحجة ١٤٣٤هـ، ص ١٤٥.

وذكر أن رجلًا من أهل الكوفة - ذهب عني اسمه - كان مُستهتِرًا[1] بجمع الخطوط القديمة، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما، وأفضال من محمد بن الحسين عليه.. فرأيتُها وقلبتُها، فرأيتُ عجبًا، إلا أن الزمان قد أخلقها، وعمل فيها عملًا أدرسها وأحرفها، ورأيتُ فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين، ورأيتُ عنده أمانات وعهودًا بخط أمير المؤمنين علي، وبخط غيره من كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة؛ مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي عمر والشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسِيبَوَيْه والفرّاء والكسائي، ومن خطوط أصحاب الحديث؛ مثل سفيان بن عُيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم"[2].

وكثير من هذه المكتبات الخاصة آل في النهاية إلى مكتبات عامة، أفاد منها الناس دهورًا من الزمن، وكان لها دورها البارز في صناعة حضارة الأمة.

ومن أشهر هذه المكتبات الخاصة وأهمها؛ مكتبة **أبي عمرو بن العلاء البصري** (ت ١٥٤هـ / ٧٧٤م) وكانت كتبه تملأ بيته إلى السقف، ومكتبة **محمد بن عمر الواقدي** (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٣م)، يقول عنها يعقوب بن شيبة: "لما انتقل الواقدي إلى الجانب الغربي

(١) الاسْتِهْتار: الوُلوعُ بالشيء، والإفراط فيه، في الحديث: «المُسْتَهْتَرُون بذكْرِ الله»، أي المُولَعُون بالذكر والتسبيح، ويُقال: اسْتُهتِر فلان؛ أي ذهب عقْلُه بالشيء وانصرفتْ همّته إليه حتى أكثر القول فيه وَأُولع به.

(٢) محمد بن إسحاق بن محمد الوراق المعروف بابن النديم: الفهرست، دار المعرفة (بيروت)، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ٦٢: ٦٣.

ببغداد؛ حمل كتبه على عشرين ومائة وِقْر بعير"[1]، ويقول أبو حذافة السهمي: "كان للواقدي ستمائة قِمَطْر كتب"[2].

ومكتبة **إسحاق بن إبراهيم الموصلي** (ت ٢٣٥هـ / ٨٥٠م)، وكانت تحوي ألف جزء من لغات العرب وحدها، ومكتبة **إبراهيم بن إسحاق الحربي** (ت ٢٨٥هـ)، وكانت تضم نحو اثني عشر ألف جزءٍ في اللغة والغريب وحدهما.

ومكتبة **ابن قيم الجوزية** (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، يقول عنه تلميذه ابن رجب الحنبلي: "كان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه واقتناء الكُتب، واقتنى من الكُتب ما لم يحصل لغيره"[3]، ونقل ابن حجر العسقلاني أنه كان مُغرى بجمع الكُتب، فحصل منها ما لا يُحصر، حتى أن أولاده باعوا منها بعد موته دهرًا طويلًا، بخلاف **ما اصطفوه منها لأنفسهم**[4]، وهذا سوى ما آل منها – أيضًا – لأقاربه؛ كابن أخيه **إسماعيل بن عبد الرحمن الزرعي الدمشقي** (ت ٧٩٩هـ)، الذي ذكر في ترجمته أنه اقتنى كتبًا نفيسة من كتب عمه ابن القيم، وأنه كان لا يبخل بإعارتها.

ومنها مكتبة الوالي **ابن منكود**، ومحلها في مدينة "مازر"

---

(١) محمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٩ ص ٤٥٩، والوِقْر: الحِمْلُ الثَّقِيل.

(٢) المرجع السابق، ج ٩ ص ٤٦٠.

(٣) عبد الرحمن بن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ج ٥ ص ١٧٤.

(٤) أحمد بن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مرجع سابق، ج ٥ ص ١٣٨.

الصقلية، وكانت من أكبر مكتباتها، إذ كان الوالي من الأدباء المشهورين، ومكتبة القاضي **عبد الرحيم بن علي البيساني** (ت ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م) المُلقب بالقاضي الفاضل، وقد تجاوزت كتبها المائة ألف كتاب، ومكتبة علي **أمير أفندي التركي**، الذي أفنى عمره وماله في ملء رفوفها بمختلف المصنفات، ثم تحولت فيما بعد إلى مكتبة عامة عُرفت بالمكتبة الوطنية في إسطنبول، وضمت أكثر من اثني عشر ألف ومائة كتاب مطبوع، وما يقرب من أربعة آلاف وخمسمائة مخطوط.

ومن أهمها في العصر الحديث؛ مكتبة **عارف حكمت** (١٧٨٦: ١٨٥٨م)، حيث عُدت من أعظم مكتبات الحجاز في العصر الحاضر، فكان فيها نحو عشرة آلاف كتاب، ومجلداتها أضعاف هذا المقدار، **إذ من الكُتب** ما هو عشرة أسفار، أو أقل أو أكثر، وفيها نحو سبعمائة ديوان من الشعر الجاهلي والإسلامي، وفيها مخطوطات نادرة جدًا، وأنشأ عارف بك لها في المدينة المنورة عام ١٢٦٠هـ خزانة عامرة، ولم تتضمن هذه الخزانة جميع كتبه، بل أودعها عارف بك نحو ستة آلاف كتاب، وعاجلته المنية قبل أن يضمنها باقي كتبه، فبيعت الأخيرة مع تركته بأبخس الأثمان، وقد زارها كثير من كبار العلماء والأدباء؛ منهم جمال الدين القاسمي، ومحمود شكري الألوسي، ومحمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ونابغة الأدب العربي الأمير شكيب أرسلان، وغيرهم، يقول محمود بن عبد الله الألوسي: "إن نصيب كل منها في الحسن قد جاوز النصاب، فلو يباع بوزنه ذهبًا لكان البائع في نظري مغبونًا، بل لا يظن عاقل أنه يقدم على بيعه إلا من كان مجنونًا"، ويقول كرد علي: "وأحسن خزائن كتب المدينة المنورة، وربما كانت خير مكتبة في البلاد العثمانية كلها؛ بنظامها

وانتقاء أمهاتها هي مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت أفندي، ففيها نحو عشرة آلاف مجلدة كتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين".

وكذلك مكتبة **مصطفى العروسي** (١٧٩٨: ١٨٧٦م) شيخ الجامع الأزهر، وكان عدد مجلداتها أكثر من ثمانمائة مجلدة، كلها تقريبًا مخطوطة قديمًا وحديثًا، وبها نوادر في النحو والتاريخ، وقد أهداها ورثته عام ١٩٣٨م إلى المكتبة الأزهرية.

ومكتبة **محمد الأنبابي** (١٨٢٤: ١٨٩٦م)؛ شيخ الجامع الأزهر، وبلغ عدد ما فيها نحو ألف وخمسمائة مجلدة، فيها مخطوطات نادرة في الفقه الشافعي، وقد وقفها على طلبة العلم، وجعل مقرها منزله بالظاهر، ثم أهدتها وزارة الأوقاف عام ١٩٤١م إلى المكتبة الأزهرية.

ومكتبة **سليمان أباظة**؛ الذي كان مهتمًّا بجمع كتب التاريخ والأدب، وبلغت كتبها نحو ألف وخمسمائة مجلدة أكثرها مخطوطات، وفيها عدد من المطبوعات الأوروبية، وقد أهداها ورثته إلى المكتبة الأزهرية عام ١٨٩٨م؛ عملًا بمشورة محمد عبده، ومكتبة **إبراهيم حليم باشا**، وكانت تضم نحو خمسة آلاف مجلدة؛ في فنون القراءات والحديث والتصوف والطب والفلك والتاريخ باللغات التركية والفارسية وغير ذلك، منها نحو ستمائة وخمسين مخطوطًا، وكثير من كتبها بخطوط جيدة موشاة بالذهب، وأمر الملك فؤاد عام ١٩١٢م بتوزيعها بين دور الكُتب والمعاهد العلمية، فكان نصيب دار الكُتب المصرية نحو ألف وستمائة مجلدة، ونصيب المكتبة الأزهرية نحو ألفين وثمانمائة وخمسين مجلدة.

ومكتبة الرافعي المملوكة لمُفتي الديار المصرية **عبد القادر الرافعي** (١٨٣٢: ١٩٠٥م)، وبلغ عدد كتبها نحو ألف وخمسمائة

مجلدة، وكانت من أغنى المكتبات الخاصة بفن الفقه الحنفي، وفيها من المخطوطات ما هو من النوادر العالمية، وقد أهديت في مارس ١٩٢٧م إلى المكتبة الأزهرية، ووقفت بخزائنها الخاصة بها عليها.

ومكتبة **أحمد طلعت باشا**، وكانت تضم نحو ثلاثين ألف مجلدة باللغات العربية والشرقية والأجنبية، منها ما يزيد على تسعة آلاف وخمسمائة مخطوطة، وقد أُهديت عام ١٩٢٩م إلى دار الكتب المصرية.

ومكتبة **محمد بخيت المطيعي** (١٨٥٤: ١٩٣٥م)؛ مُفتي الديار المصرية، وبلغت محتوياتها نحو ثلاثة آلاف وأربعمائة مجلدة، في فنون مختلفة أغلبها في الفقه الحنفي، وقد وقفها المطيعي في حياته على طلبة العلم، ثم نفذ ورثته رغبته عام (١٩٣٨م)؛ فضُمت إلى المكتبة الأزهرية.

ومكتبة **محمد حسنين البولاقي**؛ وهو والد أحمد باشا حسنين رئيس الديوان الملكي، وبلغ ما فيها نحو أربعة آلاف مجلدة، بها كتب ومخطوطات قيمة ونادرة، لاسيَّما في علمي التفسير والفلسفة، وقد أُهديت إلى المكتبة الأزهرية، ومكتبة **خليل أغا**، وكانت تضم نحو ألف وخمسمائة مجلدة، منها نحو سبعمائة مخطوطة، وقد أمر الملك فؤاد بضمها إلى دار الكُتب عام ١٩٣٩م، ومكتبة **محمد محمود التركُزي التلاميد الشنقيطي** (١٨٢٩: ١٩٠٤م) التي بلغت ما يزيد على ألف وأربعمائة مجلدة، تضم نفائس المخطوطات في علوم اللغة العربية.

وأهمها على الإطلاق مكتبة **أحمد تيمور باشا** (١٨٧١: ١٩٣٠م)، المعروفة بالخزانة التيمورية، حيث جمع فيها نوادر

المخطوطات والمطبوعات، مستعينًا بحالته المادية الثرية التي بذلها في سبيل الحصول على ما أراده من الكُتب والمخطوطات، وبلغت مؤلفاتها أكثر بقليل من تسعة عشر ألف وخمسمائة مؤلف مطبوع، فضلًا عن نحو ثمانية آلاف وستمائة وسبعين مخطوطًا من أنفس المخطوطات، جمعها من مختلف مكتبات العالم، حتى باتت من أهم خزائن الكُتب، يقول مُحب الدين الخطيب: "الخزانة التيمورية لا يكاد يمضي يوم عليها إلا بازدياد عدد نفائسها، إما من مخطوطات نادرة الوجود في العالم، أو من كتب مصورة بالتصوير الشمسي عن نوادر خزائن الدنيا، أو من مطبوعات الشرق والغرب مهما كانت عزيزة أو ثمينة، جعلها الله عامرةً إلى الأبد".

وصنع تيمور باشا بخطه فهارسَ لمكتبته، قسمها على الفنون، وجعل لكل فن فهرسًا مستقلًا خاصًا، وكانت عادته أن يعد لكل مخطوط قرأه فهرسًا بموضوعاته ومصادره، وأحيانًا لأعلامه ومواضعه، ويضع ترجمة لمؤلف الكتاب بخطه، وقد أُهديت عام ١٩٣٢م - أي بعد وفاته - إلى دار الكُتب المصرية.

تليها في الأهمية مكتبة **أحمد زكي باشا** المُلقب بشيخ العروبة (١٨٦٧: ١٩٣٤م)، والمعروفة بالخزانة الزكية، حيث ساعدته وظيفته المرموقة في الحكومة المصرية، ورحلاته المتعددة، وبذله المال، في تكوين تلك المكتبة التي حوت عددًا هائلًا من أندر الكُتب المطبوعة والمخطوطات، وبلغت مؤلفاتها ما يزيد على الثمانية عشر ألف وستمائة مؤلف مطبوع، فضلًا عما يقرب من ألف وخمسمائة مخطوطة، ابتدأ في تجميعها منذ أن كان طالبًا بالمدرسة، حيث كان شغوفًا بالبحث والمطالعة وجمع الكُتب، ثم اشترى فيما بعد مكتبات

علي باشا إبراهيم، ورضوان العفش، وحسن حسني باشا، بالإضافة إلى ما اقتناه في أثناء رحلاته إلى أوروبا والأستانة، حيث استطاع في إحدى رحلاته إليها أن يزور مكتبة (سراي طوب قبو)، وكانت مغلقة في وجه أي زائر لقرون عديدة، وأن يبقى بها أربعة أشهر كاملة، نسخ منها عددًا من الذخائر العربية.

وعلى الرغم من أن زكي باشا كان أقل ثروة من تيمور باشا؛ فقد كان أبعد يدًا، وأكثر جرأةً في السفر والترحال والبحث، وواسع الحيلة في الحصول على الكُتب والمخطوطات، وقد ساعده على ذلك - أيضًا - ظروف حياته الخاصة، إذ لم ينشغل بولد، إلى جانب وظيفته في مجلس النظار التي مكنت له فرصة السفر مرارًا، وفوق ذلك كله اتصاله بدوائر الباحثين والمستشرقين في المجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية، وكان زكي باشا قد أقامها في أول الأمر بمسكنه خلف سراي عابدين، ثم أوقفها وأهداها للأوقاف - خشية أن تضمها وزارة المعارف إلى إحدى المكاتب الرسمية بعد وفاته - وأوقف معها قطعة أرض في منطقة المُنيرة لبناء دار كتب عليها، فجعلت الأوقاف مقرها مدرسة السلطان قانصوة الغوري، ثم آلت الخزانة بعدُ إلى دار الكُتب المصرية بموجب قرار وزير الأوقاف في ديسمبر (١٩٣٥م)، أي بعد وفاة زكي باشا بنحو عام، ما خلا ما أُهدي منها من قبل إلى المكتبة الأزهرية.

وحُكي أن **أحمد محمد الزرقا** فقيه الشام (ت ١٩٣٨م) كان لديه مكتبة كبيرة عامرة، جمعت نوادر المطبوعات القديمة والحديثة في أنواع العلوم، بينها نحو ألف كتاب مخطوطة، من نفائس الكتب والمخطوطات الشهيرة المعتبرة في مختلف الفنون، تجمعت لديه

على آماد متطاولة، وانتخبها انتخاب العالم البصير، إذ كان في مطلع شبابه يتاجر بالمخطوطات، ويجلبها من جهات متعددة، فكان ينتقي منها النفائس انتقاء العارف الخبير، ويستبقيها لنفسه وخزانته، وقلما يدخل فيها مخطوطًا دون أن يستوفيه قراءة أو يلم بمحتواه، وغدا لهذه الخزانة التي لديه صيت وشهرة، لدى راغبي ومحبي المخطوطات من عرب وغيرهم، فربطته بسببها صلة وثيقة دائمة مع أحمد تيمور باشا في مصر، وسافر إليه مرات وتعامل معه.

ولما شاع أمر هذه الخزانة؛ توارد عليه طلب بيعها من أجانب وسماسرة المستشرقين ومكتبات الشرق والغرب، وعرضوا عليه من أجل ما احتوته الأثمان المغرية، لكنه أبي وأصر على الإباء في بيعها لمن يخرجها إلى بلاد غير إسلامية، على الرغم من حاجته إلى ثمنها، ثم ولعدم قدرته على صيانتها وحمايتها؛ باعها لمكتبة الإسكندرية العامة في مصر بوساطة أمين الخانجي الكتبي، بثمن أقل جدًّا مما بذله له فيها سماسرة الجهات الأجنبية، وكان بعد ذلك كلما ذكرها أو ذكر بعض النفائس التي كانت فيها، وتكحلت عينه بمطالعتها وجميل خطوطها، يتمثل قول **أبي علي القالي** (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) لما باع نسخته من كتاب (جمهرة اللغة) لابن دُرَيْد:

أَنِسْتُ بها عشرين عامًا وبعتُها
وقد طال وَجْدي بعدَها وحَنيني

وما كان ظنّي أنني سأبيعُها
ولو خَلَّدَتْني في السجون ديوني

وقد تُخْرِجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ
كرائم من رَبٍّ بهن ضنينِ

ومنها مكتبة **محمد الطاهر بن عاشور** (١٨٧٩: ١٩٧٣م) المعروفة **بالخزانة العاشورية**، ومحلها في المرسى بالقرب من تونس العاصمة، وكانت تحتوي على عدد كبير من المخطوطات، يُقدر بنحو **ثلاثة آلاف مخطوطة**، فضلًا عن كثير جدًا من الكُتب النادرة وغيرها، **ولها فهارس في دار الكُتب الوطنية بتونس**، وقد آلت إلى ورثته من أبنائه؛ وهم القائمون والمشرفون عليها بحسب آخر ما توصلت إليه من أخبار، وأغلب الظن أنهم ليسوا من أهل العلم، وآخر معلوماتي أنهم رفضوا بيعها، ورفضوا إهداءها، ولا يكاد يصل أي طالب علم أو باحث إلى تصوير كتابٍ من هذه المكتبة إلا بصعوبة بالغة، إذ اختلف الورثة بشدة حول التصرف فيها، حتى كتب **شاكر الفحام** في مقدمة كتابه عن (ديوان بشار بن بُرد) أنه بذل كل جهد، وتوسَّط لديهم بكل رفيع القدر، فلم يظفر بصورة النسخة العاشورية.

يُضاف إليها مكتبة **شمسي باشا** التركي، وكانت تضم نحو ثمانية عشر ألف كتاب ومخطوطة، ومكتبة السلطان أبايزيد العثماني، وكانت تضم نحو اثني عشر ألف كتاب ومخطوط.

ومكتبة **محمد نصيف** (١٨٨٥: ١٩٧١م)، وكانت من أهم خزائن الكُتب الخاصة بأرض الحجاز، حيث كانت تضم نحو تسعة آلاف وثلاثمائة كتاب في مختلف الفنون، لاسيَّما علوم القرآن وتفسيره والحديث والجرح والتعديل وفقه الحنابلة، من بينها أكثر من مائتي مخطوطة من أنفس المخطوطات، وقد آلت إلى جامعة الملك عبد العزيز بجدة، حيث أمر الملك فيصل بعد وفاة محمد نصيف بشراء قصره ومكتبته، وجعلهما وقفًا وملكًا للدولة، ممثلةً في وزارة المعارف حينئذٍ، ثم أصدر قرارًا في جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ

بنقل المكتبة من القصر إلى المكتبة المركزية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وللمكتبة فهرس تفصيلي بمحتوياتها، يقع في مجلدين، ومحتفظ به في المكتبة المركزية.

ومكتبة **محمد عبده** (١٨٤٩: ١٩٠٥م) وكانت تضم أكثر من مائة مخطوطة، ومكتبة **عباس العقاد** (١٨٨٩: ١٩٦٤م) وكانت تضم أكثر من تسعة عشر ألف مؤلف مطبوع، وقد أُهديت بعد وفاته بعامين إلى دار الكتب المصرية.

ومكتبة **مُحب الدين الخطيب** (١٨٨٦: ١٩٦٩م)، وتعد من أهم المكتبات الخاصة المُعاصرة، تواترت الأخبار على أنها كانت تضم نحو عشرين ألف مؤلف ما بين مخطوطة ومطبوع، وبها مجموعة كبيرة من الكُتب النادرة، وكانت فهارسها تبلغ خمسة وستين مصنفًا، ووَهِمَ د. يوسف بن عبد الرحمن المرعَشلي في زعمه أنه: "ترك مكتبة خاصة تبلغ نحوًا من مائتي ألف مجلدة، تجاوزت بذلك المكتبة التيمورية التي بلغت مائة وعشرين ألفًا، ومكتبة أحمد زكي وتضم مائة وسبعين ألفًا"[١]، وكان مُحب الدين قد جعلها قبل وفاته وقفًا على أهل العلم من ذريته، وقد بنى ولده قُصي دارًا بناحية "الدقي" في القاهرة، وخصص الطابق الأول منها لتلك المكتبة.

ومكتبة **أحمد محمد شاكر** (١٨٩٢: ١٩٥٨م)، وكانت مكتبة عظيمة ضخمة، بها كثير من المخطوطات، ولا زالت في أيدي ورثته محبوسة عن العلماء وطلبة العلم، ولم يختلف أمرها في ذلك عن أمر

---

(١) يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي: نثر الجواهر والدرر في تراجم علماء القرن الرابع عشر، دار المعرفة (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، ج ٢ ص ١٠٠٦.

مكتبة الطاهر بن عاشور في شيء، على الرغم من أن بعض الفضلاء وأهل العلم عرضوا مئات الألوف من الجنيهات في سبيل شرائها.

وأخيرًا، وليس آخرًا؛ مكتبة **عبد الفتاح الحلو** (١٩٣٧: ١٩٩٤م)؛ أحد أكبر المحققين في النصف الثاني من القرن الماضي؛ كانت كتبها تملأ ما يربو على ثلاث أو أربع عشرة حجرة، بها مخطوطات أصلية نادرة ومطبوعات نفيسة، وكان الحلو يعتني بها اعتناءً شديدًا، حتى أنه كان يقوم بتجليد الكُتب تجليدًا فاخرًا بثمن باهظ، وقد بيعت في تسعينيات القرن العشرين، بالإضافة إلى مطبعة دار هجر التي كان يملكها الحلو وآخرون بمليون جنيه مصري، وهو ثمن بخس جدًا مقارنةً بقيمة الكتب وحدها، لو أحيا الله عز وجل الأستاذ عبد الفتاح ليرى ما فعله ورثته بها لمات من فوره.

والحقيقة أن المكتبات الشخصية - في الغالب - وليدة الاستقرار، أو كما قال **محمد عبد العزيز** - صاحب كتاب (مودة الغرباء: حكايات من السير الذاتية والمذكرات): "المكتبة شعار استقرار، وغرس نبتة حضورك في جذور أرضك، أما الرُّحّل العابرون سريعًا فليس لهم إلا خبز كتابهم المسائي قبل أن يعبروا حدودًا جديدة"!

فهذه الفقرة الرائقة تصف واقعًا في غاية الصدق وغاية الألم، فكم من طالب عالم حرمته الرحلة في الطلب عن تكوين مكتبة، وكم من منفي ومغترب - جبرًا أو اختيارًا - حال المنفى وحالت الغربة دون الاستمتاع بمكتبته، وقد عاينت هذا الأمر، أو بالأحرى عانيت منه، فمن أشد آلام الغربة التي يعاني منها أي مغترب "آلام الفقد"؛ الأهل والأحباب والأصحاب، لكن أكثر ما افتقدتُه في الغربة كان

مكتبتي؛ التي قضيت سنوات طويلة في جمعها شيئًا فشيئًا، أنقحها وأنظمها وأتعاهد المهترئ والتالف فيها، وأرتبها وأُعيد ترتيبها، وأفهرسها وأُعيد النظر في فهرستها، فكنتُ بالنسبة لها راعيًا وأمينًا وحمالًا؛ أُحمل منها للقراءة والبحث على المكتب أو الكراسي عشرات الكتب ثم أُعيد تسكين ما حملتُه، وهكذا مرارًا وتكرارًا، وربما حدث هذا بين المدينة (حيث المكتبة) والمدينة (حيث إقامتي) في مشقة ممزوجة بمتعة لا تدانيها متعة! وكنتُ لا أضم للمكتبة كتابًا إلا بعد أن أطلع على مقدمته وفهرسه على أقل تقدير، ولا أذكر أن غبتُ عن معرض كتاب حتى رحيلي، أو فاتتني مكتبة في أي مدينة أقمت بها لم أزرها ولو لمرة، ولم أسكن بلدة إلا وكوّنت فيها مكتبة صغيرة كبرت مع الأيام؛ حيثما رحلتُ كانت لدي مكتبة تمضي معي ما تمضي ثم أضمها عند رحيلي لمكتبتي الأم حيث مولدي وإقامتي الأصلية، كانت مكتبتي أحب ما عرفت، وأجمل ما وهبني ربي، أمضيت معها سنوات كانت كالأيام، وأيامًا كانت كالدقائق، ولا أُبالغ إن قلت إنها كانت تذهب عني كل حزن وغم، وكم شغلتني عن حق نفسي وحق أحبابي لكنها كانت لي في منزلة الوالد والولد.

الفصل الثالث:

عن الكتابة

لماذا نكتب؟

الكتابة ببساطة تعبر عن الكاتب كإنسان، فالقلم ما هو إلا لسان الضمير، هو الصوتُ الجريء لكل من يخجل، أو ليس لديه قدرة على التعبير، فالذي يكتبُ ألمًا إنما يُعبر عن معاناته، والذي يبثُّ بكلماته الأمل إنما يُعبر عن تفاؤله، والذي تنبض عباراته بالسرور إنما يُعبر في الحقيقة عن سعادته، أو كما عبر عنها د. **عبد الرحمن بدوي** (١٩١٧: ٢٠٠٢م) بلفظة موجزة: "الكتابة زفرة"[١]، فكل كلمة لن تبلغ قلب قارئ إلا إذا خرجت من نفس صادقة متسقة مع ما عبَّرت عنه.

لكن القيمة الحقيقية للكتابة تكمن في أنها تُساعد على التحرك بسهولة بين الحقائق والاستدلالات ودقائق الأمور والآراء والمواقف المُعقدة دون أن تقع في متاهة الخلط بينها، لأن الكاتب يضطر إلى كثرة المُطالعة والمراجعة، والبحث عن الأدلة، وإمعان النظر فيها، وفي دلالات الأحداث، فتتكون لدى الكاتب صورة واضحة وقوية عن المسائل والأحداث، يستطيع أن ينقلها للمحيطين به ولقُرائه بثقة وثبات، يقول **النووي** (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م): "وينبغي أن يعتنى بالتصنيف إذا تأهل له، فبه يَطلع على حقائق العلم ودقائقه، ويَثبت معه؛ لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش، والمطالعة، والتحقيق،

(١) عبد الرحمن بدوي: تحقيق الإشارات الإلهية، لأبي حيان التوحيدي، مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، طبعة ١٩٥٠م، ج ١ ص كد.

والمراجعة، والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومُتفقه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المُحقق بصفة المُجتهد"[١].

فالكتابة الناجحة من هذا المنظور ليست بالأمر الذي يُستهان بأثره، إنها معركة بين الكاتب وعقل القارئ، يحرص فيها الأول على فرض رأيه على الأخير، إنها ممارسة عقلية عنيفة، توجب على القارئ أن يستمع إلى الكاتب، أن ينظر إليه، وربما غير قناعاته لأجل قناعات الكاتب، الكتابة سُلطة، إنها - كما تقول الروائية **جوان ديديون** Joan Didion (١٩٣٤-)[٢]: "احتلال.. فرض لعقلية الكاتب على أكثر مساحات القارئ خصوصية"، وكان الأديب الإنجليزي **جوزيف كونراد** Joseph Conrad (١٨٥٧: ١٩٢٤م)[٣] يقول: "أيها القارئ؛ مُهمتي هي أن أجعلك تسمع، أن أجعلك تشعر، والأهم من ذلك كله أن أجعلك ترى، هذا كل ما في الأمر وأهم ما فيه".

ومع مرور الوقت؛ تساعد الكتابة الكاتب على تكوين خط فكري مُحدد غير عشوائي، حتى تصنع منه مُفكرًا أو عالمًا، فلا يُمكن

---

(١) يحيى بن شرف النووي: المجموع شرح المهذب، دار الفكر (بيروت)، ج ١ ص ٢٩: ٣٠.

(٢) روائية وصحفية وشاعرة أمريكية، عُرفت باهتمامها بقضايا تفكك الأخلاق الأمريكية والفوضى الثقافية، حازت على الدكتوراه الفخرية في الأدب من جامعة هارفارد، وأخرى من جامعة ييل الأمريكيتين.

(٣) أديب إنجليزي بولندي الأصل، ولد في أوكرانيا البولندية، وانتقل إلى بولندا ثم إلى فرنسا في ريعان شبابه، حيث عمل بالملاحة، ثم انتقل إلى إنجلترا، واستمر في عمله بالملاحة، حتى توفي بنوبة قلبية، مخلفًا روايات وقصص قصيرة عديدة، أغلبها متعلقة بالبحر.

أن يوجد ما يُسمى بمُفكر دون أن يكون له إنتاج فكري، وكذلك لا يتصور أن يوجد ما يُسمى بعَالِم دون أن يُنقل إلينا علمه، ولذلك قالوا قديمًا: "الكتابة تُبقي الذكر وتُبقي الدين"؛ أي تُبقي الذكر الحسن للكاتب بين الناس، وتُبقي العلم محفوظًا في الكُتب، ولولا أن الأوائل من المفكرين الفحول والعلماء الكبار تركوا لنا آثارهم في الفكر والعلم؛ ما عرفناهم ولا عرفناها، ولا ارتقت الهمم بإنجازاتهم، ولاندرست معالم الدين واضمحل العلم.

قال هلال بن العلاء: "يُستدلُّ على عقل الرجل بعدَ موته بكُتبٍ صنفها وشعر قاله"[1]، وفي الحكمة الألمانية: Wer Schreibt der Bleibt؛ أي "من يكتب يبقى"، فالكاتب يذهب ويبقى قلمه، والعقل يفنى ويبقى أثره، قال الشاعر:

لم يبق شيء من الدنيا نسرُّ به
إلا الدفاتر فيها الشعر والسمرُ
مات الذين لهم فضل ومكرمة
وفي الدفاتر من أجسامهم أثرُ

والكتابة تُعزز القدرات الفكرية على طرح الأسئلة الجديرة بالبحث والاهتمام لدى ذات الكاتب أولًا، ثم قُرائه ثانيًا.

وهي تُعزز صقل الأفكار، مما يجعل الكاتب أكثر دقةً، ويضبط ردود أفعاله تجاه نفسه وتجاه الآخرين، ويُنمي قدراته على إقناع الآخرين، يقول الفيلسوف الإنجليزي **فرانسيس بيكون** **Francis**

(١) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، مرجع سابق، ج ٢ ص ٢٨٣.

Bacon (١٥٦١: ١٦٢٦م): "القراءة تصنع إنسانًا كاملًا، والكتابة تصنع إنسانًا دقيقًا"، وفي الغرب يقولون: "الكتابة مرآة حُجتك"، إذ تعكس أفكار الكاتب وأوجه حُجته؛ ولذا فالدراسة عندهم تعتمد على القدرة على التعبير، فترتبط في الغالب الأعم بشرح المفاهيم، وتلخيص الكُتب، وتحرير المقالات واختصارها وتقييمها.

فلا غرابة بعد ذلك أن تثبت التجارب أن الكُتاب هم أكثر الناس تجنبًا للمُجادلة الفاشلة غير المُثمرة، المُضيعة للوقت والجهد.

ومن أهم فوائد الكتابة النفسية للفرد هي أنها وسيلة جيّدة لتخفيف التوتر والقلق والمخاوف، حيث يُفرغ الكاتب ما بداخله على الورق، ويُشارك الآخرين همومه واهتماماته، قال لي د. **محمد يوسف عدس** (١٩٣٤: ٢٠١٧م) يومًا: "وجدت بالتجربة والممارسة المقصودة أن الاستغراق في الكتابة يخفف الأحزان، ويساعد على السلوى والنسيان الذي لا تستمر الحياة دونه".

يقول **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧١م) في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) تحت عنوان (البيان والتعريف لفضل الجمع والتصنيف): "فإن ذلك الفعل مما يُقوي النفس، وَيُثبّتُ الحفظ، وَيُذَكّي القلب، وَيَشحَذُ الطبع، وَيَبسُطُ اللسان، وَيُجيدُ البيان، وَيَكشِفُ المُشتَبه، ويُوضح المُلتَبِس، وَيُكسِبُ أيضًا جميل الذّكرِ وَتَخليدَهُ إلى آخِرِ الدَّهر"[١].

لذلك كان **ابن خلدون** (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) يرى أن الكتابة أهم الصنائع وأشرفها، فيقول: "النفس الناطقة للإنسان

---

(١) المرجع السابق، ج ٢ ص ٢٨٠.

إنما توجد فيه بالقوة، وخروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولًا، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية، إلى أن يصير إدراكًا بالفعل وعقلًا محضًا، فتكون ذاتًا روحانية، ويُستكمل حينئذ وجودها، فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلًا فريدًا.. والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادةً لذلك؛ لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف باقي الصنائع، ففي الكتابة انتقالٌ من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، فهو ينتقل أبدًا من دليل إلى دليل، ما دام ملتبسًا بالكتابة، وتتعود النفس ذلك دائمًا، فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة، فيكسب بذلك ملكة من التعقل، تكون زيادة عقل، ويحصل به قوة فطنة، وكيس في الأمور؛ لما تعودوه من ذلك الانتقال"[1].

وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة أن الكتابة تُساعد على تحسين الصحة النفسية، وتعزز نظام المناعة الجسدية، حيث تعطي مساحة عملية للتوجيه والإفراج عن المشاعر السلبية، ولذلك أوجدوا طريقة علاج كاملة عن طريق الكتابة، أطلقوا عليها **الكتابة التعبيرية Expressive Writing**، حيث يُطلب من المُعالجين أن يعبروا عن مشاعرهم، ويكتبوا عن الأحداث التي تُؤزمهم لمُدد مُعينة في أوقات متفاوتة، لاسيَّما الناجين من الصدمات والأمراض النفسية.

(١) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، ج ١ ص ٥٤١.

في بحثٍ بعنوان الفوائد العاطفية والجسدية للكتابة التعبيرية Emotional and physical health benefits of expressive writing)[1] للكاتبتين **كارين بايكي** Karen Baikie، و**كاي فيلهلم** Kay Wilhelm، نُشر في مجلة (Advances in Psychiatric Treatment)، التي تصدر عن الكُلية الملكية للأطباء النفسيين في بريطانيا، خلُصت الكاتبتان إلى أن الكتابة وسيلة جيّدة لتخفيف التوتر والقلق، وتعزيز نظام المناعة على المستوى النفسي والجسدي.

ومن أبرز الفوائد الصحية والنفسية التي كشفت عنها الدراسات الطبية التي أشار إليها البحث المتقدم - وهي أكثر من ثلاثين دراسة منذ عام ١٩٨٥م: تخفيف حدة التوتر، وتحسين أداء الجهاز المناعي، وانخفاض ضغط الدم، وتحسين وظائف الرئة خاصة للذين يعانون من الربو، وتحسين وظائف الكبد، وتحسين المزاج، وخفض أعراض الاكتئاب قبل الامتحانات، وتجنب أعراض ما بعد الصدمة، وتقليل الألم، وتقليل الحاجة لاستخدام خدمات الرعاية الصحية وزيارات الأطباء المبالغ فيها، فلا غرابة أن نجد **والاس ستيفنز** Wallace Stevens (١٨٧٩: ١٩٥٥م) الشاعر الأمريكي الشهير يرى أن كتابة الشعر كانت تقضي على آلام السرطان الرهيبة التي كانت تجتاحه في أيامه الأخيرة، وكان صاحب أسلوب مميَّز في الكتابة بالرغم من معانيه الغامضة وإكثار استعماله للكلمات الصعبة!

---

(1) Karen A. Baikie, Kay Wilhelm; Advances in Psychiatric Treatment, Aug 2005, 11 (5)338346.
https://cutt.ly/cEl1hOM.

ومن أبرز الفوائد الاجتماعية والسلوكية التي كشف عنها البحث المشار إليه: خفض التغيب عن العمل، ورفع قدرات الطلبة، وتحسين الذاكرة، وتحسين الأداء الرياضي، وإعادة تأهيل الانطوائيين، وتحسين اللغة والأساليب التعبيرية، وضبط السلوك الاجتماعي وتحسينه، وتقليل عدد ساعات النوم، وتجنب آثار الأزمات العاطفية والاستجابات العاطفية السلبية، وعلاج إدمان الكحول والمخدرات، وتخفيض الميل نحو الانتحار.

والكتابة تُعلم مهارة توقع احتياجات ورغبات الآخرين، وإتقان هذه المهارة يؤدي إلى مهارة أخرى وهي المرونة، مما يساعد على النضوج الفكري واتساع الأُفق؛ كما أثبتت إحدى الدراسات التي أجراها (مركز الدراسات الإنسانية) بجامعة (ميزوري)، تحت عنوان (لماذا الكتابة مهمة؟).

وفي نظري؛ فإن أهم فرائد الكتابة العملية أنها مع مرور الوقت واكتساب مهارتها، بالإضافة لاكتساب بعض مهارات التواصل الاجتماعي؛ تُؤهل الكاتب إلى التفكير الفعال المرتبط بالإسهام الفاعل في رُقي الأمة وتقدمها، والنهوض بها، ومثال هذا النوع من الكُتَّاب والمُفكرين؛ الأستاذ الكبير **علي عزت بيجوفيتش** Alija Izetbegović (١٩٢٥ : ٢٠٠٣م) الذي يُعد من كبار فلاسفة المسلمين في العصر الحديث، وله أربعة كتب مطبوعة؛ هي (الهروب إلى الحرية) ألَّفه في فترة اعتقاله الأولى من ١٩٤٦ حتى ١٩٤٩م، و(البيان الإسلامي) كتبه في عام ١٩٦٩م، و(الإسلام بين الشرق والغرب) ألفه في فترة اعتقاله الثانية من ١٩٨٣ حتى ١٩٨٨م، و(مذكراتي)، وقد تميَّزت كتاباته بقوتها الفلسفية، والتركيز على نقض

الفلسفات الغربية المبنية على المادية، وأهم ما يميز أسلوبه استيعابه الشديد لمضامين الفلسفات الغربية ومآلاتها، فهو يتحدث بطلاقة غير معتادة من المفكرين الإسلاميين عن نيتشة وياسبرز وكيركجارد وغيرهم، كما تمتاز كتاباته بحُججها المنطقية، بحيث يصعب جحدها وعدم التسليم بها، ولم يكن متعمقًا في الفلسفات النظرية البعيدة عن واقع المجتمع، بل لطالما وظّف فكره في خدمة أمته ودينه؛ ولذلك تعرض للاعتقال والأذى والاضطهاد مرات عديدة، ولم يثنه هذا عن مواصلة تحقيق رسالته، وتوظيف علمه في خدمة دينه[1].

يقول الصحفي الأمريكي هنري هازليت Henry Hazlitt (١٨٩٤: ١٩٩٣م): "إن الكتابة ترتبط ارتباطًا متينًا بالتفكير، وهي

(١) حتى عندما ولي رئاسة الجمهورية الإسلامية الوليدة في قلب أوروبا في أصعب الأوقات وأحلكها؛ لم يكن رئيسًا عاديًا كغالب الرؤساء، فقد نصر شعبه المسلم وقت أن تكالب عليه الغرب وخذله الشرق؛ لم يفر بيجوفيتش، ولم يهرب من الحصار، بل ظل صامدًا مُصرًا على البقاء مع بني قومه تحت الحصار في (سراييفو)، ولم يزل يبذل مساعي كبيرة لإنقاذهم، حتى اضطر تحت وطأة القتل والاغتصاب والتعذيب إلى قبول اتفاق (دايتون) الظالم، الذي وافقت عليه قمة رؤساء الجمهوريات اليوغسلافية في فبراير ١٩٩١م لإقامة جمهورية فيدرالية متناسقة، وكان هذا الاقتراح كفيلًا بإنقاذ شعبه من المذابح.
عن هذا الصلح يقول د. محمد حامد الأحمري: "كان قويًّا مع مرونة، وأوضح ذلك حرصه على العمل والمفاوضات طوال الوقت، وحرصه على إنجاز موقف عملي مفيد، ولو كان جائرًا، أو أقل مما يطمح إليه، فقد كان يدرك توجهات العالم الغربي، وكراهته لكيان إسلامي في أوروبا، وحادثة القبول بالصلح أنموذج يستحق التقدير، فالتصلب هنا مهلكة، والصلح غبن، لكنه أخف الضررين، فقبل بما وصفه: "سلام جائر خير من حرب مُهلكة"، وقد أوصله الوضع إلى شبه يأس من نصير في عالم القوى الدولية، على الرغم من بقايا صراع الغرب آنذاك، وعندما تلوح لحظة أمل، أو انفراج، فإنه لا يضيعها، ولا يمتهن نفسه في البحث عن عون المعرضين عنه".
لقد كان بيجوفيتش سياسيًّا داهية، ومُناضلًا عنيدًا، وفيلسوفًا حكيمًا ذا نظرة إسلامية عميقة بعيدة المدى، جعلته يتجاوز كونه مجرد رئيس مُسلم، ليُعد وبحق زعيمًا للأوروبيين المسلمين، يعمل مع جنود الإسلام العاملين على نهوضهم وتخليصهم من التخلف والركود.

عامل مساعد على التركيز، وبطؤها هو النقص الوحيد فيها، لكن ميزتها المهمة هي أنها تحفظ الفكر، فالأفكار سريعة الهروب، لذا كانت الطريقة لاقتناصها بالكتابة".

وليُعلم أن إثمار الكتابة الجيدة من حيث الشهرة والصيت والمعرفة والانتشار ليس ضرورة، كان د. **محمود الطناحي** (١٩٣٥: ١٩٩٩م) يقول: "حظوظ الكتب كحظوظ الناس، يصيبها ما يصيبهم من الذيوع أو الخمول"، فكثير من الكُتَّاب ماتوا وهم مغمورون لا يعرفهم أحد، ولم يشتهروا بين الناس إلا بعد وفاتهم بسنوات طويلة، وبعضهم لم يشتهر أصلًا لا قبل ولا بعد، بل ظلوا ممن يُعرفون بين النُخب والمتخصصين لا أكثر، على الرغم من جودة كتاباتهم ورصانتها! نذكر منهم على سبيل المثال - لا الحصر - الأديب الألماني الشهير **فرانز كافكا** Franz Kafka (١٨٨٣: ١٩٢٤م)، والكاتبة الألمانية **آن فرانك** Anne Frank (١٩٢٩: ١٩٤٥م)، التي لم تتجاوز عمر السادسة عشر، مؤلفة كتاب (مذكرات فتاة صغيرة)، و**هنري ديفيد ثورو** Henry David Thoreau (١٨١٧: ١٨٦٢م)؛ الفيلسوف الأمريكي الذي عُرف بكتابه (الحياة في الغابة)، الذي يصف العيش البسيط في الطبيعة، وهو نوع من المذكرات.

بل ومن أغربهم على الإطلاق الروائي الأمريكي **هيرمان ملفيل** Herman Melville (١٨١٩: ١٨٩١م)؛ مؤلف رواية (موبي ديك) الشهيرة، التي احتلت مكانةً كبرى بين كلاسيكيات الأدب العالمي، حتى عُدت من أعظم خمسين رواية في التاريخ، وتحكي قصة صراع وتحدٍّ ملحمي بين حوت وإنسان، وقد لاقت من الإهمال بعد صدورها ما جعل نفس كاتبها تمتلئ باليأس والإحباط، ليقضي بقية

حياته موظفًا في سلك الجمارك الأمريكية، ويموت مُهملًا مجهولًا في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حتى قيل إن صحيفة نيويورك تايمز نعته باسم (هنري ملفيل)، ما يعني أنه لم يكن معروفا، وغير مقدر في وقت وفاته، ولم يُنظر إلى (موبي ديك)، ولم يُلتفت إليها بصفتها رواية عظيمة إلا عام (١٩٠٧م)، ولم يُهتم بها إلا في العشرينيات، حين بدأ النقاد وأساتذة الجامعات يكتبون عنها بوصفها عملًا مدهشًا، ونظروا إلى مؤلفها بوصفه أحد من طوروا الكتابة الروائية في منتصف القرن التاسع عشر، وجعل الرواية الأمريكية تحتل مكانةً مرموقةً في تاريخ الرواية العالمية!

وهنا؛ من الأهمية بمكان أن نذكر أن "**جوائز الكتب**" التي ذاعت في العصر الحديث؛ سواء في التأليف أو الترجمة أو غير ذلك؛ ليست إلا مظهرًا من مظاهر المادية والفوضوية في المعرفة التي خلّفتها المركزية الأوربية، كما خلّف الجمود الفقهي في الحاضر الإسلامي فكرة "**الإجازة**"؛ فكلاهما لا يعدو صورًا ومظاهرَ من مظاهر احتكار المعرفة، وتوظيفها اجتماعيًا بتشكيل ما يُمكن أن نطلق عليه "**كهنة التخصص**"، حقًّا بعض نتائج هذه الأدوات وآثارها كان حقيقًا جديرًا، لكن أكثرها ليس كذلك، والحكم للغالب، وقد كان أهم آثارها على المستوى الأخلاقي والنفسي للمثقفين؛ التعالم والتعالي، وهو ما زاد من القطيعة الحادثة بينهم وبين المجتمع.

فلا غرابة أن نجد الموجهين من العلماء والأدباء يُنبهون على أن التكسب بالكتابة والأدب مفسدة لهما، فيقول **عبد الحميد الكاتب** (ت ١٣٢هـ / ٧٤٩م) في رسالته إلى الكُتّاب يقول: "وارغبوا بأنفسكم عن المطامع، سنيّها ودنيّها، ومساوئ الأمور ومحاقرها،

فإنها مفسدة للكُتَّاب"[1]، ذلك أن الكلمة أمانة ومسئوليةٌ جليلة إن وضعت في موضعها الصحيح، خطيرة إذا وضعت في غير الموضع المناسب، و**خيانة الكاتب** أن يُؤمن بالفكرة ثم يقف على الحياد منها، أن يعرف الحقيقة ثم ينكرها، نفاقًا وتملقًا، أو خوفًا وجزعًا، رغبةً ورهبةً؛ رغبةً فيما عند الناس، أو رهبةً من لوم الناس!

أحد أشهر الكتب التي تفضح وهمية "**جوائز الكتب**" كتاب (تسليح أمريكا: أصول ثقافة الأسلحة الوطنية Arming America: The Origins of a National Gun Culture)، للكاتب الأمريكي **مايكل أ. بيلسيلز** Michael A. Bellesiles حول ثقافة الأسلحة الأمريكية، وأنه لم يكن لها جذور في الحقبة الاستعمارية والوطنية المبكرة، لكنها نشأت خلال خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر في الحرب الأهلية (١٨٦١ : ١٨٦٥م)، ونادرًا ما كانت تستخدم الأسلحة قبل ذلك، وفاز بيلسيلز بجائزتين عالميتين عن عمله مرتين متتاليتين؛ الأولى قبل أن يصدر الكتاب عام ١٩٩٦م، إبان نشره مختصرًا كمقال في مجلة (Journal of American History) بجائزة المجلة، وهي إحدى أشهر المجلات التاريخية المحكمة في الولايات المتحدة، والثانية بعد صدوره عام ٢٠٠١م **بجائزة بانكروفت**[2] المرموقة، ثم اتضح بعد سنوات قليلة أن أكثر

---

(١) إحسان عباس: عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل أبي العلاء، دار الشروق (عمان)، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص ٢٨٣.

(٢) تعد من الجوائز المرموقة في مجال التاريخ، تم تأسيسها عام ١٩٤٨م بموجب وصية من المؤرخ الأمريكي د. **فريدريك بانكروفت** Bancroft Frederick (١٨٣٤ : ١٩٠٣م)، وتُمنح كل عام من قبل أمناء جامعة كولومبيا في التاريخ الأمريكي على وجه الخصوص، مع قيمة مالية قدرها عشرة آلاف دولار.

الإحصاءات التي جمعها الكاتب واستند إليها في النتائج التي بنى عليها الكتاب كاذبة منتحلة، بل ومليئة بالأخطاء الجسيمة التي تجاوزت أكثر من ٦٠٪ من مادته، وهو ما وضع مجلس الجائزة في حرج شديد اضطروا معه إلى سحبها، ومع ذلك ظل الكتاب رائجًا ذا إقبال حتى نفذت طباعته، وأُعيدت طباعته بعد عامين من طبعته الأولى التي نالت الجائزة، وأثيرت حولها المشكلات.

هذه الجوائز، وقبلها جهات النشر؛ من المفترض أنها تخضع لضوابط صارمة في تحكيم الأعمال عبر أكبر الخبراء في التخصص، وتنال أدق التقديرات؛ حتى يختم لها بالصلاحية للنشر أو الفوز بالجائزة، حتى أنها ربما فاقت في معاييرها وإجراءاتها تلك المعتبرة في بلادنا للحصول على درجات الماجستير والدكتوراه، ومع ذلك **استطاع هذا الكتاب أن ينال ما ناله من الاحتفاء والتقدير!**

وقرأتُ مرةً في كتاب حمل عنوانًا بليغًا من كتب النصائح والأفكار في القراءة والكتابة الإبداعية؛ نقدًا لاذعًا لمراجعةٍ ما، ونقدًا على الأديب الشهير **نجيب محفوظ** (١٩١١- ٢٠٠٦م)، وكان مما ضمنه الكاتب: "فنجيب محفوظ عند الجميع محصن تحصينًا منيعًا من أي انتقاد ممكن أن يواجهه، فما بالنا وإن كان حاصلًا على جائزة نوبل!"، بالطبع نجيب محفوظ عصي على النقد الأدبي، لكنه ليس محصنًا تحصينًا منيعًا بكل تأكيد، كما غيره ممن هم مثله أو أفضل منه على المستويين العربي والغربي، فأن يُتخذ من نيله جائزة نوبل حجةً على هذا التحصين المنيع لهو من التعسف الذي ربما لا يقل عما لمسه من تعسف في المراجعة التي علق عليها.

هل الكتابة موهبة فطرية أم مهارة مُكتسبة؟

يعتقد البعض أن الكتابة موهبة، ويعتقد آخرون أنها صنعة تُكتسب بالتعلُّم والمِراس، ومما لا شك فيه أن الموهبة عامل مُؤثر في الكتابة الجيدة، وكذلك الصنعة لها دور كبير لا يقل عن الموهبة، إذ الموهبة تحتاج دومًا إلى الصقل عن طريق الممارسة، ففي جميع الأحوال الكتابة تعتمد على المِران والخبرة، وبقدر ما تكون بداياتها صعبة بقدر ما تهون مع الوقت، حتى تُصبح أسهل وأمتع وأكثر حيوية وأهمية في حياة الكاتب.

ولذلك؛ فالدراسة النظامية في الغرب تهتم بصقل هذه الموهبة، وتعليم هذه الصنعة، حيث يعتمد التعليم على الوِرش الجماعية، وتقليل ساعات الدراسة لحساب الوقت المُخصص للبحث، وتنمية مهارات العرض والقراءة والكتابة، والواجبات والاختبارات تدور دومًا حول زيادة مهارات الدارسين في البحث والقراءة والكتابة والنقد والتقييم والقُدرة على التعبير، من خلال الإلزام بشرح المفاهيم، وتلخيص الكُتب، وتحرير المقالات والأوراق البحثية، واختصارها وتقييمها، أيًا ما كانت صعوبة المادة العلمية المُلقاة أو عُمقها، وعلى سبيل المثال؛ كان لي تجربة شخصية في كلية الحقوق في جامعة ييل Yale الأمريكية لبرنامج تدريبي مدته ثلاثة أشهر في القانون الدستوري Constitutional Law، وعلى الرغم من صعوبة المادة العلمية في هذا البرنامج؛ كانت الواجبات والاختبارات فيها تعتمد بشكل كُلي تقريبًا على تحرير مقالات مُختصرة أسبوعية، وتقييم المُتدربين لأعمال بعضهم، ولم

يكن الأمر من السهولة بمكان، فإن أكثر المُتدربين لم يستطع إكمال الدورة؛ لكثرة التكاليف وصعوبتها، لاسيّما مع التخصص[١].

ومن أبدع المشروعات العلمية الثقافية الشبابية التي نشأت في الغرب بمجهود ذاتي لبعض الأفراد مشروع National 826، وهو عبارة عن برنامج أدبي شبابي، أسسه الكاتب الأمريكي **ديف إيجرز** Dave Eggers (١٩٧٠: -) مع بعض المتطوعين في سان فرانسيسكو عام ٢٠٠٢م؛ بهدف تنمية المهارات الأدبية ومهارات الكتابة الإبداعية عند الأطفال والشباب الذين تتراوح أعمارهم ما

(١) كما أن من أهم ما يُميز النظام التعليمي الغربي الصرامة والحسم والدقة في المواعيد والإجراءات، فلا مجال لأي استثناءات أو خروج على القواعد الإجرائية، إلا ما نظمه القانون بنصوص خاصة، وفي أضيق الحدود، فضلًا عن توافر الوسائل وأدوات التعليم المتقدمة المخصصة لمساعدة الدارسين، كالمكتبات والأجهزة والبرامج الإلكترونية، وتوافر الإرشادات والتعليمات التي تُساعد الطالب على معرفة كل ما يتعلق بدراستهم وحقوقهم التعليمية، وعدد ساعات الدراسة، والمناهج الدراسية، إلى غير ذلك من أمور إدارية، بالإضافة إلى الدعم والمساعدة المباشرة من الموظفين والمسئولين، وللبعض أن يعجب من سرعة ودقة الردود على مراسلات ومُكاتبات الدارسين والباحثين على كثرتهم.
كما أنه يلتزم بمعايير نفسية في غاية الدقة، سواء من حيث مدد الدروس، وأزمنة الامتحانات، والفواصل الزمنية بين الدروس والامتحانات - وعلى سبيل المثال فمدة الدرس غالبًا ما تكون في حدود ثلاثين دقيقة، إذ تُثبت الدراسات الحديثة أن تركيز الأشخاص البالغين يتواصل مدة خمسين دقيقة فقط - أو من حيث سد فجوات التمييز بين الدارسين؛ بناء على اللون أو الجنس أو المركز الاجتماعي، مع ملاحظة أن القدرة المالية أمر ضروري وحتمي لمن أراد الالتحاق بهذا النظام التعليمي، أو استكمال دراسته فيه، فهي مكلفة جدًا حتى مع إمكانية الاستفادة من بعض المنح.
فلا غرابة بعد ذلك أن يوجد مثل اللهث التعليمي العالمي نحو النظام التعليمي الأمريكي، حيث يستقطب نحو ٣٠٪ من طلاب العالم سنويًا، وهو ما يُتيح فرصة لهذا النظام لانتقاء نوابغ الدارسين من بين المتقدمين من كل أنحاء العالم؛ لتحقيق أهداف تعليمية واجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة، وهو ما أدى بدوره إلى احتلال هذه الجامعات مركز الصدارة بين الوجهات الدراسية الأخرى، إذ ملكت أفضل الأساتذة والطلاب من كل دول العالم.

بين ستة إلى ثمانية عشر عامًا من خلال فصول دراسية، تُعقد مجانًا بعد اليوم الدراسي، أو في العطلات؛ في بعض المحلات والمخازن المهجورة والمخيمات الصيفية.

الغريب في الأمر أن هذا البرنامج، وخلال أعوام قليلة جدًا؛ استطاع أن يضم أكثر من خمسة آلاف متطوع من الكُتاب والشعراء والمُعلمين وصانعي الأفلام الوثائقية، وانتشرت فروعه في ولايات أمريكية عديدة؛ مثل بروكلين، نيويورك، لوس أنجلوس، شيكاغو، سياتل، ميشيغان، بوسطن، واشنطن، وغيرها، وهو يُخرج نحو ثلاثين ألف طالب سنويًا يُتقنون مهارة الكتابة، وما يلحق بها من مهارات في سن مبكرة، كما أنشأ فصولًا خاصة بدعم المُعلمين، وتنمية مهاراتهم التعليمية من خلال أشهر الكُتاب والمُتخصصين، ونشر عشرات الأعمال للمُعلمين والمُتدربين، تُرجم بعضها لعشرات اللغات، وتطور أمره مؤخرًا لإعطاء بعض المنح الدراسية لبعض الطلاب في الجامعات، وفي الجملة استطاع أن يُحدث قفزة كبيرة في التعلم في الولايات التي تأسس فيها[١].

فالمهارة لا تُكتسب بمجرد معرفة حدها وماهيتها، بل بالممارسة والتمرن والمُثابرة؛ ولذلك تزيد بالقراءة الكثيرة والكتابة الكثيرة، يقول ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): "فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالّها؛ ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل"[٢]، فلا عجب أن نجد مشاهير الكُتّاب في الشرق والغرب

(1) www.826national.org.
https://cutt.ly/KEl1Qp5.

(٢) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، ج ١ ص ٧٧٥.

وقد وُصفت أعمالهم بالسطحية وعدم النضوج، ولا نجد أشهر من **شكسبير** William Shakespeare (١٥٦٤: ١٦١٦م) الذي لم تتسم أعماله في بداياته بالنضج الأدبي والفني، بل وُصفت بنية نصوصه بالسطحية وضعف الإتقان، وتركيباته الشعرية بالمتكلفة والخطابية!

فالكاتب المتمرس يجب ألا ينقطع عنهما، بحيث يكون له وِرد قراءة وكتابة يومي أو شبه يومي؛ بحسب أحواله وغزارة أفكاره، يروي الخطيب البغدادي في تاريخه: أن **محمدًا بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م) مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة[1]، أي أنه كتب أكثر من نصف مليون ورقة، وما بقي من كتبه أثارة شاهدة حاضرة على صدق ما رُوي، وكان ورد **أبو بكر الباقلاني** (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م) كل ليلة من القيام عشرين ركعة، ما تركها في سفر ولا حضر، فإذا فرغ منها كتب خمسًا وثلاثين ورقة من العلم.

ويحكي البغدادي أيضًا أن عليًا بن الحسن بن طاوس المُلقب **بأبي الحسن الواعظ المُقرئ** (ت ٤٨٤هـ) نسخ إحدى وثمانين ختمة من القرآن، ونحوًا من ثلاثين ألف ورقة، حتى أنه كان يكتب في كل يوم نحوًا من أربع كراريس[2]، ولم يكن من أهل العلم المشهورين أو

(١) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية (بيروت)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ج ٢ ص ١٦١.

(٢) المرجع السابق، ج ١٨ ص ١٨١.

ومثله من غير المشهورين أو الكُتاب المعروفين في التاريخ الإسلامي؛ **أحمد بن عبد الدايم بن نِعْمة** (ت ٦٦٨هـ)، الذي كان أعجوبة في الكتابة، حكى عنه ابن رجب الحنبلي أنه لازم الكتابة أزيد من خمسين سنة، وكان يكتب بسرعة خطًا حسنًا، حتى كتب ما لا يوصف كثرةً، وربما كتب في اليوم الكراسين والثلاثة مع اشتغاله بمصالحه، إلى التسعة أو أكثر إذا تفرغ، منها: (تاريخ دمشق) لابن عساكر، كتبه مرتين على كِبر حجمه،

الكُتّاب المعروفين.

وحكى الذهبي عن أبي المُظفر حفيد **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٣م) أنه قال: سمعت جدي على المنبر يقول: "بأصبعي هاتين كتبتُ ألفي مُجلدة"، ثم علق الذهبي: "وجد بخطه قبل موته أن تواليفه بلغت مائتين وخمسين تأليفًا"[١]، وعدها بالمُجلدات.

ويروى أن أحد فلاسفة اليونان القديمة ويُدعى **كريسبوس** Chrysippus of Soli (ت ٢٠٦ ق.م)؛ كان واسع الاطلاع كثير الكتابة، حتى أنه كان يكتب في اليوم الواحد خمسمائة سطر، فتجمع له أكثر من سبعمائة كتاب، فاق بها أفلاطون وأرسطو اللذين كانا مضرب الأمثال في عصرهما.

وقضى **كارل بروكلمان** Carl Brockelman (١٨٦٨: ١٩٥٦م) خمسين عامًا في كتابه الأثير الشهير (تاريخ الأدب العربي)، الذي قال عنه د. عبد الرحمن بدوي: "يعد المرجع الأساسي والوحيد في كل ما يتعلق بالمخطوطات العربية وأماكن وجودها"[٢]، حيث ظل يجمع كل ما كتب في الأدب العربي، ونُسخها في مكتبات العالم، فذكر فيه ما يقرب من عشرين ألف مخطوطة، مع ذكر أماكن وجودها وأرقامها.

و(المُغني) لابن قدامة كتبه مرات، و(شرح الخرقي) كتبه في ليلة واحدة، وذكر أنه كتب بيده ألفي مُجلدة.

عبد الرحمن بن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، مرجع سابق، ج ٤ ص ٩٨: ٩٩.

(١) محمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٢١ ص ٣٧٠.

(٢) عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين (بيروت)، ١٩٩٣م، ص ٩٨.

كما قضى المؤرخ الأمريكي **ول ديورانت William J. Durant** (١٨٨٥: ١٩٨١م) نحو أربعين عامًا في تأليف كتابه (قصة الحضارة)، وكتاباه (قصة الحضارة) و(قصة الفلسفة) من كتب السهل الممتنع، وسر سهولة هذين الكتابين أن أصلهما محاضرات في الفلسفة والأدب بدأ في إلقائها عام ١٩١٤م في الكنيسة المسيحية في نيويورك وكان أغلب الحاضرين من العمال والعاملات الذين استلزم الشرح لهم الوضوح التام وربط ما يُقال بالحوادث الجارية.

وفي المكتبة العربية كتاب (دولة الإسلام في الأندلس) للمؤرخ المصري الشهير **محمد عبد الله عنان** (١٨٩٦: ١٩٨٦م) الذي تجاوز أربعة آلاف صفحة؛ استغرق تأليفه نحو خمسة وعشرين عامًا، وسافر المؤلف من أجله إسبانيا والمغرب عدة رحلات بلغت ست عشرة رحلة تعلّم في خلالها الإسبانية ليتمكن من مواصلة بحثه بكفاءة[1].

ولم تكن هذه عادة غريبة عن العلماء إبان الحضارة الإسلامية، فكثير منهم طالت بهم الأزمان في التأليف، كما حدث **للبخاري** (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) في (الجامع الصحيح)، **وابن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) في (فتح الباري) الذي قيل إنه ألفه في نحو ثلاثين عامًا.

ورغم أن هذا هو الغالب في الكتابات العظيمة، فليس ذلك قانونًا عامًا بالطبع، فبعض الكتب الخالدة أُلف في زمن وجيز وهو ما يمكن أن نعتبره أمرًا خارقًا للعادة في الكتابة والتأليف، من ذلك

---

(١) جدير بالذكر أن عنان ترك من أجل البحث والتأليف والكتابة الصحفية العمل في النيابة العامة والإدارة مكتفيًا بالعمل في المحاماة، ثم ما لبث أن ترك المحاماة أيضًا لما حال العمل فيها دون مواصلة مسيرته بجدية في البحث والتأليف والكتابة.

كتاب (نظام الحكومة النبوية) المعروف بـ (التراتيب الإدارية) **لعبد الحي الكتاني** (١٨٨٤: ١٩٦٢م) الذي استغرق في تأليفه أربعة أشهر فحسب كما ذكر في مقدمته، وهو مما تفنى فيه الأعمار!

يقول **ستيفن كينج** Stephen King (١٩٤٧م: -): "إذا أردت أن تصبح كاتبًا؛ عليك القيام بأمرين قبل كل شيء: اقرأ كثيرًا واكتب كثيرًا"، ولذلك نرى الكتابات الأولى لأي كاتب ليست بجودة كتاباته الأخيرة، وأكثر الكُتَّاب غير راضٍ عن كتاباته الأولى؛ لأن الكتابة تزيد في رصانتها وقوتها وجودتها بالممارسة.

وفي هذا السياق أيضًا؛ يُفضل أن يحافظ الكاتب على تدوين تجاربه ومُذكراته الخاصة، وكم أثرى الفكر ورفعت الهمم مذكرات الكُتَّاب ويومياتهم، حتى فاقت في بعض الأحيان مؤلفاتهم في القيمة.

ويجب أن يكون الكاتب مستعدًّا دومًا لتدوين أفكاره، فالقلم والورقة لا يغيبان عنه حتى وهو مُقبل على النوم، وقد نقل بعض أصحاب **البخاري** (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) عنه أنه ربما استيقظ من نومه قريبًا من عشرين مرة في الليلة الواحدة، فيُوقدُ السراجَ، ويكتب الفائدة تمر بخاطره، ثم يُطفئُ سِراجَه، ثم يقوم مرةً أخرى وأخرى، وحكى الربيع المُرادي عن فاطمة بنت **الشافعي** (ت ٢٠٤هـ / ٨٢٠م) قالت: "أسرجتُ لأبي في ليلة سبعين مرةً"، وكان **عباس العقاد** (١٨٨٩: ١٩٦٤م) يستيقظ في نصف الليل، فيدون بعض أفكاره في قصاصات ورقية يحتفظ بها تحت وسادته، وكذلك يُحكى أن **أينشتاين** (١٨٧٩: ١٩٥٥م) لما مات وُجدت تحت رأسه بعض قصاصات ورقية بها بعض المسائل الرياضية، وكذلك **خير**

الدين الزِّرِكْلي (١٨٩٣: ١٩٧٦م) لما مات وُجدت تحت وسادته قصاصات ورقية، بها بعض الإضافات والتقييدات حول كتابه (الأعلام).

ومن الأمور التي تساعد على تنمية هذه المهارة؛ الاختلاط بالكُتاب والمُفكرين، ومعرفة تجاربهم الشخصية، وطريقة اشتغالهم، وأسباب تأليفهم للكُتب، والمعوقات التي اعترضتهم، وكيفية تغلبهم عليها، وكيف تعاطوا مع الواقع واحتياجاته.

والكاتب الموهوب أو المُتقن هو الذي يستطيع فعليًا تقييم أعماله، لذلك فهو لا يرضى في الغالب عنها مهما بلغت جودتها، أما الكاتب غير الموهوب أو المُتقن فلا يتمتع بهذه القُدرة، بل ينخدع برواج كاذب لكتاباته، كما إذا كانت المادة التي يُقدمها تخدم **فئات معينة** أو أغراض خاصة، ولا تتكشف له الحقيقة إلا من خلال "صدمة"، وكما تقول أستاذة الأدب الإنجليزي **ماري كار Mary Karr** (١٩٥٥: -)[١]: "أغلب الكُتاب العظماء يُعانون، وليس لديهم أي فكرة إلى أي مدى هم رائعون، أما الكُتاب السيئون فهم واثقون جدًا في أنفسهم"[٢].

يحكي د. عبد الكريم بكار عن أحد الأدباء المشهورين أنه جاء حزينًا يجرُّ أذيال الأسف يومًا من الأيام إلى أحد أعز أصدقائه، وأهل

---

(١) أستاذة أدب إنجليزي في جامعة سيراكوز بالولايات المتحدة، نالت العديد من الجوائز الأدبية، إلا أن شهرتها لم تتحقق إلا في عام ١٩٩٥م، مع نشر مذكراتها التي كانت الأكثر مبيعًا تحت عنوان (نادي الكذابين).

(٢) ماري كار: لماذا نكتب؟، تحرير: ميريدث ماران، ترجمة: مجموعة من المترجمين، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص ٤٩.

سرّه الذين يُفضي إليهم بما لا يبوحُ به لغيرهم، فقال له صديقه: ما لي أراك حزينًا كئيبًا؟! فقال له: هل تصدّق يا أخي أنني بعد عشر سنوات من الكتابة الاحترافية في محافل الأدب ونشر المقالات وتسويد الورقات على صفحات الصحف والمجلات اكتشفتُ أخيرًا أنني لا أصلح للكتابة على الإطلاق؟! فقال له صاحب سرّه وقد تعجب: وماذا تنوي أن تصنعَ يا سيدي؟! هل تريد التوقف عن الكتابة؟! فقال له الأديب المشهور: لا طبعًا، كيف وقد أصبحت مشهورًا كما ترى؟!

وهذه حقيقة فربما تكون الشهرة في الكتابة - كغيرها من المهن والوظائف - لأسباب خارجة عن الكتابة نفسها، بغض النظر عن جودة المادة المكتوبة، والأيام وحدها تكشف حقيقة هذه الشهرة، أذكر هنا **شوبنهاور** Arthur Schopenhauer (١٧٨٨: ١٨٦٠م) الفيلسوف الشهير الذي قال عن نفسه إن كتابه الفلسفي الأول (العالم كإرادة وتصور) نُشر تحت وطأة شهرة أمه **يوهانا** Johanna Schopenhauer (١٧٦٦: ١٨٣٨م) الروائية الشهيرة في عشرينيات القرن التاسع عشر، والتي وجدتْ كتبَه غير مفهومة فقالت له أنه في الغالب لن يجد أي شخص يشتري نسخة منها، فما كان منه إلا أن رد عليها بأن الناس سيقرأون أعماله بعد فترة طويلة من نسيان "القمامة" التي كتبتها أمه! وقد حدث هذا بالفعل، فسرعان ما اكتسبت يوهانا شهرتها لاحقًا من شهرة أرثر شوبنهاور.

وهل يلزم أن يكون الكاتب مفكرًا أو عالمًا مجتهدًا؟

في الحقيقة لا تلازم بين الكتابة والاجتهاد البتة، فالنبي صلى الله عليه وسلم وكثير من الصحابة الكرام كانوا أُميين لا يُحسنون القراءة والكتابة، ومع ذلك فهم أعلم الناس وأفقههم بلا ريب، وكثير ممن

يُحسنون القراءة والكتابة في هذا الزمان لا يُدركون إلا فنهم الذي **تخصصوا** فيه، أو الموضوعات التي يجيدون البحث فيها والكتابة **عنها**، ربما ثقافتهم ليست كبيرة، لكنهم يمتلكون قدرة جيدة على **البحث** واستقصاء أطراف الموضوع الذي يكتبون فيه.

وهل يلزم أن يكتب في سنٍّ مُعينة؟

ذكر بعض العلماء والمُفكرين أن حد التأليف أربعون عامًا، واستدلوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُبعث إلا في الأربعين، وذكروا بعض النماذج كأحمد بن حنبل، وأنه لم يُصنف إلا بعد الأربعين، يقول **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٣م): "وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأن أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال[١] الحواس، وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره، وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة؛ لأنه لا يعلم الغيب، فيكون زمان الطلب والحظ والتشاغل إلى الأربعين، ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم، هذا إذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ، وأُعين على تحصيل المطالب، فأما إذا قلت الآلات عنده من الكتب، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب، فلم ينل ما يريده في هذا الأوان؛ أخَّر التصانيف إلى تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين، ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم، ويُسمع الحديث والعلم، ويعلق التصانيف إلى رأس السبعين، فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة، والتهيؤ للرحيل، فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليم يحتسبه، أو تصنيف يفتقر إليه، فذلك

(١) أي التعب والوهن.

أشرف العدد للآخرة، ولتكن همته في تنظيف نفسه، وتهذيب خلاله، والمبالغة في استدراك زلاته، فإن اختُطف في خلال ما ذكرنا فنيّة المؤمن خيرٌ من عمله"[١].

غير أن هذا الرأي محل نظر من أكثر من وجه، فإن الأعمار قد لا تُمهل الإنسان، والعبرة ليست بتحصيل الأجر والنية فيه فحسب، بل بإعمار الأرض وإصلاح حال الناس، والنية لا تُقيم أمةً، ولا تُصلح مُجتمعًا، فوحدها لا تكفي لإعمار الأرض، كما أن طبيعة الهمم الفتور مع تقدم العمر.

والعلوم لا تُقاس بالأعمار ولا الأشبار، ولا عِظم الأجسام أو رِفعة المقام، لكن الله يُؤتيها من يشاء، وقد كان علي بن المديني يقول: "إن العلم ليس بالسِّنّ"[٢].

وإن كبيرَ القومِ لا علمَ عندَه
صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه الجحافلُ
وإن صغيرَ القومِ إن كانَ عالمًا
كبيرٌ إذا ردت إليه المحافلُ

يقول ابن شهاب الزُّهْري: كان مجلس عمر مُغتصًّا بالقراء؛ شبابًا كانوا أو كهولًا، فربما استشارهم، فيقول: "لا يمنع أحدًا منكم حداثة سنه أن يشير برأيه، فإن العلم ليس على حداثة السن ولا قدمه،

(١) أبو الفرج الجوزي: صيد الخاطر، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٢) محمد بن مُفلح الحنبلي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، تحقيق: شعيب الأرناءوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج ٢ ص ١١١.

ولكن الله يضعه حيث شاء»[1].

عبد الله بن المُقَفَّع (ت ١٤٢هـ / ٧٥٩م) أمير الخطابة والفصاحة والبيان، و**سِيبَوَيْه** (ت ١٨٠هـ / ٧٩٦م) سيد اللغة العربية بلا مُنازع، ومضرب المثل فيها، و**أبو تَمَّام الطَّائي** (ت ٢٣١هـ / ٨٤٥م) الشاعر العَلَم، كلهم وافته المنية ولم يبلغ الأربعين أو يقترب منها، فانظر كيف لم يُؤثر قِصر أعمارهم في بلوغهم غاية ما كانوا فيه.

لذلك صنف كثير من العلماء والأُدباء في ريعان شبابهم، وفي أثناء طلبهم للعلم، **كالبخاري** (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) الذي صنف وهو ابن ثمانية عشر عامًا، وصنف **أبو البركات بن تيمية** (ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) كتاب (جنة الناظر) وهو ابن ستة عشر عامًا، **وابن عبد الهادي** (ت ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م)، **وابن قيم الجوزية** (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، ويُذكر أن **السيوطي** (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) صنف كتابًا وهو دون التاسعة من عمره، وألَّف (التحبير في علم التفسير) وهو ابن ثلاثة وعشرين عامًا.

وبدأ **محمود بن عبد الله الألوسي** (١٨٠٣: ١٨٥٤م) صاحب تفسير (روح المعاني) يُصنف وهو ابن ثلاثة عشر عامًا، **وعبد الحي اللكنوي** (١٨٤٨: ١٨٨٦م) علامة الهند الذي توفي وهو دون الأربعين، **ومحمد بهجة الأثري** (١٩٠٤: ١٩٩٦م)؛ صنفا وهما في بضعة عشر عامًا.

---

(١) عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المصنف، المكتب الإسلامي (بيروت) عن المجلس العلمي (الهند)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، ج ١١ ص ٤٤٠.

وعبد الله القَرعاوي طلب من تلميذه **حافظ الحكمي** (١٩٢٤: ١٩٥٨م) تصنيف كتاب في العقيدة وهو ابن تسعة عشر عامًا، فكتب (سلم الوصول إلى علم الأصول)، ثم شرحه في (معارج القبول بشرح سلم الوصول)، ولو أنه تمهل في التأليف حتى سن الأربعين لما أسعفه عُمره لكتابة شيء يُذكر، إذ مات وهو ابن أقل من خمسة وثلاثين عامًا، مُخلفًا نحو خمسة عشر كتابًا في أصول العلوم الشرعية، والفضل في هذا يعود إلى نباهة أستاذه الذي أدرك همته ونبوغه في التحصيل والتأليف والتعليم.

وصنف **محمد الأمين الشنقيطي** (١٩٠٥: ١٩٧٤م) كتاب (خالص الجمان في أنساب العرب) قبل البلوغ، و**الألباني** (١٩١٤: ١٩٩٩م) صنف كذلك في بداية طلبه للعلم، وغير مَن تقدموا كثيرون.

إنْ تَحْتَقِرْ صغرًا فربَّ مُفخَّم
يبدو ضئيلَ الشَّخْصِ للنُّظَّارِ
إنَّ الكواكِبَ في عُلُوِّ مَحِلِّها
لَتُرى صِغَارًا وهي غيرُ صِغَارِ

وفي المقابل كتب بعض المؤلفين في سن متأخرة جدًا وأجادوا، ولعل من أهمهم في السياق الغربي؛ الإنجليزية **بينيلوبي فيتزجيرالد** Penelope Fitzgerald (١٩١٦: ٢٠٠٠م) المصنَّفة كواحدة من أعظم روائيي القرن العشرين، حيث بدأت الكتابة في سن الستين، واستطاعت أن تنجز نحو اثني عشر كتابًا أدبيًا صُنِّف بعضها كأفضل الكتب وأكثرها مبيعًا!

والأمر في جميع الأحوال مرهون بالقُدرة على الفهم والحفظ، وتحصيل العلم فيما يكتب فيه الكاتب من ناحية، وحسن الموضوع

وجودة العبارة والصياغة من ناحية أخرى، وبطبيعة الحال فإن هذه القدرة ليست من السهولة بمكان.

والذي أميل إليه ألا يكبت الكاتب إذا كان في مقتبل عمره - سواء كان موهوبًا أو طموحًا لا يستطيع مقاومة رغبته في التأليف - موهبته أو طموحه في الكتابة، مع عدم التسرع في النشر، وبعبارة أخرى السؤال الذي يجب أن يكون؛ ليس حول الكتابة، إنما حول النشر، فالزمن هو الذي سيقرر صلاحية المكتوب للخروج للنور، من مدة قريبة - وقد تجاوزت الأربعين بسنوات قليلة - ومع ضيق الوقت وكثرة الآمال؛ كنت أحاول تقليل الأوراق المكدسة عندي، المليئة بالملاحظات والتعقيبات والأفكار التي قمت بتدوينها في مقتبل شبابي؛ لا أذكر في بداية العشرينيات أو قبل ذلك بقليل، لكني أذكر جيدًا ذلك العنفوان الشديد الذي كان لدي بشأن فعل الكتابة، لقد عادت بي هذه الأوراق إلى تلك الأيام الخوالي التي كتبتها فيها، وأكاد لا أستطيع أن أتوقف من الضحك على هذه السذاجة الكتابية التي كنت فيها، ولا أن أتجاهل هذا الشعور المضاعف بالأسى على ما ضاع من عمري في كتابة هذه الأوراق، لكني مقتنع تمامًا بأنها كانت سنوات جيدة للتدرب على الكتابة، والتمكن من أدواتها بجدية؛ فالموهبة لا يمكن أن تنمو إلا بصقل الممارسة، حقًّا تمكنتُ من أدوات مهمة في الكتابة؛ كتبسيط العبارة، وتحقيق النصوص، وتخريج الآثار والأخبار، وقراءة التراث ونحو ذلك، لكن ظل السؤال الذي أبحث له عن إجابة؛ هل كان ذلك يستحق تلك السنوات وما تحمله من شغف الشباب ونهمه؟!

دوافع الكتابة

الكتابة ليست بالأمر البسيط أو الأمر الهين، بل تحتاج إلى إرادة قوية تدفع صاحبها إلى التعبير عن فكره بقوة، وقد ظفر تاريخنا الإسلامي بنماذج لكُتّاب تعجز العقول عن إدراك مبلغ هممهم في التأليف، حتى أن هذه الهمة حملتهم على إنجاز ما لا يُمكن تصوره، **فالشافعي** (ت ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م) الذي نشأ يتيمًا فقيرًا، يقول عن نفسه: "لم يكن لي مال، وكنت أطلب العلم في الحداثة، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به قراطيس - أي أوراق - فكنتُ إذا رأيتُ عظمًا يلوح آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديمًا".

وحكى الخطيب البغدادي في تاريخه أن **محمدًا بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م) قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحوًا مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ما أجابوا، فقال: إنا لله، ماتت الهمم[١].

أما **أبو عبد الله الحسين بن أحمد البيهقي** (ت ٥٣٦هـ)، وهو كاتب غير مشهور ولا معروف إلا لدى المُحققين المُتخصصين من

---

(١) أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مرجع سابق، ج ٢ ص ١٦١.

طلبة العلم؛ وكان قاضيًا وعالمًا من تلاميذ البيهقي صاحب السنن المشهور، يقول عنه تلميذه السمعاني: "واتّفق أن لحقته علّة الدم، فقطعت أصابعه العشر، ولم يبق له إلا الكفّان فحسب، ومع هذا كان يأخذ القلم بكفيه، ويضع الكاغَد على الأرض، ويُمسكه برجل، ويكتب بكفيه خطًّا حسنًا مقروءًا مُبينًا، وربما كان يكتب في كل يوم خمس طاقات من الكاغَد، وهذا من عجيب ما رأيته!"[١].

ومن أعجبهم **ابن تيمية** (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م)، الذي يقول عنه أخص تلاميذه ابن قيم الجوزية: "وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سُننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جُمعة[٢] وأكثر"[٣]، إذ كان ذا همة عالية لا تكاد تشبع من البحث والكتابة والتأليف، حتى أنه لم ينقطع عن ذلك طيلة حياته في الشام أو في مصر، في حال الحُرية أو في السجن، بل لم يرو عنه أنه توجع ألمًا في إيذاء أوذيه كمثل ما توجع حينما سلبوه كتبه وأوراقه في آخر حياته.

وتكرر هذا في العصر الحديث مع **محمد الخضر حسين** (١٨٧٦: ١٩٥٨م) شيخ الأزهر، الذي اعتقل في زمن طاغية الشام أحمد جمال باشا عام (١٩١٦م)، ومنعوه الأقلام والأوراق والكتب،

---

(١) عبد الكريم بن محمد السمعاني: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني، تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر، دار عالم الكتب (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ٦٨٨.

(٢) أي أسبوع.

(٣) ابن قيم الجوزية: الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث (القاهرة)، الطبعة الثالثة ١٩٩٩م، ص ٧٧.

فلم يحز في نفسه إلا منعه القراءة والكتابة، وفي ذلك أنشد الأبيات:

غلّ ذا الحبس يدي عن قلم
كان لا يصحو عن الطرس فناما
هل يذود الغمص من مقلته
أو يلاقي بعده الموت الزؤاما
أنا لولا همة تحدوا إلى
خدمة الإسلام آثرت الحماما
ليست الدنيا وما يقسم من
زهرها إلا سرابًا أو جهاما

فهذا النهم في الحقيقة؛ لا يُمكن تفسير دوافعه النفسية في بعض الأحيان، بل في كثير منها، فكثير من الكُتَّاب يكتبون بالأساس لإثبات أفكارهم، وترويجها، والدفاع عنها، وإقناع الآخرين بها، وربما لجأوا إلى الكذب والتزوير والتلفيق لإثبات وجهة نظرهم، وحدث هذا، لا أقول مع أسماء مغمورة أو في كتب مطمورة؛ بل فعله كبار الكُتَّاب وفي أشهر الكتب!

وليس **توماس إدوارد لورانس** T. E. Lawrence المُلقب بلورانس العرب (١٨٨٨: ١٩٣٥م) عنا ببعيد، وهو صاحب كتاب من أشهر الكُتب التي صدرت في منتصف القرن العشرين، وهو كتاب (أعمدة الحكمة السبعة Seven Pillars of Wisdom)، وقد ذاع صيته، واشتهر كتابه شهرةً كبيرةً، حتى عُد قمة الأدب الكلاسيكي، حيث يحكي رحلة ضابط إنجليزي داخل الصحراء العربية في أثناء الحرب العالمية الأولى، يقوم بمهمة تجنيد القبائل العربية ضد الدولة العثمانية، ويحكي قصصًا مثيرة تعكس صورة الشخصية العربية، لكن

لورانس صارح بعض أصدقائه قبل موته بأنه إنما كتب هذه المذكرات فقط ليكشف القناع عن حقيقة القصص والأشياء، أي كيف تُخترع وتُلفق، واشتهر عنه أنه قال لأحدهم: "إن كتابي بُني على أكاذيب، ولأنني أصبحت بطلًا أسطوريًا؛ كان من الضروري أن أعيش هذه الأسطورة"، وهو ما دعا **ونستون تشرشل** نفسه أن يقول: "ليس هناك في هذا الكتاب من أثر بالغ.. كل ما فيه مبالغ فيه وشخصي، وقد كتب في ظروف لا يستطيع الإنسان - كما يبدو - أن يعيشها".

ويُذَكرنا **بيتر تشارلز هوفر** Peter Charles Hoffer في كتابه (تناقضات المؤرخين The Historians Paradox) باحتيال مؤلف آخر شهير؛ هو **وودرو ويلسون** Woodrow Wilson (١٨٥٦: ١٩٢٤م)؛ الذي كان أستاذًا جامعيًّا مرموقًا، ثم صار رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية؛ فإن ويلسون في كتابه (Division and Reunion) الصادر عام ١٨٩٣م - والذي عُد أحد أهم الكتب الجامعية المنهجية لتدريس تاريخ الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر وأواخره - وصفَ أمريكا الشمالية بأنها برية شاسعة، تغطيها الغابات المتشابكة، وبقناعة عجيبة يُصر ويلسون على تصوير الهنود الحمر كمجموعة وحشية أربكت بعض الأوروبيين، لكن الأنجلوسكسون لم تردعهم الوحشية البربرية؛ لأنهم كانوا يتمتعون بروح المغامرة والصلابة التي مكنتهم من سحق الهنود، ودفعهم نحو الغابات، بعد أن تملكهم الرعب من الرجل الأبيض! لكن هوفر يثير الدهشة من تلك الدعاوى، ويؤكد على عدم صدقها حسب كثير من التقارير الإنجليزية نفسها، والوثائق والروايات التاريخية التي استخدم ويلسون نفسه بعضها، فالهنود لم يخافوا الإنجليز، ولم تسحقهم بنادقهم ومدافعهم كما ادعى، إنما قضت على ٩٠٪ منهم الأمراضُ

الخطيرة والأوبئة التي جاء بها الأوروبيون، ولم يكن لديهم الحصانة نفسها التي كان لدى الأخيرين منها والعلاجات التي حظوا بها[١]! ثم يخلص هوفر بأن حقائق ويلسون ما هي إلا محض أكاذيب؛ لتبرير رحيل السكان الأصليين، وانتصار الجنس الأبيض!

ويُمكن أن نسأل أنفسنا سؤالًا؛ ألم يعِ هؤلاء الكُتّاب الكبار! فضلًا بالطبع عمن هم دونهم في الشهرة والصيت؟! أنهم معرَّضون لاكتشاف ما فعلوه من الانتحال والكذب والتلفيق؟! ألم يخشوا أن يُسجل التاريخ عليهم الفضائح مع / بدلًا من أن يُسجل لهم الإنجازات؟!

إنها **خيانة الكاتب!** لقد كانوا على وعي بذلك، وتقبلوا المخاطرة؛ لأن المكسب المحتمل في أعينهم وقتها كان يفوق في وزنه كل مخاطرة، لكنه كان قرارًا غير عقلاني بالمرة؛ لأن المكسب المحتمل حتى مع تحققه لن يلبث أن يُسفر عن خسارة تاريخية كبيرة بجميع المقاييس، كفيلة بأن تمحو كل أثر للمكسب، فالمكسب والخسارة اللحظيان، كالمدح والقدح؛ لا يتركان إلا أثرًا مؤقتًا سرعان ما يزول بتعاقب الأيام، والكَيِّس من فطن لذلك، فلم يغره مكسب أو مدح، أو تثبطه خسارة أو قدح.

وعلى الرغم من هذه الدوافع الموجهة في التأليف؛ يبقى أن

---

(١) بيتر تشارلز هوفر: تناقضات المؤرخين: دراسة التاريخ في زماننا، ترجمة: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة (القاهرة)، الطبعة الأولى ٢٠١٣م، ص ١٦٥: ١٦٦.

لا أُبالغ إذا قلت إن هذه أسوأ ترجمة اطلعت عليها لكتاب أجنبي، فالترجمة أساءت كثيرًا للكتاب، وأضاعت جزءًا كبيرًا من مادته، وأهدرت قيمته الكبيرة، حتى أنه يُمكن استخدامها كنموذج صارخ فيما يُمكن تسميته **"فضائح الترجمة"**.

عددًا من الكُتّاب المتمرسين يَكتب لا لشيء إلا أنهم لا يُجيدون سوى ذلك، أو لأنهم غير قادرين على ألا يفعلوا ذلك، أو لأنهم يستمتعون بذلك كما يستمتع غيرهم بالمال أو الطعام أو التنزه أو السفر، وهو جوهر الفكرة التي تكلمت عنها منذ قليل؛ من أن كثيرًا من النهم في الكتابة لا يُمكن تفسير دوافعه النفسية!

وفي ذلك حكى لي د. **محمد يوسف عدس** (١٩٣٤: ٢٠١٧م): "لطبيعة التأمل التي صاحبتني منذ الطفولة، ولكثرة القراءة، والرغبة العارمة في التعبير عن نفسي؛ لم أجد غير الكتابة للتنفيس عما يدور في عقلي، فكنت أكتب لنفسي أولًا، ثم أنظر فيما كتبت، فأُقِرُّ بعضه، وأُنَحّي بعضه الآخر، فإذا اطمأن عقلي إلى شيء مما كتبت؛ ينتابني هاجس الرغبة الملِحَّة ألا أحبسه عن الآخرين، لعله يكون سببًا في إثراء حياتهم، أو تصحيح بعض مواقفهم، وقد يُغنيهم عن تكرار أخطاء وقعتُ فيها.. لكني اكتشفت في مرحلة متأخرة نسبيًّا أن الكتابة - في حد ذاتها - متعة لا تقل عن متعة القراءة، كانت ولا تزال، وتلك نعمة من نعم الله تستوجب الشكر، فبالنسبة لي أشعر أنني أحصل - تلقائيًّا - على جائزتي بمجرد الكتابة".

وقريب من هذا ما حكاه **ابن تغري بردي** (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) في مقدمة كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) في سبب تأليفه: "ولم أقل كمقالة الغير إنني مستدعى إلى ذلك من أمير أو سلطان، ولا مطَّلب به من الأصدقاء والإخوان؛ بل ألَّفته لنفسي، وأينعته بباسقات غرسي؛ ليكون لي في الوحدة جليسًا، وبين

الجلساء مسامرًا وأنيسًا"[1].

وفي جميع الأحوال؛ تظل الكتابة مهارة معقدة، تجمع بين الفكرة الجيدة والإيمان بها والقُدرة على التعبير؛ فكرة أحسن الكاتب اختيارها، وآمن بها، وأجاد التعبير عنها، فإذا أجاد التعبير عن فكرة سيئة خرج الكلام أحط ما يكون، وإذا لم يُحسن التعبير عن فكرة جيدة آمن بها خرج الكلام أشوه ما يكون، وإذا أحسن التعبير عن فكرة جيدة لم يُؤمن بها خرج الكلام أضعف ما يكون، ولكل ما تقدم مراتب؛ فالجودة لها مراتب، وللانحطاط مراتب، وللتشويه مراتب، وللضعف مراتب.

وأهم هذه العناصر هو عنصر الإيمان بالفكرة، فالأفكار لا تنضب، ومصادرها لا تجف، لكن الإيمان بها هو الذي يخلق أسباب قبولها في الناس، فكم من كتب أُلِّفت، وكم من مقالات كُتبت، ثم ماتت بموت أصحابها، بل دخلت القبور قبل دخولهم فيها!

وعلى النقيض؛ فلا زال التاريخ يحفل بكُتَّاب وراهم التراب من قرون، لكن كلماتهم بقيت تقتات قلوب الأحياء كما قال **سيد قطب** (١٩٠٦: ١٩٦٦م)، بقيت كالشموع تُضيء للناس عتمة ليلهم، وكالمصابيح تُنير لهم دروبهم.

الإيمان بالفكرة هو الذي صنع الفارق بين هؤلاء وهؤلاء، وهو الذي خلق أسباب قبولها وجودتها، فالأفكار الجيدة لا تنبع - في الغالب - إلا من إيمان الكاتب بها وبنُبلها، وإلا فكم ذخر التاريخ

(١) يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية (القاهرة)، ١٩٦٣م، ص ٢.

بشرار من الكُتَّاب سخروا جُهدهم في طرح الأفكار الوضيعة، وأبى الله إلا أن تضيع جهودهم هباءً منثورًا، فاندثرت أعمالهم مع فناء أعمارهم، ولم يذكروا في التاريخ إلا بشرّ سيرةٍ، وأخبث سريرة، ولم تزل الكتابة الجيدة تدفع الكتابة الرديئة.

ولهذا السبب أخطأ من قال بأن الكاتب يجب / يمكن أن ينفصل عن أيدولوجيته، أو قراءته بعيدًا عن خلفيته الثقافية؛ فهل يمكن قراءة **دانتي** أو **جون ملتون** أو **ويليام لانغلاند** متجاهلين معتقداتهم الدينية والسياسية؟! أو هل يمكن قراءة **شكسبير** غاضين الطرف عن ملحميته؛ مهما غُلفت بالكوميديا التراجيدية؟! إن تجرد الكتَّاب عن الأيدولوجية وعن المعتقدات غير متصور إلا في ذهن السذج!

ولا تخرج مقاصد التأليف عن ثمانية كما ذكرها بعض الكُتّاب[1]، هي:

(١) اختراع معدوم لم يُسبَق إليه.

(٢) جَمع مُفتَرق مُشتت في بطون الكُتب المُختلفة.

---

(١) أول من ذكرها هو **ابن حزم الأندلسي** (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) في رسالة (التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه) المُضمنة مجموع رسائله، إذ قال: "والأنواع التي ذكرنا سبعة لا ثامن لها: وهي إما شيء لم يسبق إلى استخراجه فيستخرجه، وإما شيء ناقص فيُتممه، وإما شيء مخطئ فيُصححه، وإما شيء مُستغلق فيشرحه، وإما شيء طويل فيختصره دون أن يحذف منه شيئًا يخل حذفه إياه بغرضه، وإما شيء مُفترق فيجمعه، وإما شيء منثور فيُرتبه، ثم المُؤلفون يتفاضلون فيما عانوه من تواليفهم مما ذكرنا على قدر استيعابهم ما قصدوا، أو تقصير بعضهم عن بعض، ولكل قسط من الإحسان والفضل والشكر والأجر".

ابن حزم الأندلسي الظاهري: رسائل ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ج ٤ ص ١٠٣: ١٠٤.

(٣) تكميل ناقص في كُتب أخرى.

(٤) تفصيل مُجمل وشرح مُختصر، حتى يذهب تراكم معناه ويتضح مراده.

(٥) تهذيب مطوّل واختصاره دونما إخلال.

(٦) ترتيب مُخلَّط في موضع آخر، بتقديم بعض مادته والتأخير فيها.

(٧) تعيين مُبهم خفيّ في مسألة ما، أو موضوع ما، وكشف غموضه.

(٨) تبيين غلط وتصحيح خطأ، وهو ما اصطُلح عليه بالنقد.

وجمعها أحد الشعراء في قوله:

في سبعةٍ حصروا مقاصد العُقلا
من التآليف فاحفظها تنل أملا
أبدِعْ، تمامٌ، بيانٍ لاختصارك، في
جمعٍ، ورَتِّب، وأصلح يا أخي الخللا

وقال آخر:

ألا فاعلمنْ أن التآليف سبعةٌ
لكل لبيب في النصيحة خالصِ
فشرحٌ لإغلاقٍ وتصحيحُ مُخطِئ
وإبداعُ حَبْرٍ مُقْدِمٍ غير ناكصِ
وترتيبُ منثور وجمعُ مُفَرَّقٍ
وتقصيرُ تطويلٍ وتتميمُ ناقصِ

وليس من مقصد من هذه المقاصد إلا ويقف وراءه سبب، ورغم أن أكثر الأسباب ترجع إلى الرغبة في التيسير والاختصار، أو جمع الفوائد والقواعد والخواطر والتأملات، أو الحاجة العلمية، أو الرد على التوجهات الفكرية والعقدية، فهذه أكثر الأسباب شيوعًا، فبعض الأسباب الأخرى يكون قصة غريبة أو حكاية نادرة، لكنها خلفت عملًا عظيم الفائدة؛ الدينية أو الأدبية أو الفكرية.

بعض هذه الأسباب يرجع لرؤى ومنامات وهو ما عبّر عنه البعض بـ "السبب العرفاني"، وليس ثمة كتاب أُلف من جراء هذا السبب أشهر من (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) المعروف بـ (صحيح البخاري) **لمحمد بن إسماعيل البخاري** (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، إذ قال في تأليفه: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم كأنني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب عنه، فسألتُ عنه بعض المعبرين، فقال لي: أنت تذب عنه الكذب، فهو الذي حَملَني على إخراج الصحيح"[١].

ومن ذلك كتاب (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) **للآلوسي** (١٨٠٣/ ١٨٥٤م)، الذي قال في مقدمة تفسيره: "كانت كثيرًا ما تحدثني في القديم نفسي أن أحبس في قفص التحرير ما اصطاده الذهن بشبكة الفكر أو اختطفه بان الإلهام في جو حدسي، فأتعلل تارة بتشويش البال بضيق الحال، وأخرى بفرط الملال لسعة

(١) ابن حجر العسقلاني: تغليق التعليق على صحيح البخاري، تحقيق: سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، المكتب الإسلامي (بيروت)، ودار عمار (عمان)، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ج ٥ ص ٤٢٠.

يحيى بن شرف النووي: تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية (بيروت)، ج ١ ص ٧٤.

المجال، إلى أن رأيت في بعض ليالي الجمعة رؤية لا أعدها أضغاث أحلام ولا أحسبها خيالات أوهام؛ أن الله جل شأنه وعظم سلطانه أمرني بطي السماوات والأرض ورتق فتقهما على الطول والعرض فرفعت يدًا إلى السماء وخفضت الأخرى إلى مستقر الماء، ثم انتبهت من نومتي وأنا مستعظم رؤيتي، فجعلت أفتش لها عن تعبير فرأيت في بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير، فرددت حينئذ على النفس تعللها القديم وشرعتُ مستعينًا بالله تعالى العظيم وكأني إن شاء الله تعالى عن قريب عند إتمامه بعون عالم سري ونجواي أنادي وأقول غير مبال بتشنيع جهول: { هذا تأويل رؤياي } وكان الشروع في الليلة السادسة عشرة من شعبان المبارك من السنة المذكورة وهي السنة الرابعة والثلاثون من سني عمري جعلها الله تعالى بسني لطفه معمورة".

وبعض الأسباب ترجع لفتنة أو عداوة أو محنة وقعت للمؤلف، كما حدث **للبخاري** حين ألف كتاب (خلق أفعال العباد) حيث صنَّفه بسبب الوقيعة بينه وبين الذهلي، وكذلك **أبو حيان التوحيدي** (ت ٤١٤هـ / ١٠٢٣م) حين ألف كتاب (أخلاق الوزيرين) فقد وفد على ابن عباد الوزير فاتخذه ناسخًا، فخيب أمله في النفقة والإنعام عليه، بعدما أقام عنده نحوًا من أربع سنين[١]، حتى قال في كتابه إنه فارق ابن عباد سنة ٣٧٠هـ راجعًا إلى بغداد بغير زاد ولا راحلة ولم يعطه في مدة ثلاث سنين درهمًا واحدًا ولا ما قيمته درهم واحد!

وكتاب (لسان العرب) ألفه **ابن سينا الرئيس** (ت ٤٢٧هـ / ١٠٣٧م)، كان سبب تصنيفه أنه كان في مجلس الأمير يومًا، وقد

(١) أحمد بن حجر العسقلاني: لسان الميزان، تحقيق: د. عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، ج ٩ ص ٥٨.

امتلأ المجلس بأكابر العلماء، فتكلم ابن سينا فناظرهم وقطعهم، إلى أن جاءت مسألة في اللغة فتكلم فيها، فقال له أبو منصور اللغوي: "أنت حكيم، ولو قرأت في اللغة ما نرضى من كلامك فيها"، فوَجِد[1]، وعلق بعد هذا على كتب اللغة مدة، إلى أن صنف ثلاث رسائل وضمنها من الألفاظ الحوشية ما لا عهد به وعتقها وأرسلها مع رسول من الأمير إلى أبي منصور: أنه وجدها في الفلاة ملقاة لما كان في الصيد، فنظر فيها فوقف على أشياء، فكان كلما وقف في كلمة قال له: "هي مذكورة في الباب الفلاني من الكتاب الفلاني"، فلما فطن لذلك اعتذر إليه[2].

وكتاب (السير الكبير) الذي ألفه **محمد بن الحسن الشيباني** (ت ١٨٩هـ / ٨٠٥م) الفقيه الحنفي الشهير؛ سبب تأليفه كما نقل **السرخسي (ت ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م)** في مقدمة شرحه للكتاب؛ أن كتاب (السير الصغير) وقع في يد الأوزاعي عالم الشام، فقال: "لمن هذا الكتاب؟"، فقيل: لمحمد العراقي، فقال: "وما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب؟! فإنه لا علم لهم بالسير، ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق، فإنها مُحْدَثَةٌ فَتْحًا"، فبلغت مقالة الأوزاعي محمدًا الشيباني فغاظه ذلك، وفرغ نفسه حتى صنف (السير الكبير)، فلما نظر فيه الأوزاعي قال: "لولا ما ضمنه من الأحاديث لقلت إنه يضع العلم من عند نفسه، وإن الله عَيَّنَ جهة إصابة الجواب في رأيه، صدق الله؛ وفوق كل ذي علم عليم"، ثم طلب من الشيباني أن يكتب هذا

---

(١) حزن.

(٢) المرجع السابق، ج ٣ ص ١٧٩.

الكتاب في ستين دفترًا وأن يُحمَل على عجل إلى باب الخليفة، فلما وصل ليد الخليفة أعجب به وعده من مفاخر أيامه، فلما نظر فيه ازداد إعجابه به، ثم بعث أولاده إلى مجلس الشيباني ليسمعوه عنه[١].

وأذكر أنه أثناء دراستي القانون الخاص في جامعة القاهرة كان مما تقرر علينا كتاب جامعي متخصص لأستاذ قانون دولي هو د. عنايت عبد الحميد وكان كتابًا فذًا يحلل موضوعات القانون الدولي والعلاقات الدولية من الوجهة الإسلامية ويقارنها بنظيرتها المعاصرة، وقد اعتمد اعتمادًا كليًّا على كتاب (السير الكبير) للشيباني من خلال شرحه للسرخسي، واعتبره عمدة في هذا الباب، ثم لاحقًا قرأت لعبد الحميد بدوي أن أساتذة القانون في فرنسا في عام ١٩٣٢م تنبهوا إلى أن الشيباني هو أول من كَتب في العلاقات الدولية، وأن القانون الدولي المعاصر إنما هو محض تأصيل لما كتبه الشيباني، وأن جروتيوس الفقيه القانوني الهولندي الذي تعتبره أوروبا مؤسس القانون الدولي إنما استقى كتاباته أخذًا من كتاب (السير الكبير) للشيباني، فأنشأوا جمعية باسم الشيباني قبل أن يحذو حذوهم الألمان - بعد أن تأكدت هذه الحقيقة العلمية - ويؤسسوا بدورهم جمعية أخرى في غوتنجن بألمانيا تحمل ذات الاسم (جمعية الشيباني للقانون الدولي) على غرار (جمعية جروتيوس) البريطانية

---

(١) محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي: شرح السير الكبير، الشركة الشرقية، ١٩٧١م، ج ١ ص ٣.
غير أن الشيخ محمد أبو زهرة وغيره من المحققين لا يقبلون هذا السبب لتأليف الكتاب، بزعم أن الأوزاعي توفي عام ١٥٧هـ والشيباني ولد عام ١٣٢هـ، فيكون الأوزاعي قد توفي وعمر الشيباني خمس وعشرون سنة، ومكث محمد نحو اثنتين وثلاثين سنة لا يؤلف، فسبب التأليف لا يتفق مع تاريخ الكتاب ولا مع حياة الشيباني، ولا أجد هذا كافيًا لرد كلام السرخسي وهو أدرى بالمؤلف وعصره لقربه منه.

الشهيرة، ومن خلال هذه الجمعيات وغيرها من المؤسسات المعنية بالقانون الدولي تُرجم كتاب الشيباني للعديد من اللغات وأُجريت عليه مئات الدراسات والأبحاث، حتى أن إحدى ترجماته أصدرتها منظمة اليونسكو.

وكتاب (المهذب في المذهب) الذي هو عمدة في المذهب الشافعي، **لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الشيرازي** (ت ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م)، قيل أنه صنفه لما بلغه قول ابن الصباغ: "إذا اصطلح الشافعي وأبو حنيفة ذهب علم أبي إسحاق"[١]، يعني أن علمه هو مسائل الخلاف بينهما، فإذا اتفقا فلا علم كبير عنده، فصنف حينئذ المهذب، واستغرق منه نحو عشر سنوات، فخرج على أتم ما يكون.

وربما رجع سبب التأليف إلى تأثرات اجتماعية، مثلما حدث في كتاب (تُحفة المودود بأحكام المولود) **لابن قيم الجوزية** (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، حينما رُزق ابنه برهان الدين بمولود، وكان ابن القيم فقيرًا ليس عنده ما يكرمه به كعادة الناس في ذلك الزمان، فصنف الكتاب لأجله وأعطاه له، وقال: "أُتحفك بهذا الكتاب إذ ليس عندي شيء من الدنيا أعطيك".

ومن ذلك كتاب (المنازل والديار) **لأسامة بن منقذ** (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) الذي استغرق في صنعه ستة عشر عامًا، إذ كانت عائلته بنو منقذ عائلة مجيدة مليئة بالكبار يسكنون حصن شيزر في شمال حماة يتوارثونه زمنًا طويلًا حتى خرب بالزلزال عام ٥٥٢هـ، ومات كل من فيه من بني منقذ تحت الأنقاض، ولم ينجُ سوى أسامة

---

(١) يوسف بن إليان سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس (مصر)، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م، ج ٢ ص ١١٧٢.

وإخوته الذين كانوا خارجه في هذا الوقت، فحفزه ذلك على تأليف الكتاب وضمنه نماذج متخيرة من نوادر الشعر والأدب في الأوطان والأطلال والآثار والأهل والأحباب ونحوها، وبعض نظمه الذي لم يرد له ذكر في ديوانه المطبوع، قال: "جعلته بكاء للديار والأحباب".

ومنه أيضًا كتاب (المجتبى من السنن) المعروف بـ (سنن النسائي الصغرى) **لأبي عبد الرحمن النسائي** (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، إذ صنف (السنن الكبرى) لأمير الرَّمْلَة[١]، فلما نظر فيه قال للنسائي: "أهذا صحيح كله؟" قال: "لا" فقال له: "فجَرِّدْ لِيَ الصحيح، اكتب كتابًا ليس فيه إلا الصحيح"، فكتب النسائي كتاب (المجتبى)[٢].

وفي السياق الغربي كتب **آلبرتو مانغويل** Alberto Manguel (١٩٤٨م: -) روايته الأولى (أخبار جاءت من بلد أجنبي) في أواخر ثمانينيات القرن العشرين **تأثرًا بمعلمه في الثانوية الذي كان سمحًا** فكريًّا وعرفهم بالكثير من الكتب، ثم ما لبث أن اكتشف أنه كان أحد

(١) بلدة في فلسطين.

(٢) ورد الذهبي في سير أعلام النبلاء (ج ١٤ ص ١٣١) هذه القصة بعد أن أوردها نقلًا عن ابن الأثير، فقال: "هذا لم يصح، بل المجتبى اختيار ابن السنّي"، أي أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري المعروف بابن السنّي، وكذلك ردها عدد من المحققين، بعلة أن النسائي كان غير معروفًا بالدخول على السلاطين، فكيف يَتَزَلَّف إلى السلطان بكتابه.

وكثير من المحققين ردوا كلام الذهبي ومن سايره، واتفقوا على أن (المجتبى) من تصنيف النسائي نفسه، وسبب تأليف الكتاب لا يرويه ابن الأثير فحسب، بل سبقه إلى ذلك أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الحَبّال (ت ٤٨٢هـ) وهو قريب العهد من النسائي بالمقارنة بابن الأثير، ثم تابعه أبو علي الغَسَّاني الجَيَّاني (ت ٤٩٨هـ) فيما رواه عنه ابن خير الأشبيلي في كتابه (الفهرست)، ثم تناقل هذه القصة ابن الأثير وابن كثير والعراقي والسخاوي والسيوطي، كلهم نقلوها دون إنكار، بل أوردوها في معرض الاحتجاج.

أعوان الديكتاتورية العسكرية في الأرجنتين في السبعينيات وأبلغ عن العديد من الطلاب، فدفعه ذلك للكتابة حول كيف يمكن لإنسان أن يكون مفرطًا في السماحة الفكرية ويفعل في نفس الوقت أكثر الأعمال خزيًا!

ومهما حاولنا استقصاء أندر أسباب التأليف وأغربها وأمتعها أو أكثرها عبرةً؛ فإننا لن نستطيع أن نحصرها لا جزئيًّا ولا في كليات، ولم أقف على كتاب مخصوص في أسباب التأليف وتحليلها اجتماعيًا رغم ارتباط ظهور الكتب بالدوافع والأسباب الكامنة وراء تأليفها.

ويمكن أن نقول إن كل الأسباب - في المجمل - ترتبطُ بفكرة الإصلاح، بعيدًا عن النية الدينية؛ لأن صلاح النية وفسادها، وإن كان مؤثرًا ولا بُد في الجزاء؛ إلا أن تأثيره في العمل ورواجه ليس بلازم، وقد بالغ البعض في هذا الأمر، فأحرقوا كتبهم، أو دفنوها، أو أتلفوها بأي وجه، وأوصوا بذلك ورعًا، إما تصحيحًا للنوايا مخافة الرياء، وإما مخافة أن تصير إلى من يُسيئون فهمها، فلا يضبطون كلامهم، ويحملونه على ظاهره، أو أن تصير إلى سارقين يزيدون فيها وينقصون فيُنسب ذلك إليهم.

فقد روي أن **عَبِيْدَةَ بن عمرو السلماني** (ت ٧٢هـ) التابعي الجليل دعا بكتبه عند موته فمحاها، وقال: "أخشى أن يليها أحد بعدي، فيضعوها في غير مواضعها"، وأوصى **أبو قِلَابَة الجرمي** (ت ١٠٤هـ) إذا مات أن تدفع كتبه إلى أيوب السختياني إن كان حيًا، وإلا فلتحرق![1].

---

(١) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سابق، ص ٦١: ٦٢.

وهو سر عدم وجود كتب لبعض أئمة التاريخ الإسلامي الكبار؛ مثل **سفيان الثوري** (ت ١٦١هـ / ٧٧٨م) المُحدِّث المشهور، **وشُعبة بن الحجاج** (ت ١٦٠هـ / ٧٧٧م)؛ فأما الأول فوضع كتبه لدى عمار بن سيف ابن أخته، وقال له: "ادفنها إذا مت" فنعل. قال الأصمعي: "وكان ندم على أشياء كتبها في الجرح والتعديل"[١]، وأما شُعبة فأوصى سعد ابنه إذا مات أن تُغسل كتبه وتُدفن، قال سعد: "فغسلتها ودفنتها، وكان أبي إذا اجتمعت عنده كتب من الناس أرسلني بها، فأدفنها في الطين!"[٢]، وكذلك دفن **علي بن مسهر القرشي** (ت ١٨٩هـ) المُحدِّث المعروف كتبه[٣].

وقال إبراهيم بن هاشم: دفنّا لبشر **بن الحارث الحافي** (ت ٢٢٧هـ / ٨٤١م) المتصوف المعروف ثمانية عشر ما بين قمطْر وقوصرة[٤]، **وأبو سليمان الدَّاراني الملقب بالعارف الصوفي** (ت ٢١٥هـ) جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار، ثم قال: "والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك"[٥]، وحمل **أحمد بن أبي الحواري**

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، ج ٧ ص ٣٨.
محمد بن سعد البغدادي المعروف بابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، ج ٦ ص ٣٨٨.

(٢) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٣) أحمد بن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج ٧ ص ٣٨٣.

(٤) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سابق، ص ٦٣.
والقمطْر: سبق إيضاحه، وهو ما تُصان فيه الكتب، ويُقدر حجمه بثلاثمائة رطل، أما القوصرة: فوعاء أصغر حجمًا يبدو أنها كانت تصنع من القصب.

(٥) ياقوت بن عبد الله الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ج ٥ ص ١٩٣١.

(ت ٢٣٠هـ) أحد كبار المتصوفة كتبه إلى شط الفرات، وجلس يبكي عليها، ثم نظر لها، وقال: "نعم الدليل كنت لي على ربي، ولكن لما ظفرتُ بالمدلول علمت أن الاشتغال بالدليل مُحال"، ثم أغرقها[1].

وأوصى **محمد بن العلاء المعروف بأبي كريب** (ت ٢٤٨هـ) أن تدفن كتبه معه إذا مات، فدُفنت!؟[2]، وأوصى **محمد بن عمر أبو بكر الجعابي** (ت ٣٥٥هـ) أن تُحرق كتبه، فأُحرقت، قال ابن شاهين: "فرأينا كتبه تل رماد"، وكانت مائة وخمسين جزءًا، ذهبت في جملة ما أُحرق من كتب الناس التي جمعها[3]، ولما حضرت الوفاة **الجُنيد بن محمد أبو القاسم** (ت ٢٩٨هـ) الصوفي الشهير؛ أوصى بدفن جميع ما كُتب عنه، ونُسب إليه من علمه، فسُئل عن ذلك، فقال: "أحببت ألا يراني الله وقد تركت شيئًا منسوبًا إليَّ، وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم"[4]، وبالمثل أوصى **أبو حيان التوحيدي** (ت ٤١٤هـ / ١٠٢٣م) الصوفي المعروف[5].

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية (بيروت) عن مطبعة السعادة (مصر)، طبعة ١٤٠٩هـ، ج ١٠ ص ٦: ٧.

(٢) أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر (بيروت)، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ج ٥٥ ص ٥٩.

(٣) المرجع السابق، ج ٥٤ ص ٤٢٨.

(٤) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مرجع سابق، ج ٧ ص ٢٥٦.

(٥) عبد الرحمن بدوي: تحقيق الإشارات الإلهية، مرجع سابق، ج ١ ص كا.
وأخطأ البعض في تبرير رغبة التوحيدي في التخلص من كتبه ندمًا على ما فيها من ضلالات وشطحات دينية، فقد كان التوحيدي يرى أنها نفيسة القيمة، وأن إتلافها إنما هو بدافع أنه قصر في بيان ما أراد، وضنًا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، كما ذكر ياقوت الحموي في كتاب (معجم الأدباء) وعبد الرحمن بدوي في تحقيق كتاب (الإشارات الإلهية) وغيرهما، على ما دلت عليه الرسالة التي رد بها على القاضي أبو

بل كان بعضهم يأمر بهذا، لا يتخذ منه حال له فقط، كما روي عن طاووس وغيره في إحراق الكتب[١]، وربما كره بعضهم الكتابة كليةً لاعتقادهم أن الحفظ هو التقليد العلمي الأرفع في نقل العلم وتداوله، ومنه يُفهم قول أبي بردة: كتبت عن أبي كتبًا كثيرة، فمحاها وقال لي: "خُذْ عنّا كما أخذنا"، وقول أحمد بن حنبل حين سُئل: من كره كتابة العلم؟: "كرهه قوم كثير ورخص فيه قوم"[٢].

وبعضهم ندم على هذا المسلك كما حدث للمُفسر الشهير **محمد الأمين الشنقيطي** (١٩٠٥: ١٩٧٤م)، مع كتابه (نسب بني عدنان)؛ الذي ألفه في مقتبل عمره ثم دفنه، قال: "إنما ألفته للتفوق به على الأقران، فدفنته لأن تلك كانت نيتي، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لصححت النية ولم أدفنه!"[٣]، وقبله بقرون عديدة قال **عروة بن الزبير** (ت ٩٤هـ/ ٧١٣م) التابعي الكبير: "كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أني فديته بمالي وولدي وأني لم أمحه"، إذ لما علت سنه، وتغير حفظه؛ ندم على محوه، وتمنى أنه كان لم يمحه، ليرجع إلى كتابه عند تناقص أحواله واضطراب حفظه[٤].

وبعضهم تضرر من ذلك، كما وقع **ليوسف بن أسباط الصوفي**

سهل على بن محمد بعدما عاتبه الأخير على عزمه إتلافها واستشنع فعله.

(١) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سابق، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩، ١١٥.
للمزيد حول هذا الموضوع انظر بتوسع: كتابي (تاريخية السُّنة وفلسفتها).

(٣) بكر بن عبد الله أبو زيد: طبقات النسابين، دار الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٩٨.

(٤) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سابق، ص ٦٠.

(ت ١٩٥هـ/ ٨١١م)، الذي دفن كتبه، فاعتمد في رواية حديثه على حفظه؛ فلم تسعفه ذاكرته لتغيرها مع السن، قال ابن عدي: "لما عدم كتبه صار يحمل على حفظه، فيغلط ويشتبه عليه"، وقال البخاري: "كان قد دفن كتبه، فصار لا يجيء بحديثه كما ينبغي"[١].

وتكاد تنحصر ظاهرة إحراق الكتب أو إغراقها أو دفنها في طبقة علماء الدين، لاسيَّما المتصوفة منهم، بعد أن كانت محدودة في طبقة المُحدِّثين في القرن الثاني الهجري؛ لأنهم كانوا يرون أن العلم يُراد للعمل، والعمل يُراد للنجاة، فإن قصر العلم عن العمل أو انتهى وقت العمل بموت الإنسان؛ فلا قيمة للعلم، بل قد يكون حُجة على صاحبه ووبالًا عليه، وكانوا يرون أن "بني إسرائيل ضلوا بكتب ورثوها"[٢].

ولا شك أنهم بالغوا في تقدير هذا الأمر، ولذلك لم يشكل هذا التوجه - على شهرته - ظاهرة واسعة النطاق بحيث يمكن عدها أصلًا في تاريخ العلم عند المسلمين، بل الأصل أن العلماء والفقهاء أكثروا من التأليف والتصنيف[٣]، وحثوا على ذلك، وتركوا

(١) أحمد بن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج ١١ ص ٤٠٨.

(٢) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سابق، ص ٦١.

(٣) ويرى البعض أن التصنيف في الغالب كان مرحلة سبقت التأليف، فثمة فرق بينهما في السياق التراثي، فالتأليف أعم من التصنيف كما ذكر أبو هلال العسكري؛ فالتصنيف نوع من التأليف يعني بصنف معين من العلم، فلا يقال مثلًا للكتب التي تتضمن نقض وردود "تصانيف"، لأنها تتضمن الكلام وضده والقول ونقيضه، والصنف لا يدخل فيه ضده، أما التأليف فجمع لفظ إلى لفظ ومعنى إلى معنى حتى يكون كالجملة الكافية فيما يحتاج إليه سواء كان متفقًا أو مختلفًا.

أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة (القاهرة)، ص ١٤٥: ١٤٦.

من الكتب ما لا يُحصي ولا يُقدر على جمعه، وبعضهم انتقد هذه الظاهرة وأنكرها، كما أُثر عن **أحمد بن حنبل** (ت ٢٤١هـ - ٨٥٥م)، يقول: "لا أعلم لدفن الكتب معنى"[1].

وجدير بالذكر أن ظاهرة إتلاف الكتب والرغبة في التخلص منها وُجدت بشكل محدود في عالم الثقافة الغربية، لكن بالطبع الأسباب مختلفة؛ أهمها عدم الرضا، والشعور بالإخفاق، بالإضافة لأسباب أخرى نفسية في الغالب؛ كالاكتئاب والعزوف المطلق عن الحياة.

فمن أغرب من أُثر عنهم هذا المسلك الأديب الألماني **فرانز كافكا** Franz Kafka (١٨٨٣: ١٩٢٤م)، إذ ذكر د. عبد الرحمن بدوي أنه أوصى بألا تنشر كتبه بعد موته[2]، ورغب في التخلص منها في نهاية حياته، إلا أن صديقه المقرب (ماكس برود) لم يجبه لطلبه.

الأمر نفسه حدث مع الأديب الفرنسي **آرثر رمبو** Arthur Rimbaud (١٨٥٤: ١٨٩١م)؛ حين حاول التخلص من طبعات روايته (موسم في الجحيم)، ذات الطابع الحداثي المبكر، وبعض مخطوطاته، بعد أن أصيب بحالة من الاكتئاب، وتوقف عن الكتابة في العشرينيات من عمره، قبل أن يموت في منتصف العقد الرابع، لكنه عجز عن التخلص من روايته الأكثر شهرة في أعماله، إذ كانت أقدر منه على البقاء، بل كانت سببًا في شهرته.

لكنهم كثيرًا ما لجأوا إلى استخدام الأسماء المستعارة في

---

(١) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سبق، ص ٦٣.

(٢) عبد الرحمن بدوي: تحقيق الإشارات الإلهية، مرجع سبق، ج ١ ص ك.

كتبهم، ومن أشهر من فعل ذلك الروائية الإنجليزية **أجاثا كريستي** Agatha Christie (١٨٩٠: ١٩٧٦م)[١] التي استعملت اسم ماري وستماكوت في عدد من الروايات الرومانسية حيث عُرفت بروايات الجريمة والقتل التي اشتهرت بكتابتها، ولم يتم التعرف على كريستي كمؤلفة حقيقية للروايات المذكورة إلا بعد عشرين عامًا، والروائية الشهيرة **جوان رولينج** Joanne Rowling (١٩٦٥: -)[٢] مؤلفة (هاري بوتر Harry Potter)؛ كتبت إحدى الروايات البوليسية باسم روبرت غالبريث غير أنه لم تطل فترة إخفائها للأمر، وعللت ذلك بأنها كانت تتوق للعودة للكتابة بلا ضجيج أو توقعات وتلقي ردود فعل حقيقية لا مداهنة أو متحفزة!

وهو ما تكرر مع ستيفن كينج ووليام جوزيف كينيدي ودونالد ويست لاك ولورانس بلوك، وغيرهم الكثير، ورغم أن

---

(١) هي الكاتبة الغربية الأشهر على الإطلاق، اشتهرت بكتابة الروايات البوليسية، وبغزارة إنتاجها، جدير بالذكر أنها لم تُوفق في كتاباتها الأولى، ورُفضت أول أعمالها أكثر من مرة على التوالي، قبل أن يتغير الأمر بعد تأليفها رواية (قضية ستايلز الغامضة)، وتُذكر كريستي كالروائية الأكثر بيعًا على الإطلاق، حيث باعت مؤلفاتها نحو ملياري نسخة، وهي من الأكثر انتشارًا في العالم، بعد أعمال شكسبير، وفي مقدمتها رواية (لم يبق أحد أفضل) التي باعت أكثر من مائة مليون نسخة، كما تحتل أعمال كريستي المرتبة الأولى في الأعمال المترجمة، حيث ترجمت إلى أكثر من مائة لغة على أقل تقدير.

(٢) روائية إنجليزية تُصنف كأول ملياردير يُحقق ثروته من الكتابة فقط، بعد أن تغيّر بها الحال من الفقر المدقع إلى الثراء الفاحش!، عملت في أول أمرها كمعلمة، وكانت قد خضعت لاختبارات دخول جامعة أكسفورد لكنها لم تُقبل!

ويُذكر أن الناشرين لم يتحمسوا كثيرًا لروايتها الشهيرة (هاري بوتر) فرُفضت أكثر من عشر مرات ككتاب أطفال يرتبط بالسحر، والناشر الوحيد الذي قبل نشرها رفض أن يكتب اسمها صحيحًا Joanne Rowling على الرواية فاستخدم الحروف الأولى J. K. Rowling ، لكن المفاجأة أن الرواية اشتهرت عكس المتوقع اشتهارًا واسعًا قبل أن تتحول إلى سلسلة أفلام شهيرة وتبيع أكثر من ثلاثمائة مليون نسخة حول العالم.

التراث الإسلامي لم يحظَ بنفس النهج، أو بتعبير أدق لم تشتهر فيه هذه الظاهرة، فقد وُجدت على المستوى الحديث العديد من النماذج التي اتخذت أسماءً مستعارة في أعمالها، وأشهرها: **مي زيادة** (١٨٨٦: ١٩٤١م) و**عائشة عبد الرحمن الملقبة ببنت الشاطئ** (١٩١٣: ١٩٩٨م)، وغيرهم ربما هروبًا من المسئولية أو خوفًا من رقابة السلطة أو رقابة المجتمع!

مصانع الكتبة

الكتابة موهبة، لكنها تحتاج للصقل عن طريق الممارسة، وهي كذلك مهارة تُكتسب بالممارسة وتعلم فُنونها، ففي جميع الأحوال الكتابة تعتمد على الممارسة، وتُكتسب مهاراتها بالتدريب، قد تكون البدايةُ صعبة، لكن مع مرور الوقت تُكتسب وتزيد المهارة بالخبرة، حتى تُصبح أمرًا حيويًّا لا غنى عنه في حياة الكاتب.

والحق أن التعليم المدرسي والجامعي في بلادنا العربية في الغالب الأعم هو المعوق الأهم من معوقات صقل موهبة الكتابة أو تنمية مهاراتها، بل يُعد أهم عوامل إضعافها، إذ هو بعيد كل البُعد عن تعليم القراءة الجيدة، ومن باب أولى الكتابة، ومدارسنا وجامعاتنا في الأصل لم تنشأ لتُقدم أدبًا، أو تعلم مهارةً، أو تنمي موهبةً، وإنما أُنشئت لتضييع أوقاتنا وأوقات أبنائنا.

لذا؛ فصقل هذه الموهبة وتنمية مهاراتها عند الطالب العربي لا يُمكن أن يتحقق - في الغالب - إلا من خلال التعليم المنزلي الصحيح، أو دوائر التعليم الحُر المُتاحة اجتماعيًّا.

فالقراءة والكتابة تعتمدان بشكل كبير على الممارسة والتدريب، لذا يجب أن تبدأ بشكل إلزامي؛ لأن التمرن ضد طبيعة النفس التي تميل إلى السكون والراحة، ولا أعني بالإلزام؛ القسر والعقاب، بل أقصد به الإرشاد والتوجيه، وأولى مراحله التقليد، فالطفل لن يقرأ إذا قلنا له اقرأ، الطفل لن يقرأ إلا إذا وجد أهله يقرأون، ولن يُعظم من

قيمة الكتاب إلا إذا وجد أهله يُعظمون من قيمته، ولن يحرص على اقتنائه إلا إذا وجد أهله حريصين على ذلك.

ومن هنا تُعلم أهمية اصطحاب الأبناء **للزيارات المكتبية** بشكل دوري؛ كالمكتبات التجارية والعامة، مع تحديد مجموعة من الكتب، وتخييرهم في انتقاء كتاب - أو أكثر - من بينها لشرائه، أيًا كان وجه اختيارهم، وأيًا كانت طريقة ذلك.

فالزيارات المكتبية تربط الفتيان والفتيات بعالم الكتاب والقراءة والكتابة، لاسيما إذا كان القائم على المكتبة أمينًا بحق لا مجرد بياع، فأمين المكتبة مفتاحها، وشتان بين المفتاح السهل والمفتاح الصدئ! أذكر أنني أثناء إقامتي في الإسكندرية من سنوات طويلة كنت أتردد على إحدى المكتبات لشراء ما أحتاجه من كتب التراث والكتب الفكرية، وكان أحد العاملين فيها داهيةً في التفريق بين الطبعات، آية في حفظ العناوين وأسماء المؤلفين، وكثيرًا ما كنت أعتمد عليه في معرفة الجديد والوصول إلى ما أحتاجه، ويذكر د. **أسامة شفيع** (١٩٧٥: ٢٠٢١م) عن زياراته للمكتبات في باريس أنه زار مرةً ضاحية باريسية تدعى "أنطوني"، فصادف فيها مكتبات شتى، والذي يلفت في العاملين بها أنهم ليسوا باعة فحسب، وإنما هم قَرَأة أيضًا، فذكر فرنسية أعانته على شراء طائفة من أعمال روسو وكامو، حيث نبهته إلى أن رواية (الرجل الأول) **لألبير كامو** Albert Camus (١٩١٣: ١٩٦٠م) لم تتم لأنه مات في حادث سيارة في إبان تأليفها، ولما نظر شفيع في الكتاب تبين ذلك في المقدمة التي كتبها بعض النقاد، وسألها ذات مرة وقد رأى عددًا من أعمال **صامويل بيكيت** Samuel Beckett (١٩٠٦: ١٩٨٩م) لديها بالفرنسية، دون إشارة

إلى أنها مترجمة: "أكان بيكيت يكتب بالفرنسية؟" فقالت: "نعم، وقد عاش زمانًا في فرنسا!" ثم علق حول هذه السيدة قائلا: "هذه المعرفة التي تكون عند باعة الكتب تهب المكان جلالًا، وتدعوك إلى احترامه وتوقيره".

ومن الأهمية بمكان أيضًا تحديد وقت معين يوميًا للأبناء للقراءة الحُرة، بغير إفراط ولا تفريط، فالدراسات النفسية الحديثة تثبت أن التركيز المتواصل للأشخاص البالغين يصل لنحو خمسين دقيقة فقط، ويقل بالنسبة لغير البالغين، فانتظام القراءة وقتًا وقدرًا مما يساعد على التعود عليها وحُسن توظيفها.

والأبناء الأصغر سنًا ممن هم قادرون على القراءة؛ يُمكن حثهم على بعض القراءات المختصرة السهلة لأوقات قليلة يوميًا قبل النوم، ولا إشكال في كسر الروتين وخرق النظام الذي يضعه الآباء في هذا الشأن ولا يسمحون بتجاوزه، فلا حرج في التغاضي عن المواعيد الصارمة للنوم طالما كانت في مصلحة القراءة، وفي مصلحة أن تتحول إلى نشاطٍ يومي.

ولا بأس بالرواية أو القصة القصيرة للناشئة إن كانت جيدة ذات مغزى قيمي، لا إسفاف فيها ولا ابتذال، فالشغف بها في هذه الأعمار أمر طبيعي، ولكنها مرحلة يجب أن تؤدي إلى ربط الأبناء بعالم القراءة الأوسع والأثمر في العقل والنفس، وهذا لا بُد فيه من التوجيه الأسري والاجتماعي.

ومن الأمور الجيدة اختبار الأبناء في مفاهيم قيم ومعان معينة؛ كالتدين والبذل والحلم والتواضع والأخوة والمروءة.. إلخ، وتكليفهم بكتابة أفكار مختصرة جدًا في هذه القيم والمعاني مرتين

في الأسبوع على الأقل، وعمل مسابقات بينهم في المعلومات العامة، ومعاني الأشياء، والمصطلحات واستخداماتها، ويُمكن استغلال أوقات السفر الطويل في هذا الشأن.

أما الفتيان والفتيات الأكبر سنًا ممن هم في المراحل الثانوية؛ فيُفضل تدريبهم على جمع بعض الإحصاءات العامة، وتحليلها لنتائج في نقاط مختصرة، وكتابة بعض مقالات مختصرة جدًّا حول دلالاتها، وتعويدهم على تدوين تجاربهم الشخصية، مهما قلَّ شأنها، كتجاربهم في العمل الخيري، ومساعدة الآخرين، ورحلاتهم الترفيهية، وأنشطتهم المدرسية والرياضية، وغير ذلك.

وكذلك الاهتمام بإتقانهم أساسيات اللغة، وتعلمهم مهارات التعبير، من خلال الكُتب السهلة الشرح والفهم، فإن اللغة هي مفتاح الدين والعلوم، فلا غرابة أن نجد كثيرًا من المسلمين غير العرب ينظرون إلى اللغة العربية بوصفها دينًا في ذاته، وحكى الأديب الصومالي **نور الدين فرح** (١٩٤٥م: -) أن أمه كانت أول من دفعته لتعلم اللغة العربية حتى قبل الصومالية، وكانت من مهابتها لها أنها كانت تعتني بالجرائد الممزقة ظنًّا منها أنها نصوص مقدسة (آيات وأحاديث)، يقول: "أذكر أنني وجدتُها تقبل صفحة من جريدة الأهرام!".

وحين أتى **أحمد أمين** (١٨٨٦: ١٩٥٤م) في مذكراته المعنونة (حياتي) على ذكر أساتذته في مدرسة القضاء الشرعي ذكر أستاذًا له هو **علي بك فوزي** الذي دَرَسَ في مدرسة المعلمين وتخرج في معاهد إنجلترا وكان يُدَرس لهم مادة التاريخ، فقال: "كان يُجيد الإنجليزية والفرنسية والفارسية والتركية، ويلتزم الكلام باللغة العربية الفصحى

فلا يلحن، ويدخل علينا متأبطًا كتبًا في جانبيه لعلها تزن أكثر منه، ولا يدع الفراش يحملها له، ويفتح هذا الكتاب بالفرنسية ويملي علينا باللغة العربية بأسلوب جميل فصيح، ويخرج أحيانًا عن الدرس إلى آرائه في الحياة وفلسفته في المقارنة بين المدنية الشرقية والمدنية الغربية"[١].

ولا بأس من اصطحاب النشء للمحاضرات والندوات العلمية والفكرية، وتعريفهم بالقدوات والنماذج الجيدة من الكُتّاب والمفكرين، وبالطبع السيطرة على الأوقات الطويلة التي يُضيعونها في متابعة الشاشات؛ لأن الكتاب إذا دخل معها في منافسة فإنه سيخسر حتمًا، وكما يقول ستيفن كينج Stephen King (١٩٤٧م-): "التلفاز مُسمم الإبداع"، وبالتأكيد فإن ما يُقال في التلفاز يصدق في غيره من أدوات التكنولوجيا الحديثة التي تجري مجراه، ومن باب أولى الألعاب الإلكترونية ونحوها.

ومن أهم مُحفزات القراءة والكتابة وتنمية مهاراتهما؛ الاهتمام بالمكتبات الخاصة (المنزلية)، والتي لطالما كان لها تأثير كبير في تنشئة أطفال المسلمين، فالطفل الذي يعيش في مُحيط تكثر فيه الكُتب، ويرى الأيدي تمتد إليها بين فينة وأخرى؛ تتولد لديه رغبةٌ تلقائية في القراءة، وكثير من الأطفال غير المُميزين عندما يجدون آباءهم يُمسكون بالأقلام، يُخططون ويُدونون في الكُتب والدفاتر؛ يُسارعون في تقليدهم، ويحرصون على العبث بالكُتب، لكن أكثر الآباء يُبادرون دومًا لزجرهم لمنعهم من العبث بالكُتب أو الإمساك

(١) أحمد أمين: حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (القاهرة)، ٢٠١٢م، ص ٧٥.

بها، فيُحولون مكتباتهم إلى متاحف يُحظر أن تمتد أيدي الأطفال إليها، فينقلب وجود المكتبة في المنزل إلى غير ذي معنى.

وفي كثير من البيوت الغربية ربما تجد الكتب في كل مكان؛ فوق الأرفف، وفي المطبخ، وفوق الكراسي، وتحت الأسرة، وما إلى ذلك، في حين أن غالب بيوت المسلمين اليوم افتقدت لركن المكتبة الخاصة (المنزلية)؛ بحجة ضعف القراءة على الرغم من شهوة الاقتناء، فلا ينبغي الإفراط في شراء الكتب إلا حيث ينتهي المقتني من قراءة الكتب التي اشتراها من قبل، وربما استدل البعض - لإثبات وجهة النظر هذه - بقول الله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا } [سورة الجمعة: الآية ٥]، مع أن الفرق بين الحالين كبير، فالآية نزلت ذمًّا لليهود الذين أُعطوا التوراة، وحُمّلوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها.

حكى الخطيب البغدادي أن رجلًا اشترى كتابًا، فقيل له: اشتريت ما ليس من علمك، فقال: "اشتريت ما ليس من علمي ليصير من علمي"، وقال آخر: "إنما يشتريها من لا يعلم حتى يعلم"، وكان آخر يشتري كل كتاب يراه، فقيل له: إنك لتشتري ما لا تحتاج إليه! فقال: "ربما احتجت إلى ما لا أحتاج إليه"[1]، فلئن تشتري عشرة كتب ربما لا تحتاج منها سوى لكتاب واحد؛ خيرٌ لك من أن يفوتك عشرة كتب أنت في حاجة منها لكتاب واحد!

بالطبع لا أقصد من وراء ذلك أن يكون الاقتناء غرضًا في ذاته، حتى وإن كان يُمثل قيمة كما ذكرت من قبل، بل الأولى ترشيد الاقتناء

(١) أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي: تقييد العلم، مرجع سابق، ص ١٣٦.

لصالح الاستعمال، وهو غير قاصر على القراءة، بل يشمل البحث والإعارة والتبادل والوقف، وربما إعادة البيع إذا دعت الحاجة، وهو أدنى ما يمكن توظيف الكتب فيها والاستفادة منها، فالكتب من أشد ما يعرض للتلف بمرور الزمن وضعف الاستعمال في وجهٍ من الوجوه المذكورة، يذكر عن **أبي الطاهر السلفي الأصبهاني** (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م)؛ أحد أئمة المسلمين المحدثين الكبار؛ أنه كان مغرى بجمع الكتب والاستكثار منها، وما كان يصل إليه من المال كان يخرجه في شرائها، وكان عنده خزائن كتب، ولا يتفرغ للنظر فيها، فلما مات وجدوا معظم الكتب في الخزائن قد عفنت، والتصق بعضها ببعض لنداوة الإسكندرية، فكانوا يستخلصونها بالفأس، فتلف أكثرها[١].

والحقيقة أن المكتبات الخاصة أسهمت بشكل كبير في تأسيس كبار أهل العلم والفكر من أبناء الأمة، وتأهيلهم لمكانتهم التي بلغوها، لاسيَّما في عهود الإسلام المُتقدمة، حيث كانت بيوتهم عامرة بالمكتبات الخاصة التي كانت تحوي آلاف الكُتب - وفي بعض الأحيان عشرات الآلاف - وبلغ من حرصهم على اقتناء الكتب أن افتقروا، وباعوا ثيابهم في سبيل تحصيلها، **فيحيى بن معين** (ت ٢٣٣هـ / ٨٤٨م) على سبيل المثال؛ خلَّف له أبوه ألف ألف درهم - أي مليونًا - فأنفقها كُلها على تحصيل الحديث، حتى لم يبقَ له نعل يلبسه، وقبله **محمد بن الحسن الشيباني** (ت ١٨٩هـ / ٨٠٥م)؛ ورث عن أبيه ثلاثين ألف درهم، صرف نصفها في اللغة، ونصفها في الفقه والحديث، وقبلهما أفضى طلب العلم **بمالك بن أنس** (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م) أن هدَّ سقف بيته، وباع خشبه، وأخبارهم

(١) محمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٢١ ص ٢٨.

في هذا الشأن لا تنقطع.

وسمعت من د. **محمد عمارة** (١٩٣١: ٢٠٢٠م) يومًا أنه بدأ في اقتناء مكتبته منذ كان في الرابعة عشرة من عمره، وحينها نُشر له أول مقال، وكانت مكتبته تضم أكثر من أربعة آلاف كتاب في سنوات طويلة من عمره الذي جاوز الخمسة وثمانين عامًا؛ منفقًا كل ما حصله من عوائد في سبيل تجميعها، وكان راتبه ضعيفًا، قيل له يومًا - حين كان موظفًا في الهيئة العامة للكتاب - إنه لا يُكافئ إلا راتب الساعي والعامل، وكان يقول: "يكفيني شرفًا أني أنتجت قبيلة من الكتب على الجبهة الفكرية"، ويقول: "زملائي في العمل بنوا بيوتًا وعقارات، وأنا فضلت الحصير لأبني خمسة معاهد دينية (أزهرية) في بلدتي، وأُخرج أكثر من ثلاثمائة كتاب!".

وأخبار النوابغ في هذا الشأن لا تنقطع، بل وبعضهم فقَدَ مكتبته كلها مع نفاستها، فلم ييأس من إعادة تجميعها وتكوينها، من ذلك ما حدث مع **عبد الوهاب بن جعفر الميداني** (ت ٤١٨هـ)؛ الذي كان لا يبخل بإعارة شيء من كتبه إلا كتاب واحد كان لا يسمح به، فاحترقت كتبه كلها، فاستحدث نسخًا من الكتب التي نسخت من كتبه سوى ذلك الذي لم يكن يسمح به لم يجد له نسخة[١]، و**عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي** (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤م) العَلَم الفقيه؛ احترقت كتبه زمن الرجفة، وكان قد نسخها البعض، فأتى رجل بها، فقال له الأوزاعي: "هو إصلاحك بيدك"، فما عرض لشيء منها حتى مات، وكان يستحضر العلم من حفظه[٢].

---

(١) أحمد بن حجر العسقلاني: لسان الميزان، مرجع سابق، ج ٥ ص ٣٠١.

(٢) قال الخليلي في الإرشاد: "أجاب عن ثمانين ألف مسألة في الفقه من حفظه".

وكثيرون فقدوا كتبهم لكن لم يستطيعوا جمعها، وأضيروا بذلك، وفي مقدمتهم العالم الشهير **عمر بن السراج المعروف بابن الملقن الشافعي** (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م)، الذي جابت كتبه الأقطار، وكان مشهورًا بكثرة التصانيف، حتى كان يقال إنها بلغت ثلاثمائة مجلدة ما بين كبير وصغير، وكان عنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر، منها ما هو ملكه، ومنها ما هو من أوقاف المدارس لاسيّما **المدرسة الفاضلية**، لكنها احترقت مع أكثر مسوداته في أواخر عمره، وتغير حاله بعدها، فحجبه ولده إلى أن مات، وقال في معجمه إنه قبل احتراق كتبه كان مستقيم الذهن، وأنشده من نظمه مخاطبًا له:

لا يزعجك يا سراج الدين أن
لعبت بكتبك ألسن النيران
لله قد قربتها فتقبلت
والنار مسرعة إلى القربان"[1].

أحمد بن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج ٦ ص ٢٤٢.

وأيضًا **حمزة بن علي أبو يعلى الحرّاني المقرئ** (ت ٦٠٢هـ) وكتب بخطه كثيرًا. وحصل الأصول، فاحترقت كتبه، وكان يُقرأ عليه من أصول غيره، ثم أعاد لنفسه بخطه أجزاءً منها، وكان حسن الكتابة، دقيق النقل.

و**محمد بن عمر أبو بكر الجعابي** المُلقب بالحافظ (ت ٣٥٥هـ)، ضاعت كتبه فاغتم بعض أهله، فقال له: "لا تغتم، فإن فيها مائتي ألف حديث، لا يُشْكل عليّ منها حديث، لا إسنادًا ولا متنًا!".

خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناءوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث (بيروت)، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ج ١٣ ص ١٠٨.

أحمد بن حجر العسقلاني: لسان الميزان، مرجع سابق، ج ٧ ص ٤٠٨.

(١) محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت)، ج ٦ ص ١٠٥.

ومن أشهر من احترقت كتبه كذلك: عبد الله بن لَهِيعَة (ت ١٧٤هـ) المُحدِّث المعروف

وكذلك **عمر بن الحسين أبو القاسم الخرقي الحنبلي** (ت ٣٣٤هـ)، احترقت الدار التي كانت فيها كتبه، ولم تكن انتشرت بُعده عن البلد، ولم يظهر منها للأسف إلا كتاب (المختصر في الفقه)[1].

وأغربهم على الإطلاق: **محمد بن عمر بن أبي بكر الشرابيشي** (ت ٨٣٩هـ)، تسلط عليه بعض أهله، فمزقوا كتبه بالبيع تمزيقًا بالغًا؛ لأنهم كانوا يسرقون المجلدات مفرقات من كتب أتقنها وحررها، فيبيعونها تفاريق، وكذلك الكتب التي لم تُجلد يبيعونها كراريس بالرطل، وضاعت كراريسه وفوائده[2]، فانظر كيف أزرى بهم الجهل!

ومن المعاصرين **ثناء الله بن محمد الآمر تَسَرِي** (١٨٦٨:

الذي تُكلم فيه حديثًا بسبب ضياعها، و**عبد العزيز بن عمران الأعرج؛ المعروف بابن أبي ثابت** (ت ١٩٧هـ)، و**أحمد بن بكر أبو روق الهزاني** (ت ٣٢٤هـ)، و**الفضل بن الحباب الجمحي**، و**محمد بن علي بن رستم المادرائي** (ت ٣٤٥هـ)، و**محمد بن أحمد بن عبد الرحمن المصري** (ت ٤٤٠هـ)، و**الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى** (ت ٥٨٦هـ)، و**علي بن عبد الله بن عيسى المعروف بالشريف السمهودي**.

و**إبراهيم بن أبي بكر الجزري الكتبي** (ت ٧٠٠هـ)، وكان تاجرًا بسوق الكتب بدمشق، له فيها دكان كبير وكتب كثيرة وخبرة تامة بالكتب، احترقت مكتبته في حادثة احتراق اللبادين، وكان فيها خمسة آلاف مجلد، ولم يبق له غير الكتب التي كانت عند الناس في العرض أو في العارية.

ومن أشهر من ضاعت كتبه: **مروان بن عبد الملك بن الفَخَّار**، و**هبة الله بن أرسلان الفَرّاش النهرواني**، و**أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم**، وغيرهم.

(١) محمد بن محمد المعروف بابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة (بيروت)، ج ٢٢ ص ٢٨١.

(٢) أحمد بن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: د. حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة)، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ج ٤ ص ٣٥.

١٩٤٨هـ) الذي امتحن في آخر حياته في فتنة ثارت على أثر انفصال باكستان عن الهند عام ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م، فهجم بعض السيخ الهندوس على داره، وقتلوا ولده الوحيد، وأحرقوا مكتبته عن بكرة أبيها، وكانت كبيرة عظيمة فيها نفائس، فهاجر إلى باكستان، ولم يلبث مدةً يسيرة إلا وتوفي من الحسرة.

وهي لعمري حوادث مريرة بحق، لا يعلم مدى حرقتها إلا من علم قيمة الكتب، وانشغل هواه بها، وبذل فيها وقته وجهده، وهي على طالب العلم أشد من فقد عزيز!

كيف نكتب؟

كما قلتُ سابقًا؛ القُدرة على التعبير أهم عناصر الكتابة الجيدة، وهذه القدرة تتطلب في المقام الأول معرفة قواعد ومبادئ الفن الذي يكتب فيه الكاتب، وإلا فإنه سيقع في أخطاء تضره في دينه وعلمه، بل وفي عِرضه، لأن من يكتب يُعرض نفسه إما للمدح أو الذم كما قال **النووي** (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م)[١]، وغيره.

يقول الأصمعي: سمعت **أبا عمرو بن العلاء** (ت ١٥٤هـ / ٧٧٤م) يقول: "الإنسان في فُسحَة من عقله، وفي سلامة من أفواه الناس؛ ما لم يضع كتابًا أو يقل شعرًا"، فالذي يكتب إنما يسْتَشْرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد حفر ذكراه في عقول الناس بالخير، وإن أساء فقد عرض نفسه للشتم والقذف بكل لسان؛ لأن الكتاب إذا نُشر صارت قراءته في أبعد الأماكن محتملة، وظهوره في أبعد الأزمنة ممكنًا، فلم يعد من الممكن الرجوع فيما كُتب إلا بشق الأنفس، بل قد يكون ذلك مستحيلًا؛ اللهم إلا في حال أن الكاتب واسع الشهرة، ولذلك هاب كثير من الكُتّاب من النشر مع اكتمال آلة التأليف عندهم، وكم من مؤلف ندم على ما كتب أو تراجع، ولم يُعرف تراجعه، أو صار محلًا للشك والأخذ والرد.

ومن المهم الاهتمام بعنصر الزمن، فلا يصرف الكاتب نفسه إلا لما يعم الانتفاع به، ويكثر الاحتياج إليه، فجزء كبير من قيمة

(١) يحيى بن شرف النووي: المجموع شرح المهذب، مرجع سابق، ج ١ ص ٣٠.

الكِتاب في الحقيقة تكمن في الوقت الذي يصدر فيه، وسبب ذلك أن مقصد التأليف في حد ذاته، بل الثقافة بصفة عامة؛ هي خدمة الواقع والتأثير فيه، فلا قيمة كبيرة للكلام إذا لم يكن مؤثرًا في الواقع فاعلًا فيه، ومن هنا تُفهم قيمة بعض الكتب الثورية في مجتمعاتها، ككتاب (الدولة والثورة) للينين، أو (الحكومة الإسلامية) **للخميني**، من حيث تأثيرهما في إحداث تغيير اجتماعي في الشعبين الروسي والإيراني، يقول الأديب الفرنسي **شارل بودلير** Charles Baudelaire (١٨٢١: ١٨٦٧م): "لا تستطيع قوة في العالم أن تهزم فكرة جاءت في وقتها".

ولذلك من المهم عند القيام بمراجعات وقراءات نقدية للكُتب والمُؤلفات، أو الاستعانة بها في أي عمل بحثي أو علمي؛ دراسةُ الظروف التاريخية الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بالمُؤلف والكتاب، لما لها من تأثير كبير في تفسير أفكار الكاتب وتوجهاته، فبعض الكُتب لا يُمكن أن تُفهم أو تُفسر إلا في ضوء سياقها التاريخي الثقافي أو الاجتماعي أو السياسي.

والكاتب الجيد يجب أن يتحرر من قيد التخصص بمعناه الضيق[١]، فليس من الضروري أن يُقيد نفسه بتخصصه الدراسي النظامي وحده، أو اهتماماته العلمية، إذ يُمكنه الاستفادة من مختلف الفنون التي تخدم دراسته الأساسية، أو تُكملها لتوسيع نطاق كتاباته وتعميقها، ولهذا ما له من انعكاس على لغته في الكتابة.

على أنه يجب على الكاتب أن يستحضر في ذهنه الفئة التي

---

(١) ويذكر **جوزيف شومبيتر** (١٨٨٣: ١٩٥٠م) في كتابه (تاريخ التحليل الاقتصادي)؛ أن فكرة التخصص سمة تلحق بالاتجاهات التي تأخذ بالأمركة Americanization.

يُخاطبها، إذ هذا مما تتوقف عليه البنية التنظيمية لموضوعه وأفكاره، فالكتابة أشبه ما تكون بمعركة بين عقل الكاتب وعقل القارئ، ومن ثَمّ فيجب عليه أن يفترض كما قال **الجاحظ** (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م): "أن الناس كلّهم له أعداء، وكلّهم عالمٌ بالأمور، وكلّهم متفرّغ له"[١]، وكل هذا يتطلب أن يكون لديه تصور لطبيعة القارئ، وإمكانياته وخصائصه، حتى يتخير له عباراته وألفاظه، ويتحرى الدقة في بناء أفكاره وحُجته ومنطقه.

وكذلك يجب الاعتناء بما لم يُسبق إليه الكاتب، وليس معنى ذلك أن يكون الكتاب بالضرورة فريدًا من نوعه، لم يسبق إلى موضوعه كاتب، بل المُراد ألا يكون ثَمَّة كتاب يُغني عنه في جميع أساليبه، فإن أغنى عن بعضها فلا حرج أن يكتب الكاتب في جنسهِ ذاته؛ **بما يُضيف أو يُؤثر في العمل الأول.**

فتكرار مادة الكتاب، أو تقاربه مع غيره فكرةً وموضوعًا وأسلوبًا؛ يُشين المُؤلف، ويُعرضه للذم والتُّهمة، كما حدث مع القاضي **أبو يعلى الفراء الحنبلي** (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، مع سعة علمه وفضله وجلالته؛ حيث نقل أفكار ومادة كتاب (الأحكام السلطانية) **لأبي الحسن الماوردي** (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)؛ في كتابه الذي حمل العنوان نفسه، مع تقارب مباني الكتاب ومعانيه بشكل كبير جدًّا، قاصدًا تخريج ذات الأفكار على أصول الحنابلة وفقههم، مما اضطُر بعض المحققين إلى القول بأن القاضي أبا يعلى نهب فِكر الماوردي.

يقول ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م): "وأما من

---

(١) عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان (١/ ٦٠).

أخذ تأليفًا، فأعاده على وجهه أو قدم وأخّر، دون تحسين رتبة، أو بدّل ألفاظه دون أن يأتي بأبسط منها وأبين، أو حذف مما يُحتاج إليه، أو أتى بما لا يُحتاج إليه، أو نقض صوابًا بخطأ، أو أتى بما لا فائدة فيه؛ فإنما هذه أفعال أهل الجهل والغفلة، أو أهل القحة والسخف"[١].

ولا شك أن أعظم أنواع الكتابة هي التأسيسية المتعلقة بالفكر، فأما أن يصرف الكاتب همه للحكايات المبتذلة والبكائيات العاطفية؛ فهذه سُرعان ما تنتشر في الناس، ثم سُرعان ما ينساها الناس، وإما أن يُؤسِّسَ لِفِكر؛ وهذا يبقى وقتًا طويلًا حتى ينتشر في الناس، لكنه حين ينتشر يبقى في الناس.

ويكون **الموضوع** صالحًا للكتابة فيه كلما كان الكاتب على دراية ببعض العناصر المهمة؛ منها أبعاده في الواقع، والظواهر التي دلت عليه، والترابط بين تلك الظواهر والظواهر الأخرى، والعوامل المُؤثِرة فيه، والمُتغيرات المتأثرة به، وطبيعة المعلومات المُتاحة عنه، والتمكن من الأدوات والمناهج البحثية لجمع هذه المعلومات وتحليلها كميًّا ووصفيًّا، وقبل **كل** هذا الإلمام الكافي بالمفاهيم والمصطلحات والنظريات المرتبطة بهذا الموضوع، وهذا كله فرع عن شعور المؤلف بالموضوع، أو الرابط بين الكاتب والموضوع.

ومن مظاهر تردي الثقافة العربية ما نراه من ضعف دراية خريجي الجامعات والباحثين من طالبي الدراسات العليا، في اختيار موضوع البحث، الذي يُعبر عنه في المناهج البحثية الأكاديمية بـ "**المُشكلة البحثية**" في إشارة إلى الجهد المطلوب من الباحث لدراسة موضوع

---

(١) ابن حزم الأندلسي: رسالة التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه، الرسائل، مرجع سابق، ج ٤ ص ١٠٤.

يمثل معضلة ما للمجتمع، فيلجأون إلى أساتذتهم ليختاروا لهم موضوع البحث، ويبذلون فيه عمرًا بلا أي قناعة حقيقية أو شعور جاد بالموضوع وأهميته وجدواه بالنسبة لهم، فتصير هناك فجوة كبيرة بين الباحث والموضوع.

وربما يعزى ذلك إلى ضعف ثقافة الباحث - كما يقول د. **شوقي ضيف** (١٩١٠: ٢٠٠٥م) - على المستويين العام والتخصصي.

وأهم جزء في الكتابة هو **العنوان**، والأفضل أن يأتي اختياره متأخرًا في عملية الكتابة، سواءً أثناء تحرير النص أم بعد الانتهاء منه كليةً، والحقيقة أن اختيار العنوان من أيسر الأمور، ومن الكُتاب ومُقلديهم من يتفننون فيها، ويُتقنونها وهم لا يُحسنون الكتابة، وكم رأينا من عناوين لكُتب ومقالات مُلفتة وفي غاية الإغراء والجاذبية؛ لكنها ضعيفة المحتوى ركيكة التعبير.

وعلى الرغم من ذلكَ؛ فكم من كتابٍ قيم بالغ الفائدة حالَ دون انتفاع الناس به عنوانُه، من ذلك كتاب (الاتجاهات الوطنية في الأدب المُعاصر) **لمحمد محمد حسين** (١٩١٢: ١٩٨٢م)، فإنه ظُلم بسبب عنوانه الذي لم يعبر بشكلٍ كافٍ عن محتواه الفكري الذي هو أعم من عنوانه بكل تأكيد[١].

وأهمية العنوان تأتي من أنه العامل الأول لجذب القُراء، حتى اصطلح بين العامة قولهم "الكتاب باين من عنوانه"؛ في إشارة إلى

(١) حيث يعرض بشكل موسع للصراع الثقافي الذي دار بين النزعة الإسلامية والنزعات القومية الطارئة في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وتعرض بشكل عميق للحركة العلمية والثقافية التغريبية في العالم الإسلامي، حتى يُمكن اعتباره مصدرًا تاريخيًا أصيلًا للصراع الذي دار في هذه الحقبة.

أن العنوان يدل على قيمة محتوى الكتاب، ومعيار اختيار العنوان في نظري:

(١) أن تفرضه نفس الكاتب عليه بلا تكلف.

(٢) أن يكون بينه وبين مادة الكتاب أو المقال علاقة وثيقة بشكل صريح أو مُضْمَر.

وانتشر في الآونة الأخيرة عنونة بعض الكُتَّاب لكتبهم، لاسيّما في مجال الرواية؛ بكلمات يسيرة من القرآن الكريم، مثل: (ما أنا بقارئ)، (أرني أنظر إليك)، (ترمي بشرر)، (وإذا الصحف نُشرت)، (ثاني اثنين)، (ألم نشرح لك صدرك)، (أليس الصبح بقريب)، (أقوم قيلا) وغير ذلك، ربما يكون أول من استن ذلك في الأدب العربي الحديث الشاعر المعروف **محمود درويش** (١٩٤١: ٢٠٠٨م)، الذي قال عن نفسه أنه كان يجد صعوبة في اختيار العنوان لكتبه وقصائده، حتى أنه كان يستعين بأصدقائه في كثير من الأحيان، بل ربما أرسل المادة إلى الناشر دون عنوان، وذلك من خلال ديوانه (أحد عشر كوكبًا)، قبل أن يعنون **جولان حاجي** الشاعر السوري مجموعته الشعرية بـ(نادى في الظلمات)، ثم تبع ذلك عدة روايات وأعمال أدبية على النمط نفسه، لعل أشهرها أعمال الأديب الأردني **أيمن العتوم**؛ (يا صاحبي السجن)، (نفر من الجن)، وغيرها، وتبعه عددٌ من شباب الروائيين.

وكان **محمد الطاهر بن عاشور** (١٨٧٩: ١٩٧٣م) قد سبقهم إلى ذلك بكتابه (أليس الصبح بقريب) في مجال تأريخ التعليم الديني وإصلاحه، قبل أن يحذو حذوه أو قريبًا منه د. **ساري حنفي** بعنوان فرعي لكتابه (علوم الشرع والعلوم الاجتماعية: نحو تجاوز القطيعة: أليس الصبح بقريب) في ذات المجال.

وهو ما يثير الجدل حول فكرة استخدام الآيات القرآنية بهذا الشكل، خاصة في الكتب التي فيها ابتذال في الأفكار والتناول، وذلك من جهتين:

الأولى: صيانة القرآن عن أي عبثٍ وتوجيه في الفهم غير صحيح، وهذا ما جعلنا لا نلحظ أي تجارب شبيهة بذلك في تاريخ الكتابة العربية والتراث الإسلامي، إذ لم يكن يعجزهم الاقتباس من الآيات القرآنية أو يفوتهم القيمة البلاغية لتوظيفها كعناوين لمؤلفاتهم!

الثانية: افتقار الكاتب في بعض الأحيان حقيقةً للقدرة الإبداعية في اختيار العنوان، فيلجأ إلى تعويض ذلك النقص بالاعتماد على بلاغة الآيات القرآنية، بالطبع لا يصدق هذا الكلام على الأدباء المبدعين كدرويش والعتوم وغيرهما، لكن يظل فتح هذا الباب على مصراعيه مظنة المشكلتين السابقتين.

ومقدمة الكتاب جزءًا أساسيًّا من بنية الكتاب، يُطيل فيها بعض الكتَّاب ويقتضب آخرون، ولكن لا يُحبذ التطويل لأن القارئ في الغالب يتعجل المعرفة الأساسية التي يقدمها الكتاب، ولا يُفضل استغراق وقت طويل في المقدمات والتمهيدات، ويعد سبب تأليف الكتاب مكونًا رئيسًا من مكونات مقدمة الكتاب، وكذلك ملخص موضوعات الكتاب وأهميتها.

وأكثر أجزاء الكتاب أو المقال أهمية هي البدايات، وأكثر الكُتّاب غير موفقين فيها، فهي وإن كانت محض تمهيد للفكرة الأساسية التي يرغب الكاتب في أن يتحدث عنها؛ إلا أنها تكتسب أهمية كبيرة من أنها عامل أساسي لجذب القُراء، فأغلب القُراء يرهن

قراءته لأي كتابٍ أو مقال ببدايته، ولا يمضي فيه قدمًا إلا بمقدار تأثره بمَطْلعه، بل حين تمتد يده لشراء كتاب جديد لا يتخذ قراره بالشراء إلا بعد مطالعة صفحاته الأولى، ومن هنا جاءت أهمية أن تكون البداية عميقة مُحْكمة جذابة، غير وعرة ولا مبهمة ولا شائكة، حتى قال الروائي المصري **عزت القمحاوي**: "إذا أنهيت الصفحة الأولى من دون متعة أو إضافة معرفية، فلا تتوقع وجودهما فيما بعد، إنها بمثابة لحظة إقلاع، لا يمكن لطيار لا يجيد الإقلاع أن يحلق بسلام!"، ذلك أن عالم القراءة لا يتسع للتجربة، فالأعمار محدودة للغاية بالنظر للكتب والمعارف.

بالطبع فإن في هذا القول ما فيه من المبالغة، فأي كاتب ذو أحوال؛ يضعف في جانب ويقوى في آخر، تجود قريحته في البدايات مرةً، ويشتد عزمه في الخواتيم أخرى، يوفق أحيانًا ويُخفق أحيانًا، والعبرة بما غلب، والكتب كذلك أنواع؛ فيها ما هو بطبيعته لا يستلزم البدايات الممتعة أو المعمقة؛ كالكتب الأدبية أو العلمية، بل في الغالب ما تكون خواتيمها الأمتع والأعمق، ومنها ما يكون فيه الإحكام والإتقان والمعرفة موزعًا على أجزائه؛ كالكتب الفكرية والتاريخية.

لكن في المجمل تظل مقدمات الكتب وبداياتها من الأهمية بمكان في تحفيز القارئ على المواصلة؛ كالقشرة التي إن سَهُل نزعها حفزت على تناول قلب الثمرة، وإن تمنعت وكانت عصية نَفَرت عن الوصول للأحشاء، فالكاتب الحصيف هو من يقدم للقارئ في مقدمات كتابه وبداياته عبارة ملهمة، أو معلومة قيمة، أو نصًّا ممتعًا، أو خلاصة مفيدة؛ تُحفز على مضي القارئ في الكتاب،

وبراعة الاستهلال بلا شك مهارة لا يُتقنها كل أحد.

فإذا انتقلنا إلى مادة الكتاب أو المقال الأساسية، فأهم ما يجب مراعاته ترتيب الأفكار، وتسلسلها، وانتظامها في بنية هرمية غير متنافرة، فكل فكرة تُؤدي لما بعدها، وكل فكرة متصلة بما قبلها، حتى يظهر المقصد الأساسي للكاتب بكل وضوح، ولا يتوصل للنتائج إلا من خلال فرضيات ومقدمات سائغة، من شأنها أن تُؤدي إلى ما انتهت إليه، دون أن يضطر ذهن القارئ لبذل جهد كبير في فهم علاقة كل جزء بما قبله أو ما بعده.

وكلما كان النص أكثر تلاحمًا من جهة الأفكار ومن جهة اللفظ والمعنى؛ كان أقوى تأثيرًا في نفس القارئ، ويُعرف هذا عند اللغويين بالرصف والسبك والاتساق والحبك، وكلها ذات معان قريبة، المراد بها انسجام الألفاظ والمعاني وإحكام العلاقات بينها، وهي من معايير استحسان اللفظ وتقييم بلاغته، يقول **ابن أبي الأصبع المصري** (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م): "وهو أن يأتي الكلام منحدرًا كتحدر الماء المنسجم، بسهولة سبكٍ، وعذوبة ألفاظٍ، وسلامة تأليف؛ حتى يكون لجملةٍ من المنثور، والبيت من الموزون، وقع في النفوس، وتأثير في القلوب ما ليس لغيره"[1]، ويقول **عبد القاهر الجرجاني** (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م): "لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتُجعل هذه بسبب من تلك"[2].

---

(١) ابن أبي الأصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني شرف، دار إحياء التراث، ج ٢ ص ٣٥٢.

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة ٢٠٠١م، ص ٥١.

وكذلك مراعاة عدم الإفراط في تكرار الأفكار نفسها أو إعادتها بتعديلات طفيفة.

ومن الأهمية بمكان تدعيم الأفكار بالشواهد، فليس المُهم ما نعرف، المُهم ما نستطيع أن نُثبت، والشواهد؛ الأدلة والإحصاءات والوقائع ونحو ذلك، والأهم من ذلك استعمال الحُجج الصحيحة المنطقية الخالية من المُغالطات، وارتباطها وتعلقها بما بُني عليها، فبعض الكُتاب يكون مُفلسَ الحُجة، معوزَ البُرهان، فيلجأ لتمرير أفكاره من خلال **المُغالطات المنطقية** Logical Fallacies، وهي الحيل التعبيرية التي تُستخدم لخداع القارئ، أو إرباكه، أو تضليله، أو إبهاره ببعض الأفكار والأحداث، أو دفعه إلى أُطر غير مُفيدة، وأشهر هذه المغالطات: تسميم البئر[١]، الرنجة الحمراء[٢]، أنف الجمل أو المُنحدر الزلق[٣]، فرض القوالب[٤]، المُصادرة على

(١) وتعتمد على الطعن في القائل أو المصدر بغير بينة، كالتجريح في الأشخاص بغير وجه حق، أو الطعن في النصوص الثابتة.

(٢) وتهدف للتمويه بجر النقاش إلى طريقٍ آخر، وسُميت كذلك لأن المجرمين كانوا يستخدمونها في الهروب؛ بتضليل كلاب الحراسة بإلقاء سمكة الرنجة في طريق، والهرب من طريق آخر.

(٣) وتهدف إلى دس أفكار تافهة تجر إلى سلسلة نتائج خطيرة، وسُميت كذلك نسبة للجمل لو دس أنفه في خيمة، إذ سيُدخل رأسه ثم جسمه كله وسيهدم الخيمة قطعًا.

(٤) وضع مخططات ذهنية مُسبقة لتصور غير حقيقي لتحويله إلى واقع.

المطلوب[١]، تجاهل المنشأ[٢]، التعميم[٣]، استدرار الشفقة[٤]، ازدراء المُخالِف[٥]، الاحتكام لسُلطة[٦]، رجل القش[٧]، السؤال

(١) وتحدث حين يُستدل بمقدمة البرهان على البرهان نفسه، فيكون المطلوب وبعض مقدماته شيئًا واحدًا، فلا يصلح الاستدلال بكل منهما على الآخر.

(٢) تجاهل من أين أتت الفكرة والتركيز على إثباتها.

(٣) إسباغ وصف حالة خاصة أو حالات خاصة على عموم، قال ابن المقفع: "لا تعْمَّمَنّ جيلًا من الناس، أو أمة من الأمم بشتم ولا ذم؛ فإنك لا تدري لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك مخطئًا؛ فلا تأمن مكافأتهم، أو متعمدًا؛ فتنسب إلى السفه".

(٤) باستغلال العاطفة لإثبات الرأي، فتصير الشفقة هي الحُجة، وتحل العاطفة محل البينة.

(٥) وهي مغالطة كهنة العلم في الغالب، التي تعتمد على الاستبداد بالرأي واستعباد العقول، بانتقاص المُخالفين، وتسفيههم، وازدرائهم، والإعراض عن مُناقشتهم بدلًا من مقارَعَتهم بالحُجة والبينة.

(٦) ولها ثلاث صور:
• الاحتكام لسُلطة الأشخاص أو العامة: بإثبات التصورات من قداسات الأشخاص، أو الاحتجاج بإجماعات العوام بديلًا عن البينة والدليل.
• الاحتكام لسُلطة العادات أو الأساطير: بالاستعاض بسُلطة العادات أو الخُرافات بديلًا عن البينة.
• الاحتكام لسُلطة القوة: بالاستناد لسُلطة القوة في فرض الرأي، كما قال خروتشوف متهكمًا: "حين يقول ستالين أرقص؛ فالرجل الحكيم يرقص"!

(٧) تحريف الموقف المُخالف بتفنيد شكل الحُجة، بما يوحي بأن الحُجة المُعاكسة صحيحة، ويحدث ذلك بطُرق عديدة، أهمها: تحريف موقف المُخالف ثم دحضه، استعراض كلمات خارج سياق كلام المُخالف، وانتقاء الاقتباسات التي تحوّر نوايا المُخالف الفعلية عمدًا، عرض شخصية مُتهمة أو ضعيفة الحُجة، تُدافع عن نفس موقف المُخالف، ثم تفنيد حُجتها الضعيفة، أو النيل من شخصها المُتهم بما يُوحي بأن كل مُؤيد لهذا الموقف ضعيف ومهزوم ومُتهم، اختراع شخصية وهمية لها مُعتقدات وأعمال يسهل انتقادها، وإظهار المُخالف وكأنه يُدافع عن تلك المُعتقدات، المُبالغة في تبسيط حُجة المُخالف تبسيطًا مُخلًا، ومن ثَمَّ إسقاطها.

الملغوم[١]. فالكاتب الصادق الأمين هو من يتحرى ألا يوقع القارئ في شيء من ذلك، فقيمته من قيمة ما كَتب.

واستخدام الحُجج الصحيحة المنطقية الخالية من المغالطات يعتمد بشكل أساسي على ثقافة الكاتب، وغزارة المصادر، والاطلاع بشكل موسع على ما كُتب من قبل في الأفكار ذاتها، وما صُنف في دلالة الحُجَج، لاسيَّما ما كتبه عُظماء الكُتّاب وأكثرهم تخصصًا ودراية، وعلى سبيل المثال: فقد جمع **أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشَّهْرزوري** المعروف **بابن الصلاح** (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) (مُقدمته) في علوم الحديث من مصادر كثيرة، أكثرها من كتب **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧١م) فلخَّصها، وهذَّبها، ورتَّبها، وأحسن تصنيفها وتقسيمها، حتى صارت من أنفس ما كُتب في علوم الحديث، وأصلًا علميًّا مهمًّا من أصول العلم، ففرح بها أهل العلم، واعتنوا بها عناية كبيرة، وكما فعل **عبد الوهاب بن علي السُّبكي** (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) في (جمع الجوامع)؛ فإنه جمعه من نحو مائتي كتاب في أصول الفقه، كذلك اطلع **أبو الحسن الماوردي** (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) على أقوال المُفسرين، ولخَّصها من عشرات المصادر، وهو يكتب كتابه (النُّكت والعيون)، وتبعه على ذلك **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٣م) في كتابه (زاد المسير في علم التفسير) وزاد عليه كثيرًا.

---

(١) بطرح سؤال على المُخالف يحتوي على فروض مسبقة خارجة عن موضوع البحث، بحيث تكون أي إجابة عليه تتضمن الإقرار بالفروض المُسبقة ضمنيًا، وتكون أساس المُغالطة في أن الفروض المُسبقة في الأصل لا تستند إلى بينة أو حُجة تدعم موقف السائل.

وقيل إن الروائي الروسي الشهير **ليو تولستوي** Leo Tolstoy (١٨٢٨: ١٩١٠م) حين وضع روايته الأثيرة (الحرب والسلام) قرأ جميع كتب التاريخ المُتاحة بالروسية والفرنسية التي تتحدث عن الحروب النابليونية، إلى جانب قراءته للرسائل والمجلات والسير الذاتية لنابليون، وعشرات الفاعلين في تلك الحروب، فضلًا عن العديد من الكتب الرئيسة المنشورة في ذلك العصر!

ونفس الأمر مع المؤرخ الأمريكي **ول ديورانت** William J. Durant (١٨٨٥: ١٩٨١م) في كتابه (قصة الحضارة) الذي طاف لأجله العالم من شرقه إلى غربه أكثر من مرة؛ فزار مصر والهند والصين واليابان وسيبيريا وروسيا واليونان وإيطاليا وغيرها، واستغرق منه الرجوع لعشرات الكتب وحسب القارئ أن يطلع على ثبت المراجع الذي أثبته في آخر كل جزء من هذه الأجزاء ليُدرك شيئًا يسيرًا من الجهد المبذول في تأليف هذا الكتاب العظيم.

ومن المهم ألا تستخدم الشواهد نفسها في مواضع مُتقاربة، أو تكرارها بغير داعٍ، فكلما كان الكاتب أقل استرسالًا وأكثر تركيزًا كان كلامه أطمع في القراءة وأقرب إلى النفس، ويُستحب له استخدام أدوات القياس والتشبيه والتمثيل وافتراض الفروض، فإنها من أهم أدوات الإقناع والإثبات، وكانت من أهم ما ميز المنهجية العلمية في الحضارة الإسلامية سواء في الكتابة بصفة خاصة، أو المعرفة بصفة عامة.

ويلزم ضرورةً التأكد من سلامة القواعد النحوية، واستخدام التعبيرات التأملية والمهارات اللغوية، وتنويع الأساليب الأدبية، ولذلك فمن الأمور المُفيدة جدًا، والفارقة في عملية الكتابة؛ اكتساب

المهارات اللغوية وتطويرها باستمرار، إذ هي غير محدودة بحدٍّ، وهي تزيد بكثرة القراءة والكتابة، وقراءة كُتب الأدب والشعر - لاسيّما القديم منها - وبمعرفة المترادفات والأضداد والأمثال، ومعرفة الفروق بين الهمزات، واستخدامات الضمائر والحروف وأدوات الربط والاستفهام والنفي والتوكيد، وألفاظ الزمان، وأساليب كتابة الأرقام، وأدوات الترقيم، وتشكيل ما أُشْكِل من الألفاظ، وغير ذلك من أبواب النحو والإملاء والتنسيق، وفيها كتب سهلة مُتخصصة.

ومن المهارات اللغوية؛ عدم تكرار الألفاظ في الجُملة الواحدة أو الجُملتين المُتعاقبتين إلا لضرورةٍ لا يُمكن الانفكاك عنها، والتحول من التشبيه للمجاز ومن المجاز للتشبيه، واستخدام الأفعال المبنية للمعلوم، وتجنب تعدد الصيغ والضمائر المتعددة داخل النص الواحد أو الفقرة الواحدة، ومراعاة القطع والوصل في الفكرة الواحدة، والمحافظة على تناغم الفقرات وتسلسل الأفكار وانسيابها، وعدم تنافر الكلمات، وهو من أهم ما يُميز الكتابة الجيدة.

ومن الأساليب المهمة كذلك؛ استخدام أسلوب الأسئلة[1]، لاسيَّما التقريرية، وقد تحدثتُ مع د. **طارق البشري** (١٩٣٣: ٢٠٢١م) يومًا عن الأنماط التي يستخدمها المؤرخون في تقديم أفكارهم وتصوراتهم عن الأحداث التاريخية، فكان مما قاله إن

---

(١) ويُعد أحد الأساليب الإنشائية التي تدخل في باب علم المعاني، ويوجد أكثر من أسلوب فيه، أهمها: التقريري وغرضه تقرير القول أو الفعل على سبيل تثبيته والاعتراف به كحقيقة مؤكدة، والاستنكاري وغرضه إنكار القول أو الفعل على سبيل التوبيخ أو الاستهجان، والمجازي بهدف إفهام المتلقي، وله عدة أغراض منها الأمر والنفي والاستبعاد والتعجب وغير ذلك، والتذكيري بغرض التذكير بحقيقة أو بديهية غير مختلف عليها.

أفضل أسلوب لطرح الموضوعات الشائكة وتفكيك الأفكار المشْكلة أو المعقدة هو "أسلوب السؤال"، وهذه حقيقة؛ إذ يطوع في طياته معاني بلاغية وموضوعية تأثيرية مهمة في الحِجاج والحث والتنبيه والتوجيه والإيحاء والتعريض والتوبيخ والتحقير والتقرير والتذكير والاستدراك والاستدراج والتحفيز والتبشير والترغيب والإيناس والإثارة والتشويق، فلا عجب أن نجده أحد الأساليب التي استخدمها أعظم من أوتي جوامع الكلم - وهو النبي صلى الله عليه وسلم - في دعوته، فيُكثر من قوله: "أرأيتم لو...؟"، "ما بال أقوام...؟!"، "ألا أدلكم...؟"، "ألا أنبئكم...؟"، "ألا أخبركم...؟"، "هل تدري...؟"، "أتدرون...؟"، "أترَوْن...؟"... إلخ.

ومن مهارات الكتابة أيضًا؛ الابتعاد عن التَّصَنُّع، والتَّكَلُّف، والتقعر، والتنميق، واستخدام الألفاظ الوحشية والغريبة شاذة الاستعمال، التي لا تستسيغها الأُذن، ولا تأنس بها النفس، وكذلك المُصطلحات الشعبية الرائجة في الحياة العامة أو الثقافة، والتعميمات، والتوصيفات المُبالغ فيها، والجزم بغير ما هو جازم، فهذه الأمور مما تُعقد الفكرة، وتستعدي القارئ، أو كما قال زكي مبارك (١٨٩٢: ١٩٥٢م): "الحرص على الزخرف والتنميق آفة البيان... الكاتب الذي يشغلك بنفسه، فينمق ويزخرف ويعتسف؛ يحولك إلى خصم للفكرة التي ينقلها إليك"[١].

وبعبارة جامعة لكل ذلك ونحوه؛ الحرص على إيضاح العبارة وإيجازها، فلا تُوضح إيضاحًا ينتهي إلى الركاكة، ولا تُوجز

(١) زكي مبارك: الأسمار والأحاديث، وكالة الصحافة العربية ناشرون (القاهرة)، ص ١٧٠.

إيجازًا يُفضي إلى الاستغلاق، يقول الأديب الشهير **مصطفى لطفي المنفلوطي** (١٨٧٦: ١٩٢٤م): "كل كلام صحيح النظم والنسق إذا قرأه القارئ وجد في نفسه الأثر الذي أراده الكاتب منه، بحيث لا يجد فيه مسحة تدل على أن صاحبه يحاول أن يكون فيه بليغا؛ فهو بليغ".

فالبلاغة ليست مجرد تشبيهات وأسْجاع يتم جمعها وترتيبها في عبارات وألفاظ، ولا هي بكثرة المجازات والألفاظ الغريبة النادرة، بل هي الكلام إذا صار نهرًا؛ عذبٌ في طبيعته، سهلٌ في تدفقه، غير متناقض في مساره، واضح في وجهته، غير متكلف في جريانه، وهو ما ميز مثلًا كتابات **علي الطنطاوي** (١٩٠٩: ١٩٩٩م) عن **مصطفى صادق الرافعي** (١٨٨٠: ١٩٣٧م)، مع جلالة الأخير وإمامته في الأدب، لكن طنطاوي كان مستقيم الملكة، يغلب وضوح الألفاظ عنده التشبيه والمجاز، حتى وُصف بالسهل الممتنع، حيث لا تقف الكلمات والعبارات أبدًا - مهما كانت مكثفة المعاني - حائلًا دون فهم النص وتذوقه، أو مانعًا من تدفق الأسلوب وسلاسته، بلا أي تنافر أو إبهام أو وحشية أو انقطاع، أو شاغلًا عن الانفعال للتصورات؛ حتى أنها لتسري في نَفْس القارئ كما سرت في نَفْس طنطاوي، وربما كان ذلك سببًا في غزارة إنتاج طنطاوي مقارنةً بالرافعي.

ومن المفيد أن يُبدي الكاتب رأيه وتقييمه للأفكار بكل وضوح، وبلا أدنى مواربة، فلا يسكن إلى العبارات الرقيقة في مواضع المفاصلة، أو العتاب في مواضع الخصومة، فلا يقتصر على النقل والاقتباس والترتيب والتنظيم وإعادة تناول الأفكار، بل يُظهر انفعاله للأفكار، طالما كان ذلك بلا تعالٍ أو نرجسية.

والنرجسية المقصودة ليست نرجسية تجاه القارئ فقط، بل بالأساس تجاه الأفكار، صحيح أن الكاتب يجب أن يكون ناقدًا جريئًا في مناقشة الأفكار، لكن ثمة حدود لهذه الجرأة، فيلزم أن يحترم المعتقدات الدينية، وأن يكون حذرًا عند مناقشتها، ولا يحط من نفسه بالجرأة على المقدسات، وألا ينجرف للبذاءة سواء في الأفكار أو تجاه الأشخاص مهما كانت الخصومة بينه وبينهم، فإن الألفاظ تترادف، ويقوم بعضها مقام بعض، وما من معنى إلا وفيه ألفاظ السفول وألفاظ الشدة وألفاظ اللين وما يجري بينها، والعاجز مَن أعجزته الحيلة، فلم يهتدِ إلا إلى البذاءة والسفول.

وعلى الكاتب أن يفرض أسلوبه الخاص، وذوقه المُميز، عند صياغة الأفكار، فالكتابة في الحقيقة ما هي إلا انفعال خاصٌ لفكرة، تقول **ديبورا ويلز** Deborah Wiles (١٩٥٣: -)[1]: "الأسلوب مثل الرشاقة؛ لا تستطيع لمسها بيدك، ولكنها موجودة، الأسلوب يأتي عند تعلم تقنيات الكتابة الجيدة، ثم طبعها بالطابع الخاص لكل فرد، إنه يتأتى من العواطف والانفعالات، وحُب الخلق والإبداع"، وفسر ماكس مالوان زوج الروائية الشهيرة **أجاثا كريستي** Agatha Christie (١٨٩٠: ١٩٧٦م) في مذكراته غزارة إنتاجها وسمتها المميز بالحالة الدائمة التي كانت لديها من "الخيال الجامح" الذي مكنها من اختراع الحبكات الغامضة، فلم تستمد كريستي كروائية جرائم؛ أحداث رواياتها من أخبار الجرائد وسجلات المحاكم وتقارير الشرطة،

(١) أديبة وكاتبة أمريكية، تخصصت في تأليف كُتب الأطفال، وحازت عن روايتها الثانية (كل الطيور الصغيرة التي تُغني) على جائزة الكتاب الوطني عام ٢٠٠٥م، وجوائز أخرى، وكانت تتبنى القصص الواقعية، وتقوم بتحويلها إلى أعمال روائية.

كغيرها من الروائيين البوليسيين، صحيح أنها انطلقت في كثير من أعمالها من مشاهداتها أثناء سفراتها المتعددة إلى الشرق مع زوجها بوصفه عالمًا للآثار، لكنها سرعان ما اطلقت العنان لخيالها الخصب لتغادر هذه المشاهدات بعيدًا بلا عودة.

ويلزم أن يكون الكاتب ذا نبرة هادئة في انفعاله وعرضه كما يقول **مارك توين** Mark Twain (١٨٣٥: ١٩١٠م)[1]: "النبرة الهادئة هي لُغة تجعل الأعمى يقرأ والأطرش يسمع".

ومن المراهقة الفكرية اعتقاد أن مِن نضج الكاتب تجنب ألفاظ التأكيد "مؤكد" و"لا بُد" و"يجب" و"يلزم" و"مما لا شك فيه"، فالكاتب إذا كان يعتقد فيما يقول إنه حق؛ فالحق لا يقبل "يحتمل" و"ربما" و"يجوز أن يكون"، ولا يصح للكاتب أن يكون متلونًا أو مداهنًا أو مائعًا، والحق يُشينه لفظ الشك، كما أن الشك تُقبحه ألفاظ التأكيد، فموضع التأكيد لا يجوز فيه الاحتمال، وموضع الاحتمال لا يصح فيه التأكيد، والعاقل من نزل الألفاظ منازلها.

ويلزم مراعاة مواضع الوقف وتقسيم الفقرات، فإن هذا مما يُعين على الفهم والاستيعاب، ويُريح النظر، فلا ينبغي أن تزيد الفقرة عن سبعة أو ثمانية أسطر إلا لضرورة قصوى.

وكما أن بدايات النص يجب أن تكون قوية عظيمة جذابة، فالخواتيم يجب أن تكون أعظم قوةً وأكثر تأثيرًا.

(١) كاتب وروائي ساخر، عُرف برواية (مغامرات هكلبيري فين) التي وُصفت بأنها الرواية الأمريكية الأعظم، وقد نُقلت عنه كثيرٌ من الأقوال المأثورة والساخرة؛ حتى وُصف بأنه أهم الساخرين الأمريكيين، كما لقبه وليم فوكنر بـ "أبو الأدب الأمريكي".

لكن أهم جزء في عملية الكتابة على الإطلاق هو "**المُراجعة**" بعد كل مرحلة من مراحلها، وعدم التهاون في ذلك، يقول **النووي** (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م): "وليحذر أيضًا من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه، وترداد نظره فيه وتكريره"[١]، ويقول **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م): "ولا يضع من يده شيئًا من تصانيفه إلا بعد تهذيبه وتحريره، وإعادة تَدَبره وتكريره"[٢]، ويقول **عبد الرحيم البيساني** (ت ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) المُلقب بالقاضي العادل: "إني رأيت أنه لا يكتُب أحدٌ كتابًا في يومه إلا قال في غده لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيدَ هذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُملة البشر"[٣].

والمراجعة تشمل نواحيَ مختلفة، أهمها: مراجعة تسلسل الأفكار وانتظامها وترابطها، وتجسير الفجوات بينها، ثم التأكد من خلو النص من الأخطاء الإملائية والنحوية، وأخيرًا تهذيبه من الحشو الذي لا فائدة منه، ومن التعبيرات والمُفردات التي يوجد ما هو أفضل منها، وهذا أصعب ما في هذه المرحلة؛ لأن الكاتب لا يواجه فيها

---

(١) يحيى بن شرف النووي: المجموع شرح المهذب، مرجع سابق، ج ١ ص ٣٠.

(٢) أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، مرجع سابق، ج ٢ ص ٢٨٣.

(٣) نُسبت هذه المقولة خطأ **لعماد الدين الأصفهاني** (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، والصحيح أنها من قول القاضي **عبد الرحيم بن علي البيساني** (ت ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) أرسل بها للأصفهاني بمناسبة كلام استدركه عليه، وإنما حدث الخطأ ابتداءً من المؤرخ والأديب المصري **أحمد فريد الرفاعي** (ت ١٩٥٦م)، الذي شهَّر هذه المقولة عندما وضعها في أول كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموي، ونسبها للأصفهاني، ثم تداولها الناس عنه منسوبة إلى الأخير.

قارئه، بل يواجه فيها نفسه، فيجب أن يكون شديد النقد لذاته، شديد المُحاسبة، فيتخلى عن اختياراته لألفاظ وعبارات، وقبْلها عن وقتٍ طويل بَذَلَه في الكتابة، حتى يصل إلى نصٍّ يُرضيه ويُشعره بالفخر.

قال لي د. **محمد يوسف عدس** (١٩٣٤: ٢٠١٧م) قديمًا حاكيًا عن نفسه: "كنت أكتب لنفسي أولًا، ثم أنظر فيما كتبت، فأقرُّ بعضه، وأُنحّي بعضه الآخر لغموض فيه، أو لشعوري بعدم اكتمال نضجه، أو أنه يحتاج إلى مزيد من البحث، هو نوع من التقويم والمراجعة الذاتية، لا بديل عنها لكاتب جاد".

فلا أذكر بعدها أني راجعتُ عملًا إلا وحذفتُ منه، أو أضفتُ إليه، أو صححتُ فيه، فالكاتب الجيد يشعر بإبداعه ويؤمن به، لكنه لا يثق فيه تمام الثقة، ولا يطمئن إلى أنه صار كاملًا، ولا يرضى بأن يوصف بأنه كذلك، لأنه يعلم يقينًا أن ما من كتابٍ بشري إلا وثمة ما هو أجود منه وأفضل يصبو دومًا إليه.

وفي كتاب (نصائح حول الكتابة) يقول **كورت فونيجت** Kurt Vonnegut (١٩٢٢: ٢٠٠٧م)[1]: "إن لم تُضِئ الجملة؛ مهما كانت ممتازة وموضوعة بطريقة جديدة ومُفيدة، فاشطبها".

فهذه العملية العجيبة التي تسمى "المراجعة"؛ اللانهائية في

---

(١) كاتب أمريكي، درس في جامعة كورنيل بولاية نيويورك، حيث درس علم الكيمياء، وكتب في جريدة الطلاب حتى عام ١٩٤٣م، حيث التحق بالجيش في الحرب العالمية الثانية، ثم بعدها التحق بجامعة شيكاغو، وتخرج ليعمل صحفيًا في إحدى الجرائد، وفي عام ١٩٥٢م نشر كتابه الأول بعنوان (البيانو الآلي) عن خطر المجتمع الصناعي، ثم ألف قصصًا عديدةً، حتى تحققت شهرته مع كتاب (المسلخ رقم خمسة) عن الحرب العالمية الثانية، الذي أصدره عام ١٩٧٢م، واستمر في التأليف حتى وفاته.

مداها وأثرها وتأثيرها، هي أساس إكمال الكاتب عمله على النحو الذي يُريده، صحيح أن بعض الكُتّاب - الكبار بالمناسبة - رأوا هذا غير ممكن؛ أي إكمال الكاتب عمله على نحو ما ينشد، وقادهم هذا للامتناع عن النشر، وربما إتلاف أعمالهم، كما نقل د. **عبد الرحمن بدوي** (١٩١٧: ٢٠٠٢م) في تحقيقه لكتاب (الإشارات الإلهية) **لأبي حيان التوحيدي** (ت ٤١٤هـ / ١٠٢٣م)، عن الأخير وعن **فرانز كافكا** Franz Kafka (١٨٨٣: ١٩٢٤م)، اللذين أتلفا كتبهما حسرةً على عدم بلوغها الكمال الذي يُريدانه في ظل الإحساس بعدم جدواها، وربما كان هذا أحد دوافع بدوي نفسه للإكثار من تحقيق الأعمال الرصينة القديمة أو ترجمتها، على حساب التأليف على الرغم مما لديه من إمكانيات لذلك!

لكننا بالطبع **لا نتكلم هنا عن الكمال المطلق، إنما الكمال** المنشود من الكاتب، أو بعبارة أخرى أدق "القناعة المأمولة"، فالمراجعة هي الأداة الوحيدة والضرورية لإشباع هذه القناعة، وحيدة لأنه لا يوجد وسيلة أخرى تحقق ما تحققه، وضرورية لأنه لا غنى عنها للكاتب لإتمام عمله.

وفي عبارة موجزة رائقة يُلخص د. **عبد الوهاب المسيري** (١٩٣٨: ٢٠٠٨م) حدود المراجعة، ومتى يكون إخراج عمل الكاتب للنور؟ يقول: "عندما يستطيع الكاتب قول لا!"، وفي معنى قريب من هذا كانت د. **منى أبو الفضل** (١٩٤٥: ٢٠٠٨م) ترى أن سقف الكاتب هو "لا"، التي يُعبر عنها د. السيد عمر بأنها **"لا التجويدية"**؛ المتعلقة باستفراغ الجهد واستنفاد الطاقة؛ لا جديد، لا شيء يُمكن إضافته!

وبالكلماتِ نفسها، لكن في اتجاه آخر؛ عبر د. **عبد الرحمن بدوي** (١٩١٧: ٢٠٠٢م) عن عدم محدودية الكتابة بقوله: "الكتابة هي (لا) تخشى أن تقول (نعم)! فتسجيلها يُخشى معه إن تحجر؛ أن تستحيل معه (لا) إلى (نعم)"[١]، في إشارة إلى عدم محدوديتها، وأنها فعل يُقيد كثيرًا من جوهرها، وهو لا شك معنى فلسفي لا يُستغرب من مثل بدوي، لكنه لا يتجاوز المجال الفلسفي، فالكتابة - مهما بدت لا متناهية ومهما امتدت حدودها - إذا تجاوزت عالم الورق؛ استحالت إلى شيء آخر غريب بالكلية عنها، والذي يظل لنا من كلمات بدوي أن الكتابة عمل غير متناهٍ في مداه، فلا بُد لها من لحظة زمنية تقف عندها، ربما تكون هي (لا) المسيري التجويدية.

ولا مانع من أن يطرح الكاتب أفكاره وحُججه على بعض مَن يثق فيهم، ويُناقشهم فيها، فبالحوار تتضح الأفكار، وليس ذلك بنقيصة أو مذمة، فقد كان هذا من شيم المؤلفين الكبار، من ذلك أن الكاتب الفرنسي **سِلفستر دي ساسي** Silvestre de Sacy (١٧٥٨: ١٨٣٨م)؛ الملقب بشيخ المستشرقين، والذي كان متيمًا باللغة العربية، وترجم كتاب (مقامات الحريري)، وزوده بشرح باللغة العربية؛ كان يكتب إلى **رفاعة الطهطاوي** (١٨٠١: ١٨٧٣م)، يستشيره في بعض كتبه، وكان مما أجابه به الطهطاوي أول مرة: "آراؤك جيدة؛ لكن لغتك العربية فيها أخطاء"، ثم ما لبث أن نشأت بينهم صداقة، فأرسل له الأخير يستشيره في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، فكلما ازداد الكاتب نضجًا، وكلما ازداد علمًا؛ كان أقبل للتغيير والتصحيح، وأقبل للنقد والنصيحة، وأسرع في تغيير القناعة الضعيفة أو الباطلة

(١) عبد الرحمن بدوي: تحقيق الإشارات الإلهية، مرجع سابق، ج ١ ص كه.

إذا ظهر له ضعفها وبطلانها، ومن أخذ نفسه بالصرامة والصراحة انكشفت له الحقائق.

وأخيرًا؛ أن يُوجِد الكاتب لنفسه البيئة المناسبة للعمل، أو ما يُمكن أن نطلق عليه "**البيئة المعززة**"، أو "**الإثراء البيئي**"، فالكتابة الجيدة لا تتم إلا بالخلو عن الشواغل والمشتتات، فكل صوت مهما دَق هو صوت صاخب في عالم الكتابة، إن عالم الكتابة هو عالم اللاأصوات، لأن الكاتب يحتاج إلى إمعان نظر وتصور، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وهو ما لا يتحقق إلا بتفرغٍ وانقطاع عن الشواغل.

لذلك كان السَّحر في الليل، والبكور في الصباح؛ هي أفضل أوقات شحذ الأفكار وإبداع الكلمات، ومنه يُفهم لماذا تتوالد أعظم الأفكار عند النوم، وتتدافع لتلتقط الكلمات التي تعبر عنها كالتقاط أطيب الثمر، أو كما عبرت د. **داليا سعودي** أستاذة اللغويات الفرنسية ونقد الترجمة: "أظل أدبّج المقالة في نومي، وأرقبُ عقلي وهو يسير بمصباح وسط دغل من الأفكار، متخيرًا الألفاظ، منتقيًا الصور، كما تُلتقطُ الثمار، أنام وعقلي يكتبُ ويكتب.. أناشده أن يهدأ ويسلم نفسه لسلطان النوم؛ فيظل يطارد الفكرة حتى السكرة، وأصحو فإذا برغبة الحياة تعلو على ثرثرات الكتابة**!**".

ولذلك كان كثيرٌ من مشاهير الكُتّاب في الشرق والغرب، قديمًا وحديثًا؛ ينقطعون في صوامع تُشبه صوامع العُباد، لكنهم متبتلون مع الأقلام، عاكفون على الأوراق، اختصر أحد الكُتّاب نصيحته لمن يأملون أن يكونوا كُتّابًا ناجحين: "ابق متمركزًا، الجلوس إلى طاولتك هو وظيفتك الأولى ككاتب، دائمًا يوجد شيء آخر لتفعله،

لا تقم به، تذكَّر أن الوقت المُستهلك في شيء آخر يُعادل عملًا مُنجزًا في الكتابة"[1].

ولذلك أيضًا؛ فإن كثيرًا من المدونات والمصنفات القديمة أوفى جودةً وأدق تأصيلًا وأعمق معنى وأغزر معرفةً، على الرغم من أن المصادر العلمية كانت أقل، والبحث المعرفي كان أشق من أي وقتٍ تلا، فالمصادر الآن أوسع، والبحث أسهل من أي وقت مضى، لكن لن نجد أمتنَ من المؤلفات القديمة، فهي أشد أصالةً ورصانةً وتركيزًا ودقة؛ لأن المشتتات كانت أندر، والشواغل كانت أقل.

ويمكن أن نعد العناصر المتقدمة هي العناصر الأساسية في عملية الكتابة، وكل خلل يصيب جزءًا منها ينتج عنه في المقابل خلل في المنتج المعرفي موضوع التأليف، فالخلل في اللغة ينتج عنه خلل في فهم النص، وفجوة بين النص والواقع، والخلل في المراجعة يؤدي إلى خلل في الربط بين الأفكار، وفجوات في الصياغة، وهكذا.

---

(١) آن باتشيت: لماذا نكتب؟، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

مسألة التبسيط!

"التبسيط" كلمة على قدر ما تحمل من سهولة في المعنى؛ على قدر ما تحمل تعقيدًا في الفعل، وعلى قدر ما لها من أثر في التيسير؛ على قدر ما فيها من صعوبة في التحرير والتعبير، فهي عملية يبحث عنها كل قارئ، ويأملها كل مؤلف؛ لكنها صعبة المنال شاقة الجهد؛ لأنها لا تنبع فقط من بساطة اللغة وجريانها في السطور وتأثيرها السريع في الأفهام، إنما أيضًا تكمن في اختيار الموضوع ومناسبة الأفكار، وفي الأساليب المستخدمة في التعبير، فالحقيقة أن كل أدوات الكتابة ومهاراتها جزء من عملية التبسيط.

فالبساطة في العرض، والسهولة في الطرح؛ ليس لهما علاقة ببساطة المحتوى أو تعقيده، فالشكل لا ينبغي أن يتبع المضمون، أو بمعنى آخر الأفكار المعقدة لا تتطلب تراكيب مُعقدة.

يقول الكاتب الأمريكي روي بيتر كلارك Roy Peter Clark (١٩٤٨: -): "في أغلب الأحيان؛ ينبغي على الكاتب أن يجد طريقة لتبسيط النثر للقارئ، ولنطلق على هذه الاستراتيجية اسم التقريب - في مقابل التغريب - وتتمثل في أخذ الغريب أو الغامض أو المُعقد، وجعله مفهومًا، بل بسيطًا، وذلك من خلال الشرح والتفسير، ما يحدث في الواقع هو أن الكُتاب يميلون عادةً إلى إيصال الأفكار المُعقدة من خلال جُمل وتراكيب مُعقدة".

بل لعل التراكيب المُعقدة هي مما يؤدي إلى تعسير عملية

التعلم وتعقيد العلم، وقد كانت مؤلفات **أبي الحسن البزدوي الحنفي** (ت ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م) في أصول الفقه صعبةً معقدة، حتى أنه كان يُلقب بأبي العُسر لعُسر تصانيفه على الفهم، وعلى العكس من ذلك؛ ففي العلم ذاتِهِ قَدم **ابن الحاجب المالكي** (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٩م) مُؤلفات في غاية السهولة واليُسر؛ حتى سارت بها الركبان لحُسنها وجزالتها، فليس من تعبير صعب إلا ويجري إلى جواره ما هو ألين منه، علمه مَن علمه، وجهله مَن جهله.

ولأن عملية الكتابة أشبه ما تكون بمعركةٍ ينبغي أن يفرض فيها الكاتب سيطرته على أكثر مساحات القارئ خصوصية - وهي عقله؛ فالعبرة ليست بكثرة الكلمات، ولا طول العبارات وكثرة الصفحات، بل بقوة الحُجة، وتأثير الجُمل، وجودة الألفاظ ومناسبتها للمعنى، فالكلمات والجمل القصيرة قد تكون الحل الأمثل حين تكون الأفكار معقدة ومركبة إلى الحد الذي يُهدّد إمكانية فهمها واستيعابها.

يُذكرنا **جورج أورويل** George Orwell (١٩٠٣: ١٩٥٠م) بأهمية تجنب الكلمات الطويلة إذا كانت بدائلها الأقصر كافية، حيث يُمكن للغة البسيطة أن تُسهّل قراءة الحقائق الصعبة، هذه البساطة لا تُعطى للكاتب، بل هي نتاج للمخيّلة والصنعة، إنها "تأثير يُخلق، فالنثر الواضح لا يتوقّف على طول الجمل واختيار الكلمات وحسب، إنه يعتمد في المقام الأول على وجود هدفٍ محدّد، على الإصرار على أن ما يأتي لاحقًا هو الجُهد الذي يتكبّده الكاتب في التبليغ، والبحث، والتفكير النقدي، فلا يمكن أن يجعل الموضوع واضحًا للقارئ ما لم يكن واضحًا في رأسه، بعدها، وبعدها فقط، يُمكن للكاتب أن يفتح علبة أدواته، مستعدًا لأن يشرح للقارئ بأن

الأمر هو هكذا".

ومن باب أولى؛ فإن التبسيط لا يعني التسطيح، فربما تطلبت هذه العملية النحت والاشتقاق والقياس واجتراح المصطلحات والتعبيرات، وهنا تتجلى الإمكانيات والفروقات الفردية للمؤلفين، لاسيَّما في الترجمة والتحقيق والتحرير، وغيرها من **فنون الكتابة الوسيطة** التي تتضمن طرفين أو أكثر من الكُتَّاب، كما انتهج **سامي الدروبي** (١٩٢١: ١٩٧٦م) الأديب السوري والمترجم الحاذق، الذي نقل إلينا روايات دوستويفسكي وتولستوي، لا من الروسية مباشرة، بل عن طريق الفرنسية.

والحقيقة أن جزءًا من عملية التبسيط؛ "**مشاركة الجماهير**" فالكُتَّاب الذين انخرطوا بأفكارهم في المجتمع، فتجاوزوا حدود الأوراق والكتب؛ كانوا أكثر تأثيرًا من نظرائهم في الفكر، ولو سألنا أنفسنا مثلًا على سبيل المقارنة بين النظراء؛ مَن أكثر تأثيرًا وأوسع شهرة في التأليف والكتابة: علي عزت بيجوفيتش أم عبد الوهاب المسيري؟! محمود شاكر أم سيد قطب؟!

بالطبع لا نقصد من المقارنة بيان أفضلية، أو الحكم على المذكورين مدحًا أو قدحًا، إنما بيان التأثير بغض النظر عن الموقف الفكري والأيدلوجي، بالتأكيد بيجوفيتش وقطب أكثر تأثيرًا من المسيري وشاكر، لا لتفوق الأولين فكرًا أو أدبًا، ولكن لارتباط أفكارهم المكتوبة بالتفاعل مع الواقع ومشاركة الجماهير، فيتعمق في همومها، ولا يعلو ببحثه عن أزماتها، ولا تشغله معاركه عن معاركها، أو كما قال **زكي مبارك** (١٨٩٢: ١٩٥٢م): "الكاتب الحق

هو الذي يُنسيك نفسه ليشغلك بنفسك"[1].

ومن السذاجة عدُّ ذلك سقوطًا في فخ الأدلجة، في الحقيقة؛ من السذاجة اعتقاد أن كاتبًا ما يستطيع أن ينفك عن توجهٍ ما؛ لأنه ينحاز دومًا إلى قناعاته، وهو ما يعطي لكل كاتبٍ لونه ومذاقه ورائحته الخاصة، والكاتب هو ابن بيئته، لا ينفصل عن ثقافتها، أليس هذا ما مَيز **محمود درويش** (١٩٤١: ٢٠٠٨م)، وجعل نتاجاته الأدبية تُصنف كأرقى تطبيقات **الأدب الملتزم**[2]؟!

إن الله يُحبُّ مِن المؤمنِ أن ينصرَه بنفسِه وينصرَه بلسانه، وقد تكون نصرتُه باللسان أعظمَ من نصرتِه بالنفس، فبعضُ المعارك لا تُحسم إلا بسيف الحُجة، ولا تُكسب أرضُ العدو فيها إلا بمدفع الإقناع، ولا ينتصر من ينتصرُ فيها إلا بسلاح البينة، فهل تُفضح زيوفُ المناهج الفكرية إلا بالكلمة؟! وهل يواجه كذب المُدلسين إلا بالكلمة؟! وكيف تُنقض عُرى الانحراف والانحلال بغير الكلمة؟! وكيف يُكشف ضلال الشرائع المنحرفة وعوار المناهج الاستشراقية بغير الكلمة؟!

---

(١) زكي مبارك: الأسمار والأحاديث، مرجع سابق، ص ١٧٠.

(٢) مشاركة الأديب الناس همومها الاجتماعية وقضاياهم الوطنية، بكل جرأة ووضوح وإخلاص وحزم، وتحمّل كل تبعة من أجل ذلك، أو كما يقول سارتر Jean P. Sartre (١٩٠٥: ١٩٨٠م): "مما لاريب فيه أن الأثر المكتوب واقعة اجتماعية، ولا بُدّ أن يكون الكاتب مقتنعًا به عميق الاقتناع، إن عليه بالفعل أن يشعر بمدى مسئوليته، وإنه لمسئول عن الحروب الخاسرة أو الرابحة، عن التمرد والقمع، إنه متواطئ مع المضطهدين إذا لم يكن الحليف الطبيعي للمضطهَدين".
جان بول سارتر: الأدب الملتزم، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٦٧م، ص ٤٤: ٤٥.

العلم كلمة، والدين كلمة، بها يدخل من يدخل الإسلام، وبها يخرج منه مَن خرج، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت رضي الله عنه: «اهجهم وروح القدس يُؤيدك»؟! ألم يقل: «إن مِن أعظم الجهادِ كلمةَ حقٍّ عند سلطانٍ جائر»؟! ألم يقل: «سيدُ الشهداءِ حمزة، ورجلٌ قام إلى إمام جائرٍ فأمرَه ونهَاه فقتله»؟! ألم يجعل الذلَّ قرينَ ترك جهاد الكلمة، والعودةَ للدين قرينَ التمسك بجهاد الكلمة؛ فقال: «لتأمُرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطَنَّ عليكم ذلًّا لا يرفعه عنكم حتى تعودُوا إلى دينكم»؟! ولهذا كان ثمنُ كلمة الحقِّ غاليًا ونفيسًا، فكم في التاريخ من كلمة أدخلَت خِلَّها السجن! وكم من كلمة تسببَت في نفي صاحبها في الأرض! وكم من كلمة قدَّمَت قائلَها إلى أعوادِ المشانق! لكن يَنقضِي الزمان، وتبلَى الأجساد، وتبقى الكلمة!

والحال في **الترجمة** - وقريبًا منها **التهذيب** - أشد تعقيدًا، لأن المترجم لا يتحكم في الفكرة، إنما في فهم الفكرة وإفهامها، فهو وسيط بين المؤلف وبين القارئ؛ مجبر على التعامل مع النص بسوءاته وثغراته وتناقضاته، مطالب بسبر أغوار النص الأصلي، والغوص في أعماقه لاكتشاف مراد المؤلف[1]، لذلك تتطلب الترجمة مستوى راقيًا من الثقافة الواسعة، التي تمكن المترجم من فهم مراد الألفاظ ودلالاتها في الثقافة التي ينقل عنها، واكتشاف كل عيب في الموضوع، ووصل كل انقطاعٍ في الأفكار، وإزالة كل

(١) أتذكر في هذا الشأن ترجمة كتاب (التأويل في النص) وهو في فلسفة القراءة والمعنى والنقد الأدبي، من تأليف مجموعة من المؤلفين وتحرير: سوزان روبين وإنجي كروسمان؛ كنموذج صارخ لتعقيد الترجمة الصعبة، فبدلًا من أن يحاول المترجم تبسيط مادة الكتاب الفلسفية بطبعها عقده أكثر وأهدر جزء كبير من قيمته.

تناقض، وتغطية كل نقصٍ عبر الحواشي والتعليقات.

وقد يكون النص على العكس من ذلك؛ قيمًا فريدًا، فيزيد من الأعباء الملقاة على عاتق المترجم في نقله إلى لغة أخرى محافظًا على هذه القيمة وهذه الفرادة، كأنه يُحاكي رسمة، بالطبع لن تكون نسختها المقلدة مساوية ومطابقة تمامًا لنسختها الأصلية، فالكتاب المترجم بمجرد ترجمته يستحيل إلى مادة أخرى مختلفة بصورة أو أخرى، قليلًا أو كثيرًا، عن المادة الأصلية، وبقدر إتقان المترجم بقدر ما يقترب من هذه المادة؛ لكنه لن يطابقها أبدًا مهما تكلف من العناء.

في فنون الكتابة

كُل كاتبٍ مهما بلغت درجة موهبته في صنعة الكتابة؛ يحتاج إلى عددٍ من الأدوات التي تساعده لبلوغ مقصده في إيضاح الفكرة وبيان المعنى، كشأن النجار المُحترف الذي يحتاج لأدوات نشر الخشب، ورسم الخطوط، وصقل الأحرف، وبرد الثقوب، فمهما بلغت مهارة يده وخفتها؛ لا يُمكنه إنجاز عمله دون تلك الأدوات، كذلك الكاتب يحتاج إلى معرفة أمثال العرب نثرًا ونظمًا، ومعرفة المُرادفات والأضداد، والترقيم، وتشكيل ما أُشكِل من الكلام، وتخريج الآثار والأخبار، وغيرها من الفنون والمعارف الجزئية، التي تقوي صنعة الكتابة وتضبطها، والتي صارت في الحقيقة علومًا فرعية لها أهلها في التخصص، ومدوناتها المتخصصة، لكني أعرض منها هنا قدر ما دعت إليه الحاجة في التعريف وإيضاح الأهمية لا أكثر، وما لا يُدرك كله لا يُترك جله.

حول الأمثال:

وهي عبارات مُختصرةٌ، ذات خلفية تاريخية، تورد للدلالة على معان كُلية، وليس في كلام العرب أوجز منها، فإنها - كما قال بعض الأدباء: نهاية البلاغة، إذ جمعت أربع سمات لم تجتمع في غيرها: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسن التشبيه، وجودة الكناية، ذلك أن العرب ارتضت معانيها، وعُرفت واشتهرت ألفاظها حتى سارت بها الركبان، وتحقق لها الشيوع وكثرة الدوران، وهي أبقى من الشعر،

وأشرف من الخطابة، تنفي العجمة، وتهذب الطبع.

يقول **أبو هلال العسكري** (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م): "فإن ذلك يزيد المنطق تفخيمًا، ويُكسبه قبولًا، ويجعل له قدرًا في النفوس، وحلاوةً في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المُذاكرة والاستظهار به أوان المُجاولة، وهو في الكلام كالتفصيل في العقد، والتنوير في الروض، والتسهيم في البرد، فينبغي أن يُستكثر من أنواعه؛ لأن الإقلال منها كاسمه إقلال، وما كان منه مثلًا سائرًا فمعرفته ألزم، لأن منفعته أعم، والجهل به أقبح، ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جُل أساليب القول؛ أخرجوها في أقواها من الألفاظ؛ ليخف استعمالها، ويسهل تداولها، فهي من أجلّ الكلام وأنبله وأشرفه وأفضله، لقلة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مئونتها على المُتكلم، مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها، ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب، والحفظ مُوكل بما راع من اللفظ وندر من المعنى"[١].

فشَنٌّ وافق طبقة يُضرب مثلًا للمتوافقين، والمذبوح لا يألم السلخ يُضرب مثلًا للامبالاة بالضرر، ومواعيد عرقوب مثلًا لكل ما لا يصح من المواعيد، وفيها قال كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلًا
وما مواعيدها إلا أباطيلُ

---

(١) أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٨٨م، ج ١ ص ٤: ٥.

ورجع بخُفَّي حنين مثلًا للخيبة والخسارة بعد جهد، وسمن كلبك يأكلك مثلًا للخيانة وعدم الوفاء، وعند جُهينة الخبر اليقين مثلًا لمعرفة الأخبار وأصالة مصادرها، وجزاء سنمار مثلًا لمن يُجزى بالإحسان الإساءة، وعلى نفسها جنت براقش لمن يتسبب بالأذية لنفسه، وأشأم من بسوس مثلًا للشؤم ونذير الخراب بعدما جرى للعرب من ويلات الحرب التي دامت أربعين عامًا، والتي اشتعلت بسبب ناقة البسوس بنت المنقذ، وهكذا مما شاع وانتشر واشتهر مراده.

وقد عنى الأدباء قديمًا وحديثًا بجمع هذه الأمثال وشرحها، وأشهر الكتب المدونة فيها: (جمهرة الأمثال) **لأبي هلال العسكري** (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م)، و (مجمع الأمثال) **لأبي الفضل الميداني** (ت ٥١٨هـ / ١١٢٤م)، و (المستقصي في أمثال العرب) **للزمخشري** (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م)، وفي العصر الحديث كتب **أحمد تيمور باشا** (١٨٧١ - ١٩٣٠م) رائعته في الأمثال الشعبية (الأمثال العامية)، الذي ضم ما يزيد على الثلاثة آلاف مثل شعبي، أغلبها مصرية، جمعها وشرحها باختصار في سنوات من تعبيرات شاعت على ألسنة المصريين في عصره وقبله.

ويجرى مجرى الأمثال التعبيرات الجزلة المشهورة عن البلغاء والفصحاء، فإنها أشبه بالأمثال في الإيجاز والدلالة على المعاني الإنسانية العميقة، بيد أنها لم تشتهر.

وبالتأكيد أعظم منها في المبنى والمعنى والفصاحة والعذوبة والأثر وقلة التكلف؛ أمثال وحِكم القرآن الكريم والنصوص النبوية، فإنها جوامع الكلم التي لم يُسبق إليها، جمعت المعاني الكثيرة في

كلمات قليلة، يسيرة الحفظ والاستدعاء، حتى عدها المحققون من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

المُرادفات والأضداد:

فأما الأُولى؛ فهي ألفاظ يقومُ بعضُها مَقامَ بعض، وبلاغة الكاتب تعتمد على حصيلته منها، بحيث إذا احتاج إلى إعادة المعنى لتوضيح الفكرة أعاد ما يُعيده بغير اللفظ الذي ابتدأه به، يقول **أحمد بن علي القلقشندي** (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م): "لا خفاء أنه إذا أكثر الكاتب من حفظ الألفاظ اللغوية، وعرف الألفاظ المُترادفة على المعنى الواحد والمُتقاربة المعاني؛ تمكّن من التعبير عن المعاني التي يضطر إلى الكتابة فيها بالعبارات المُختلفة، والألفاظ المُتباينة، وسهُل عليه التعبير عن مقصوده، وهان عليه إنشاء الكلام وترتيبه"[1].

وأما الأضداد؛ فهي الألفاظ التي تقع على ضد بعضها، كالخيانة والأمانة، والجُبن والشجاعة، والجزع والصبر، ونحو ذلك، فإن الكلام كثيرًا ما ينبني على الأضداد، والكاتب يحتاج إلى معرفتها للتحرز من جعل مُقابل الشيء غير ضده، فيفسد المعنى والمقصود من المُقابلة والطباق.

في المصادر والتوثيق:

أحد أهم ميكانزيمات الكتابة هي التوثيق، وهي ترتبط في المقام الأول بتجميع البيانات والمعلومات المُتاحة عن الموضوع، ويُمكن التمييز بين نوعين أساسيين للمصادر:

---

(١) أحمد بن علي الفزاري القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مرجع سابق، ج ١ ص ١٩٩.

(١) مصادر أولية: وهي التي يكون الكاتب نفسه هو مصدر المعلومات فيها، وهي تنقسم بدورها إلى نوعين:

ذاتية: متعلقة بخبراته وتجاربه في الحياة، وهي أكثر تحررًا من الأدوات والمناهج العلمية البحثية، كما هو الحال في كتب السير الذاتية والروايات.

ميدانية: متعلقة ببيانات ومعلومات يقوم الكاتب بجمعها بنفسه من واقع الحياة، وترتبط في الغالب بأدوات ومناهج بحثية خاصة؛ مثل الملاحظة والمقابلة وقوائم الاستقصاء والاستبيان، كما هو الحال في دراسات الأنثروبولوجيا وعلم النفس والاجتماع.

(٢) مصادر ثانوية: والتي يُعبر عنها بالمراجع، وهي مكتبية في الغالب، تتمثل في الكتب، والأبحاث والرسائل العلمية، وأوراق العمل في الندوات والمؤتمرات، والمقالات المنشورة، والأفلام الوثائقية، ونحو ذلك.

وليس ثمَّة أفضلية للمصادر الأولية عن الثانوية، أو العكس، كما قد يتبادر للذهن، فالأفضلية في النهاية إنما هي لمصداقية المعلومة وموثوقيتها، أيًا كان مصدرها.

وبالطبع ليس ثمة حد مُعين للمراجع يتعين على الكاتب استخدامه، إنما يتوقف الأمر على الموضوع وطبيعته، وتختلف أهمية المراجع المُستخدمة تبعًا لدرجة العُمق والتركيز في عناصر الموضوع المُختلفة.

ولا توجد طريقة واحدة للتوثيق، فأساليبه تزيد على خمس وثلاثين طريقة في العالم، إذ هي عملية تقبل الابتكار والإضافة؛

شريطة أن يتحدد عن طريقها مصدر المعلومة المُقتبسة أو المنقولة، وبهذا يُعلم أن التصلب في إلزام الباحثين والكُتاب بأسلوب معين في التوثيق كما يحدث في الجامعات العربية ضد المنهجية العلمية، وليس اتباعًا لها، إنما الاتباع في الحقيقة للمنظومة الغربية التعليمية ليس إلا.

وجرت العادة على أن التوثيق يرتبط بذكر بعض البيانات التي تختلف باختلاف نوع وطبيعة المرجع، فعن الكتاب يُذكر: اسم الكاتب، وعنوان الكتاب، ودار النشر، وسنة النشر، وعن البحث الأكاديمي يُذكر: اسم الباحث، عنوان البحث، ونوعه دكتوراه أو ماجستير، والكلية، والجامعة، وسنة الاعتماد، وعن المقال المنشور يُذكر: اسم الكاتب، وعنوان المقال، واسم المجلة، وجهة إصدارها، وتاريخ النشر، وعن المقال الإلكتروني يُذكر: اسم الكاتب، وعنوان المقال، واسم الموقع، وتاريخ النشر إن وجد، والرابط إذا دعت الحاجة أو كان النص مُترجمًا عن أصل أجنبي، وعن الفيلم الوثائقي يُذكر: عنوان الفيلم، وجهة إصداره، وتاريخ الإنتاج، والرابط إذا دعت الحاجة أو كان المقطع مُترجمًا عن فيلم أجنبي.

وكل هذا مما لا يلزم في شأنه طريقة محددة أو ترتيب مُعين، والحقيقة أن القدر الثابت في كل طرق العزو هي القيم الأخلاقية المرتبطة كليةً بسلوك الباحث أو الكاتب، والتي تفرض عليه الأمانة في النقل والعزو.

حول التلخيص:

"التلخيص" إعادة صياغة المقروء أو المسموع بصورة مُوجزة مُركزة، مُحافظة على الأفكار الرئيسَة للنص الأصلي، بأسلوب شخصي

واضح وصحيح، فهو يتضمن التعبير عن أفكار الكاتب الأساسية ذاتها، لكن بعدد أقل من الكلمات، دون إخلال بالمعنى الأصلي.

وهو أهم مهارات الكتابة والبحث العلمي، وأهميته لا تنبع من المُنتج الفكري الذي يُقدمه فحسب؛ من تبسيط الأفكار، وإعادة صياغتها، وتقديمها بشكل مُختصر، بل لما يُؤدي إليه من إتقان خبراتٍ أخرى مُهمة مثل؛ القراءة النشطة، والفهم والاستيعاب للنصوص، والقُدرة على التعبير والعرض الفعال، وجميعها خبرات لا تُكتسب إلا بالممارسة والتمرن، ولا يوجد مهارة يُمكن أن تكون مصدرًا لاكتساب هذه الخبرات مثل مهارة التلخيص، إذ هي أداة فعالة ومضمونة لمراقبة الفهم والاستيعاب.

وقد كان لهذه المهارة أهميتها الخاصة في تُراث المسلمين، فقد أكثروا من المُلخصات والتهذيبات والمُختصرات في مُصنفاتهم، بل اختصر كثير من كبار الأئمة مُنذ منتصف القرن الثالث الهجري مؤلفاتهم هم أنفسهم، مثلما فعل **محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م)، الذي اختصر كتابه (لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام) في كتابه (الخفيف في أحكام شرائع الإسلام)، و**ابن عبد البر** (٤٦٣هـ / ١٠٧١م) الذي اختصر كتابه القيم (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) في كتابه (التقصي لحديث الموطأ)، المعروف بـ (تجريد التمهيد)، و**عبد القاهر الجرجاني** (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) اختصر كتابه (المغني في شرح الإيضاح) في (المُقتصد في شرح الإيضاح)، و**أبو الفرج بن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٣م) اختصر كتابه (المُنتظم في تاريخ الملوك والأُمم) في (مُختصر المُنتظم).

أما **ابن الحاجب المالكي** (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٩م) وله (منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل)؛ اختصره في (مختصر منتهى السول)، فقد بلغ في هذا الفن مبلغًا عظيمًا حتى صار مضرب الأمثال فيه، ولُقب بصاحب المُختصرين العجيبين، أي مُختصره في الأصول والفقه، فكان ذا قُدرة عجيبة على الاختصار، حتى أنه كان يضن بالفاء أو الواو إذا كانت زائدة يتم المعنى دونها، وكان لديه قُدرة أعجب على إدراج المسائل الكثيرة في الألفاظ القليلة.

و**الذهبي** (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) صنف (تاريخ الإسلام) وهو كتاب كبير جدًّا ثم عمد إلى اختصاره بكتابه (العبر في خبر من غبر)، ثم اختصره أكثر في كتابه (دول الإسلام)، و**ابن حجر** (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) اختصر (ميزان الاعتدال) للذهبي في (لسان الميزان)، ثم اختصر الأخير في (تقويم اللسان)، وكذا اختصر (تهذيب الكمال) في (تهذيب التهذيب)، ثم اختصره في (تقريب التهذيب)، وغيرهم مئات اختصروا لأنفسهم أو لغيرهم مئات الكتب.

وفي العصر الحديث اختصر **عبد الرحمن ناصر السعدي** (١٨٨٩: ١٩٥٦م) تفسيره الشهير (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) في (تفسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)، و**محمد ناصر الدين الألباني** (١٩١٤: ١٩٩٩م) ألف (أحكام الجنائز)، ثم اختصره بـ (تلخيص أحكام الجنائز)، و(التوسل) واختصره بـ (مُختصر التوسل)، والمعجمي اللغوي **منير البعلبكي** (١٩١٨: ١٩٩٩م) ألَّف (المورد) الذي هو أشهر معاجم اللغة الإنجليزية العربية، ثم اختصره بـ (المورد الوسيط) و(المورد القريب) و(المورد الصغير).

وفعلوا ذلك إما لأن أصول هذه المُختصرات كانت موسعة جدًا، فلا تتطلع أكثر الهمم لقراءتها، وإما لأنها كانت متداخلة الموضوعات والأخبار غير مُرتبة، وإما لتقريبها لطُلاب العلم المُبتدئين، أو لتقديم ثقافة عامة في علم من العلوم.

هذا فضلًا عما حققوه في أنفسهم من فوائد علمية ومهارية من ممارستهم لهذا الفن من فنون الكتابة.

وخطوات التلخيص العملية أربعة:

(١) قراءة النص قراءة استكشافية؛ لاستيعاب مضمونه وأهدافه العامة وفكرته المحورية.

(٢) قراءة النص مرة ثانية قراءة متأنية؛ لإدراك مُصطلحاته ومُفرداته، وتحديد الأفكار الرئيسة والفرعية الرئيسة التي تتناولها كل مجموعة من الفقرات.

(٣) التعبير عن الأفكار الرئيسة والفرعية الرئيسة ذاتها بأسلوبٍ مختلفٍ خاصٍّ مُحكم، لا يخل بالمعنى الأصلي، وهي أهم أدوات التلخيص العملية، وتدور حول تقنيات:

الاختيار: انتقاء الأفكار والمعلومات التي يتعين إعادة صياغتها في المُلَخَّص.

الرفض: إزالة الأفكار والمعلومات التي يتعين تجاهلها في عملية التلخيص.

وهاتان التقنيتان تفترضان أن يسبقهما قدر كبير من التركيز في قراءة النص وإدراك مضامينه، وهما تتطلبان في البداية جُهدًا عقليًا كبيرًا، لكن مع مرور الوقت يُمارسهما العقل بكفاءة تلقائيًا.

ويُراعى في هاتين التقنيتين؛ تجنب إضافة أفكار جديدة، وتجنب نقد أفكار الكاتب أو التعليق عليها، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، على أن تُميز بفصلها عن تلخيص النص الأصلي في الهامش مثلًا أو بطريقة ما، وهو أمر مُتكرر في تُراث المسلمين، وتجنب تعديل المعلومات، أو تحريف الأفكار؛ بما يشوه ويُغير المعنى الأصلي، والتعبير عن الأفكار بألفاظ المُلَخِّص، على أنه يُمكن الاستعانة ببعض الألفاظ والتعبيرات في النص الأصلي، كالمُصطلحات العلمية، ومُصطلحات الكاتب الخاصة، مع تمييزها بقوسين أو معقوفين.

وكذلك يلزم استخدام الجُمل القصيرة للتعبير عن عدة جُمل، والتعميمات للتعبير عن الأفكار المُتقاربة، وهذا هو جوهر عمل المُلخص، وفيه تظهر براعته، إذ التلخيص فن استخدام أقل قدر ممكن من الكلمات للتعبير عن أكبر قدر ممكن من الأفكار، ويجب التمييز بين الأفكار الرئيسة، والفرعية الرئيسة، والفرعية، والأفكار المُفسرة الشارحة، والمُؤكدة، والتعليلية، فأهمية كل منها تختلف عن الأخرى، كما يلزم الاستغناء عن الأفكار المُترادفة والمُكررة، والأمثلة والحوارات والنقاشات والقصص والاستشهادات التفصيلية، والجداول والرسومات التوضيحية والأشكال الهندسية، والأخطاء، والحشو، وكل ما لا فائدة كبيرة منه.

وفي الجملة يُفضل ألا يتجاوز المُلَخَّص ثُلث النص الأصلي، أو نصفه على أقصى تقدير، وهو أمر متفاوت، يختلف باختلاف تكثيف النص الأصلي وسياقه المعرفي العام.

(٤) مراجعة المُلَخَّص، للتحقق من تضمنه أقصى قدر ممكن

من أفكار النص الأصلي الرئيسة والفرعية الرئيسة، وكذلك التتابع المنطقي لأفكاره، وتسلسلها، وارتباطها، وسلاسة عرضها كما وردت في النص الأصلي، وخلوها من الأخطاء والتكلفات اللغوية، ومراعاتها لعلامات الوقف والترقيم.

حول العرض والمراجعة:

تختلف عملية عرض الكتب عن تلخيصها، فبينما لا يتدخل المُلخص في عمل المؤلف الأصلي؛ إلا فيما يتعلق بتهذيبه واختصاره باستخدام آليات القبول والرفض؛ يتدخل العارض في مادته باستخدام آليات النقد والتأييد والتحليل، إضافةً إلى آليات التلخيص المُشار إليها، فعمله أوسع من عمل المُلخص.

ويُفضل أن يبدأ الكاتب بانطباعات شخصية أولى، أو ذكرى تجمعه بالمؤلف الأصلي أو الكتاب، قد تكون معرفة أو لقاء شخصيًّا، وقد تكون مناسبة، أو سبب قراءة الكتاب أو عرضه، أو غير ذلك، ثم يعرض معلومات مبدئية عن المؤلف، وعنوان الكتاب، ودار النشر، وسنة النشر، مع التركيز على العوامل النفسية، وتأثيرات التيارات الفكرية، والظروف السياسية، والبيئة الاجتماعية والثقافية التي عاصرت تأليف الكتاب بشكل مختصر، لما لها من أهمية خاصة في التأثير على المؤلف الأصلي، وتكوين شخصيته ونزعته الفكرية، والاهتمام كذلك بسبب تأليف الكتاب.

ويُستحب في البداية أن ينتقي الكاتب مفردات أو عبارات ذات مغزى من مادة الكتاب، لتضع المُستمع على أعتاب العالم الذي هو على وشك الدخول إلى تفاصيله، ثم يُبين نوع الكتاب ومنهجه، هل هو قصصي، سردي تاريخي، نقدي، فكري، أدبي.. إلخ؟ ولماذا تم

تصنيف الكتاب على هذا الأساس؟

ثم يُبيّن البنية السردية والشكل اللغوي والأسلوب الأدبي المستخدم في الكتابة، وتزيد أهمية هذا الجانب في الروايات والكتب الأدبية، وتقل بشكل كبير جدًّا في الكتب العلمية أو السياسية وما إلى ذلك، وكذلك من المهم بيان دور الشخصيات الرئيسة في بنية الكتاب، والمكان والزمان الذي تتفاعل فيه هذه الشخصيات، إذا كان من النوع القصصي أو الروائي، أو من السير الذاتية وما إلى ذلك.

وقبل أن يشرع الكاتب في عمله في عرض مادة الكتاب؛ من الجيد أن يحاول تحديد الفكرة العامة للكتاب وإطاره الفكري والسياق المعرفي العام له، دون تطويل مُمل، أو اختصار مُخل، بحيث يترك في عقل المُستمع صورة بانورامية شاملة لموضوع الكتاب، تلفت نظره للوحدة التي تجمع بين أجزاء الكتاب، وفصوله التي سيتم عرضها، ولا مانع من أن يستعين هنا بمقتطفات من نصوص الكتاب للتأكيد على هدف المؤلف الأصلي.

ثم يعرض الكاتب لموضوعات الكتاب وفق ترتيبه وتسلسله في العرض بشكل مُختصر، يُراعى فيه عرض كل أفكار الكتاب الرئيسة والمهمة، وقد يكون من المفيد في بعض الأحيان ربط العمل المعروض بأعمال المؤلف السابقة، أو الأعمال الشبيهة لغيره، واستنتاج المساحات المشتركة بين تلك الأعمال، ولا مانع من الاستعانة بمعلومات ربما لم ترد في الكتاب نفسه، لكنها تهم القارئ بشدة في شأن مادة الكتاب وموضوعه؛ مما يزيد في ثراء الكم المعرفي الذي يتفاعل معه المُستمع.

ولا ينفك الكاتب في أثناء ذلك أو بعده من عرض وجهة نظره

في الكتاب، ومناقشة المؤلف الأصلي في أفكاره، مُسلطًا الضوء على مدى أهمية موضوعات الكتاب، من خلال بيان مواطن قوته (الأوجه الإيجابية)، ومواضع ضعفه (الأوجه السلبية)، ثم ينتهي من ذلك باستنتاج نهائي، يعرض فيه الفكرة العامة التي رسخت في وجدانه عن الكتاب، والمشكلة التي يُعالجها كمُقابل لفكرة المؤلف الرئيسة.

فسمات وظيفة المراجعة أو النقد إذن تختلف كثيرًا عن وظيفة التلخيص، إذ يُقدم المُراجع استنتاجات وأفكار ووجهات نظر، ويربط الكتاب بمعلومات وملاحظات وبيانات تُعطي المراجعة قيمةً كبيرة تتجاوز قيمة التلخيص بمراحل، ومنه يُفهم قول **جورج طرابيشي (١٩٣٩ : ٢٠١٦م)** في نقده لمحمد عابد الجابري: "كان عليّ أن أقرأ لا كل ما كتبه الجابري، ولا كل ما قرأه أو صرح أنه قرأه فحسب، بل كذلك كل ما لم يصرح أنه قرأه، وما كان يُفترض به أنه قرأه". فالعرض والمراجعة والنقد بطبيعتها أنشطة استيعابية، ليست تفكيكية فحسب.

علامات الترقيم:

لا شك أن علامات الترقيم ليست بقدم اللغة العربية ولا غيرها من اللغات، كما أنها ليست من إبداع العرب، وإنما ظهرت بشكلها الحالي[1] في أواخر القرن الخامس عشر، أو أوائل القرن السادس عشر الميلاديين، بعد فترة وجيزة من اختراع الطابعة التي استلزمت التوقف في الجمل لتوجيه القارئ، ولذلك كانت الفاصلة (،) والنقطة (.) أول العلامات ظهورًا، تلتها الفاصلة المنقوطة (؛) ثم النقطتين

---

(١) وإلا فقد عرف العالم القديم أشكال أخرى من علامات الترقيم كانت تناسب اللغات والحروف آنذاك.

(:)، وتتابعت بقية العلامات، وكان آخرها علامات الاستفهام (؟) والإعجاب (!) بعد سنوات عديدة[١].

ولم تظهر علامات الترقيم في العربية إلا في أوائل القرن العشرين، على يد أحمد زكي باشا المُلقب بشيخ العروبة (١٨٦٧: ١٩٣٤م)، ومن الكتب العربية المفيدة في معرفتها كتاب (الترقيم وعلاماته) لزكي باشا، وكتاب (الإملاء والترقيم) لعبد العليم إبراهيم، وثمة كتب أخرى أيضًا.

وعلى الرغم من أن علامات الترقيم لا تقدم معنى إضافيًا أو تغيره؛ كالتنقيط مثلًا في اللغة العربية، أو التشكيل، أو حروف الجر من باب أولى، فهي مهمةٌ في تنظيم عملية الفهم والربط والفصل والوصل بين الكلام والإبطاء، فهي تؤدي وظائف متنوعة في هذا الشأن يمكن إجمالها في وظيفة "إضافة إيقاع معين على السرد"، وهو ما يُؤثر على الحوادث والشخصيات وعلاقاتها التي يتضمنها النص، وإظهار موقف الكاتب أو المجتمع منها.

ولأن هذا هو ولأن هذا هو دورها الأساسي؛ فثمة مرونة في استخدام كلٍّ منها، فعلامة التعجب مثلًا من العلامات التي اختلف حول استخداماتها، على الرغم من شهرة استعمالها للتعجب، إذ استخدمت أيضًا بعد مواقف الانفعال المؤثرة؛ كالرهبة والدهشة والرغبة والمدح والقدح والاستفهام الاستنكاري.

وحديثًا، أُدخلت عربيًّا علامة المساواة (=) ضمن علامات

---

(١) وفي منتصف القرن العشرين ظهرت علامات أخرى، لكنها لم تشتهر على الإطلاق، من بينها علامة القناعة (؛)، وعلامة السلطة (؟)، وعلامة التزكية (!/)، وعلامة الشك (؟)، وغيرها.

الترقيم؛ للإفادة بتكافؤ المعاني، أو تماثلها، أو تتابعها، أو كون الكلام اللاحق متممًا للكلام السابق، وكان **محمود محمد شاكر** (١٩٠٩: ١٩٩٧م) أول من استخدمها ببعض هذه المعاني في كتابيه (أباطيل وأسمار) وتحقيق (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني.

والذي أميل إليه أن استخدام علامات الترقيم يجب أن يكون منضبطًا مرشَّدًا، فلا تُهمل تمامًا، فيُفضي الكلام إلى ألغاز وأحجية، ولا يُسرف ويُفرَط فيها ويُساء استعمالها فيتأذى تركيز القارئ كما عيُنه، فلا غرابة أن يُنقل عن **برنارد شو** Bernard Shaw (١٨٥٦: ١٩٥٠م) قوله حول الإسراف في بعض علامات الترقيم: "ليس ثمة سبب للاستمرار في تسويد الصفحات بتلك البكتيريا العضوية الغريبة" ووصفها بـ "الخدعة القبيحة والسخيفة"!

والحقيقة أن ترك الكُتَّاب مهمة الترقيم للمنسقين ودور النشر كان سلاحًا ذا حدين؛ فبينما هم خبراء باستعمالاتها إلا أن كثيرًا منهم يُفرطون فيها ويوظفونها توظيفًا مدرسيًا يشتت تركيز القارئ أكثر مما يفيد في ضبط المعنى، وأجمع ما يمكن أن يُقال في استعمالها أن يكون لضبط المعنى لا لأداء واجب الاستعمال وتوزيع علامات الترقيم على النص، وكل ما زاد عن وظيفة "ضبط المعنى" فضرره أكبر من نفعه.

الفَهْرَسة:

الفِهْرس في اللغة: الكتاب الذي تُجْمَع فيه الكتب[1]، ويراد به

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، ج ٤ ص ١٢١.
قال الأزهري: وليس بعربي محض، ولكنه مُعَرَّب، وقال غيره: هو مُعَرَّب فِهْرِسْتْ، وقد اشتقوا منه الفعل فقالوا: فهرس الكتب فهرسة، وجمع الفَهْرَسة: فهارس.

عند المتقدمين من العلماء: الكتاب الذي يجمع أحوال المفهرس، ووقعاته الدهرية، وما صدر عنه من رواية وتصنيف وقصيد، وأشهر من كتب في هذا الفن **ابن خلدون** (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، ثم اتسعت دائرة هذا الفن لتشمل العناية بجمع تراجم أعلام المؤلفين أو غيرهم في حقبة زمنية معينة، أو في إقليم محدد، وذكر تواريخ وفياتهم وولاداتهم وآثارهم، ومثالها: فهرسة القاضي عياض المسماة (الغنية)، وفهرسة عبد الملك بن زيادة الله الطبني، وفهرسة ابن حجر الهيتمي، وفهرسة أبي بكر بن أبي القاسم الأهدل، وفهرسة عيسى بن محمد الثعالبي، وغيرهم عشرات.

لكن مصطلح الفَهْرسة - كما مصطلح التراجم والترجمة في فنون الكتابة - أُعيد توظيفه أكثر من مرة في التاريخ العربي، فاستخدم للدلالة على فن آخر؛ هو ترتيب الموضوعات والأبواب والفصول والمسائل العلمية، والآيات القرآنية، ومتون الأحاديث النبوية، وآثار التابعين والعلماء، والأشعار، وأسماء الأعلام والبلدان والقبائل وغيرها الواردة في مصنف أو أكثر، مرتبة على حروف المعجم، وبطريقة مُرشدة ودالة للقارئ عليها في الكتب والمدونات على اختلاف فنونها وعلومها، ويعرفها د. **محمد سليمان الأشقر** (١٩٣٠: ٢٠٠٩م) في كتابه (الفهرسة الهجائية والترتيب الهجائي): "علم يقوم على ترتيب ألفاظ معيّنة حسب ترتيب معين للحروف؛ للدلالة على مواضع ورودها في كتاب معيّن".

يقول **أحمد محمد شاكر** (١٨٩٢: ١٩٥٨م) في مقدمة تحقيقه

محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزَّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ج ١٦ ص ٣٤٩.

لكتاب (سنن الترمذي): "وهذا عملٌ قيمٌ جليل، لا يدرك خطره وفائدته إلا من ابْتُلِيَ بالعناء في البحث والمراجعة، وعَجَز أو وصل إلى ما يريد البحثَ عنه"، ويقول محمد رشيد رضا: "وهذه الفهارس التي يلحقها الإفرنج بكتبهم، وما يطبعونه من كتبنا؛ مفيدة جدًّا لتسهيل المراجعة على الباحث والمؤلف، ومتى صرنا نعرف قيمة الوقت فإننا نحذو حذوهم فيها"[1].

واشتهر هذا المصطلح على هذا الفن في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حتى صار أصلًا، وادعى البعض أن أول من صنف في هذا الفن هم المستشرقون[2]، لكن الصحيح أن المسلمين سبقوهم في

(١) محمد رشيد رضا: تقريظ ديوان سبط ابن التعاويذي، مجلة المنار، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، ١٦ ذو الحجة ١٣٢١هـ/ ٣ مارس ١٩٠٤م، ص ٩٤٣.

(٢) وغر من قال بذلك أن مطبوعات المستشرقين امتازت بعنايتها بوضع هذه الفهارس، ومن أشهر مصنفاتهم تلك: (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي)، الذي وضعه عدد من المستشرقين بالعربية؛ بناء على مبادرة من المستشرق الهولندي **أرند جان فنسنك** Arend Jan Wensinck (١٨٨٢: ١٩٣٩م)، وكان له عناية بالحديث النبوي، حتى أنه وضع بالإنجليزية معجمًا للألفاظ الواردة في أربعة عشر كتابًا من كتب السنن والسيرة، نقله إلى العربية **محمد فؤاد عبد الباقي** (١٨٨٢: ١٩٦٧م) وسماه (مفتاح كنوز السُّنَّة)، وتوفي فنسنك قبل إتمامه نشر (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي)، فأكمله بعده آخرون، والمستشرق الإيطالي **جوزبي غبريالي** Giuseppe Gabrieli (١٨٧٢: ١٩٤٢م)، وكان أمينًا لمكتبة مجمع لنشاي بإيطاليا، فعمل على ترتيب مخطوطاتها العربية والإسلامية، ووضع فهارس (الوافي بالوفيات) للصفدي، وتعاون مع الأمير كايتاني في وضع (معجم الأعلام العربية الاسلامية) بالإيطالية، والمستشرق الإنجليزي **مرجليوث** Margoliuth (١٨٥٨: ١٩٤٠م) الذي وضع فهارس لديوان (أبي تمام) وديوان (سبط ابن التعاويذي) لأبي الفتح محمد بن عبد الله، و (رسائل أبي العلاء المعري) لأسماء الرجال والنساء والقبائل والحيوانات، وأسماء الأماكن والبلاد، والاصطلاحات العروضية، وأسماء النجوم، والألماني **فريدريش ديتريشي** Friedrich Dietrici (١٨٢١: ١٩٠٣م) أستاذ العربية في برلين؛ نشر (شرح ديوان المتنبي) للواحدي، ووضع له فهارسه، كما وضع المستشرق الإيطالي **جويدي أغناطيوس** Guidi

معرفته، ووضعوا الفهارس المُعجَمة منذ القرن الرابع الهجري، وعنوا بترتيب كتب الأحاديث ورجالها، ومفردات القرآن الكريم واللغة العربية وسائر العلوم ضمن معاجم على حروف الهجاء[1]، من ذلك ما فعله **مبارك بن محمد الجَزَري الشهير بابن الأثير** (ت ٦٠٦هـ / ١٢٣٣م) في كتابه (جامع الأصول في أحاديث الرسول)[2]، ورتب

Ignazio (١٨٤٤ : ١٩٣٥م) أستاذ العربية في الجامعة المصرية؛ جدول كتاب (الأغاني الكبير) في أربعة فهارس لأسماء الشعراء والرجال والنساء والقوافي والقبائل والأمكنة، ووضع الألماني **فل** فهارس تفصيلية لتفسير (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للبيضاوي، والمستشرق **فان فلوتن** Gerlof van Vloten (١٨٦٦ : ١٩٠٣ م) وضع فهارس تفصيلية لكتاب (مفاتيح العلوم) لأبي عبد الله الخوارزمي، وغير ذلك من فهارسهم ومصنفاتهم، ولا سبيل إلى حصرها هنا، والحق أن المستشرقين تفننوا في أنواع الفهارس، وامتازت مطبوعاتهم بعنايتها بهذه الفهارس.

(١) يوسف عبد الرحمن المرعشلي: علم فهرسة الحديث: نشأته، تطوره، أشهر ما دُوِّنَ فيه، دار المعرفة (بيروت)، ص ٢١.

يقول د. محمد أحمد الغمراوي: "فالعرب هم أسبق الأمم قاطبة إلى القواميس تأليفًا واستعمالًا للترتيب الهجائي فيها، ومع ذلك فإن المتأدّبين يعتقدون أن الترتيب الهجائي شيءٌ ابتدعه الإفرنج، واختصت به القواميس الإفرنجية".

محمد أحمد الغمراوي: مرشد المتعلم، ص ٢٧٦.

ويقول د. **عبد الفتاح أبو غُدّة** (١٩١٧: ١٩٩٧م) في تعليقه على مقدمة أحمد شاكر وتحقيقه لكتاب (جامع الترمذي): "المسلمون هم الذين قاموا بابتكار الفهارس العامة قبلَ وجودِ الاستشراق والمستشرقين، فقاموا بصُنْعِ الفهارس للمضمونِ وللكلمة، وللأسماء، والكنى، والألقاب، وللرجال، والنساء، وللأسماء الصريحة، والمُبْهمة، بحيث يُصيبُ الباحثُ طَلِبَتَهُ في الكتاب المفهرَسِ، ولا يَشِذُّ عنه من مطلوبه شيء... وفي هذا تبصيرٌ وتعريفٌ لمن ظَنَّ من شبابنا المتعلّمين أن الفهارس العامّة للأطراف... والكلمات من ابتكار المستشرقين الغربيين، وما ذلك إلا لقصور في الاطلاع، وانقطاع عما خلّفَهُ الآباءُ والأجدادُ من التراثِ العلمي المجيد، ولقد كَتَبَ علماؤنا السابقونَ، ودوّنُوا وتفنّنُوا في كل شيء، حتى صَدَقَتْ فيهم الكلمةُ المشهورة القائلة: ما تَرَكَ الأولُ للآخِرِ".

(٢) حيث عزا جملة من الأحاديث على الألفاظ المشهورة فيها، تصل لنحو ألف وأربعمائة كلمة مرتبة على حروف المعجم على نحو:

عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرَّازِيَاني المعروف بالعراقي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) من له ذكرٌ تجريح أو تعديل في كتاب (بيان الوهم والإيهام لابن القطان) على حروف المعجم.

وعلى الرغم من أن الفهرسة الآن أضحت مؤسسية؛ من مهمات دور النشر، فإنها تكاد تقتصر تقريبًا على الكتب التراثية، وهي من الأهمية بمكان فعلًا في هذه النوعية من الكتب، لكن مهمة أيضًا في غيرها من الكتب؛ كالتاريخية والعلمية في المجالات المختلفة؛ سياسية واقتصادية واجتماعية، وحتى الأدبية، وتقل أهميتها أو بالأحرى تنعدم بطبيعة الحال في الروايات والقصص لطبيعتها المختلفة.

والحقيقة أن المؤلف أدق من يُفهرس لكتابه، لاسيَّما مع اختفاء وظيفة المفهرس حديثًا، التي كانت ذائعة الصيت في منتصف القرن العشرين وقبله في المجتمع العلمي العربي، فأغلب دور النشر تعد الفهرسة عن طريق تطبيقات الكمبيوتر التي لا تتسم بالدقة، وبالطبع فإن العمل البشري أيضًا تتوقف دقته على قدر جهد الحصر والاستقصاء المبذول في الفهرسة، خاصةً في الكتب التي تتسم بكثافة معلوماتها حول الأسماء والأعلام والمصطلحات، وعن أهمية ذلك يقول د. **محمود الطناحي** (١٩٣٥: ١٩٩٩م): "الكتب بلا فهارس كنز بلا مفتاح!".

الاتكاء على إليَة اليد: في الفصل الثالث من كتاب الصحبة في الفرع السادس منه.
الأرواح جنود مجندة: في الفصل الخامس من كتاب الصحبة في الفرع السابع منه.
انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا: في الفصل السادس من كتاب الصحبة في الفرع الثالث منه.
وهكذا، إلى آخر ما أورد، ثم اتبع ذلك بفهارس للأعلام الذين ذكروا في الكتاب مع تراجمهم.

خاتمة

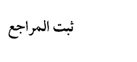
إننا مهما حاولنا الاستفاضة في الكلام عن القراءة والكتابة، ومهاراتهما وأوهامهما وحقائقهما وتجاربهما؛ لن نستطيع أن نعرض إلا جزءًا يسيرًا، فهما من الموضوعات الحياتية التي تختلف بتنوع الممارسات الإنسانية، فرغم أن لمهاراتهما حدًّا أدنى من الأسس فإن حدها الأعلى لا حدود له ولا قوانين.

وبالطبع يصدق هذا في الكتابة أكثر من القراءة، فالكتابة بحر لا شُطْآن له، إذ تعتمد على الخيال والإلهام والتفتيش والبحث، وكلها أمور تختلف باختلاف الاستعداد والتحدي، ومن الأسرار أنها لا تنتهي حتى بالنسبة للكاتب نفسه، فكلما قرأ وأعاد قراءة ما كتب؛ عدَّل وجوَّد وحذف وأضاف.

ومهما أخبروك عن تجاربهم الشخصية في القراءة والكتابة، وقوانينهم في تعلمهما، وفروضهما وافتراضاتهما، ومهما حضرت نواديهما ومجالسهما؛ ستظل ممارستك لهما أساس انطلاقك فيهما وإبداعك لهما، وعلى قدر ما تعطيهما من الوقت، والتثقف، وتفرغ القلب؛ سيكون قدر ما تُعطى من الفوائد والثمار.

وأخيرًا، فأي ثقافة في العالم، تحتاج إلى القارئ الجيد والكاتب الجيد أكثر من أي شيء، إنهما سر بقاء هذه الثقافة وتخليدها، والأداة الأهم في نقلها إلى الآخرين، فالقراءة والكتابة، وهما وجهان لعملة واحدة؛ لا تنقلان اللغة فقط، بل تنقلانها محملةً بالأفكار والمشاعر،

وهذا جوهر خطورة الكتابة إذا لم تعبر عن الثقافة الأصيلة لأصحابها أو تنظر إلى الثقافات الأخرى بعيون هذه الثقافة.



ثبت المراجع

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية: محمد بن مُفْلِح بن مفرج المقدسي الحنبلي (ت ٧٦٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرناءوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٩٩٩م / ١٤١٩هـ

(٢) الأحكام الشرعية الكُبرى: عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي المعروف بابن الخراط (ت ٥٨١هـ)، تحقيق: حسين عكاشة، مكتبة الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى ٢٠٠١م / ١٤٢٢هـ

(٣) أدب الكتاب: محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ)، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية (مصر)، والمكتبة العربية (بغداد)، ١٣٤١هـ

(٤) الأدب الملتزم: جان بول سارتر Jean P. Sartre (١٩٠٥: ١٩٨٠م)، ترجمة: د. جورج طرابيشي، دار الآداب (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٦٧م

(٥) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء): ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٩٣م / ١٤١٤هـ

(٦) أسباب التأليف عند العرب: دراسة أدبية لآراء القدماء والمحدثين (مقال): قاسم خلف مشاري السكيني، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، العدد ٢، المجلد ٤٣، ٢٠١٨م

(٧) الأسمار والأحاديث: زكي مبارك، وكالة الصحافة العربية ناشرون (القاهرة)

(٨) الإشارات الإلهية: أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ / ١٠٢٣م)،

تحقيق: عبد الرحمن بدوي (١٩١٧: ٢٠٠٢م)، مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، طبعة ١٩٥٠م

(٩) أشهر ٥٠ خرافة في علم النفس: هدم الأفكار الخاطئة الشائعة حول سلوك الإنسان: سكوت ليلينفيلد وآخرون، ترجمة: محمد رمضان داود وإيمان أحمد عزب، دار كلمات (القاهرة)، الطبعة الأولى ٢٠١٣م

(١٠) إعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٩١م / ١٤١١هـ

(١١) إنباء الغمر بأبناء العمر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، تحقيق: د. حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة)، ١٩٦٩م / ١٣٨٩هـ

(١٢) التأويل في النص: مقالات في الجمهور والتأويل: مجموعة من المؤلفين، تحرير: سوزان روبين سليمان، وإنجي كروسمان، ترجمة: د. حسن ناظم، وعلي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م

(١٣) تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية

(١٤) تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠: ١٩٣٧م)، دار الكتاب العربي (بيروت)، الطبعة الرابعة ١٩٧٤م / ١٣٩٤هـ

(١٥) تاريخ القراءة : ألبرتو مانغويل Alberto Manguel (١٩٤٨م:

-)، ترجمة: سامي شمعون، دار الساقي (بيروت)، الطبعة الرابعة ٢٠١٤م

(١٦) تاريخ بغداد: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، دار الكتب العلمية (بيروت)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ

(١٧) تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر (بيروت)، ١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ

(١٨) تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن: عبد العظيم بن ظافر الملقب بابن أبي الأصبع (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، تحقيق: حفني شرف، دار إحياء التراث

(١٩) تغليق التعليق على صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، تحقيق: سعيد عبد الرحمن القزقي، المكتب الإسلامي (بيروت)، ودار عمار (عمان)، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ

(٢٠) تقريظ ديوان سبط ابن التعاويذي (مقال): محمد رشيد رضا، مجلة المنار، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، ٣ مارس ١٩٠٤م/ ١٦ ذو الحجة ١٣٢١هـ

(٢١) تقييد العلم: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، إحياء السنة النبوية (بيروت)

(٢٢) تناقضات المؤرخين: دراسة التاريخ في زماننا: بيتر تشارلز هوفر، ترجمة: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة (القاهرة)، الطبعة الأولى ٢٠١٣م

(٢٣) تهذيب الأسماء واللغات: يحيى بن شرف النووي الشافعي

(ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م)، دار الكتب العلمية (بيروت)
(٢٤) تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)، مطبعة دائرة المعارف النظامية (الهند)، الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ
(٢٥) الجامع المُسند الصحيح المُختصر (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، تحقيق: محمد زهير ناصر الناصر، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي (١٨٨٢: ١٩٦٧م)، دار طوق النجاة (بيروت) عن المطبعة الأميرية (بولاق)، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ
(٢٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله بن عبد البر (٤٦٣هـ / ١٠٧١م)، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي (السعودية)، الطبعة الأولى ١٩٩٤م / ١٤١٤هـ
(٢٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧١م)، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف (الرياض)
(٢٨) جمهرة الأمثال: الحسن بن عبد الله بن سهل المعروف بأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٨٨م
(٢٩) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أحمد بن عبد الله بن إسحاق المعروف بأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت) عن مطبعة السعادة (مصر)، طبعة ١٤٠٩هـ
(٣٠) حياتي: أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (القاهرة)، ٢٠١٢م

(٣١) الحيوان: عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ

(٣٢) خزانة الكتب الجميلة: كيف نقرأ؟ ولماذا؟: أحمد الزناتي، دار كلمات (الكويت)، الطبعة الثالثة ٢٠١٨م

(٣٣) خزانة كتب شخصية في حديثة الموصل: تعليق على نص من كتاب الفهرست لابن النديم: محمد نزار الدباغ، دراسات موصلية، العدد ٤٢، فبراير ٢٠١٣م / ذو الحجة ١٤٣٤هـ

(٣٤) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، دائرة المعارف العثمانية (صيدر أباد)، الطبعة الثانية ١٩٧٢م / ١٣٩٢هـ

(٣٥) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م)، تحقيق: محمود محمد شاكر (١٩٠٩: ١٩٩٧م)، ٢٠٠١م

(٣٦) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي المعروف بابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٨٨م / ١٤٠٨هـ

(٣٧) ذيل طبقات الحنابلة: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م)، تحقيق: د. عبد الرحمن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان (الرياض)، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م / ١٤٢٥هـ

(٣٨) رسائل ابن حزم الأندلسي: علي بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م)، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٨٣م

(٣٩) روضة المُحبين ونُزهة المُشتاقين: محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ١٩٨٣م / ١٤٠٣هـ

(٤٠) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق المعروف بأبي داود السِّجِستاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناءوط ومحمد كامل قره بللي، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي (١٨٨٢: ١٩٦٧م)، دار الرسالة العالمية (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م / ١٤٣٠هـ

(٤١) سنن الدَّرامي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدَّارمي (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المغني (السعودية)، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م / ١٤١٢هـ

(٤٢) سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م)، تحقيق: شعيب الأرناوط، مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م / ١٤٠٥هـ

(٤٣) شرح السير الكبير: محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م)، الشركة الشرقية، ١٩٧١م

(٤٤) شرف الطالب: أحمد بن حسن بن الخطيب المعروف بابن قنفذ القسمطيني (ت ٨١٠هـ)

(٤٥) شمس العرب تسطع على الغرب: سيجريد هونكة Sig-rid Hunke (١٩١٣: ١٩٩٩م)، ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، دار صادر (بيروت)، الطبعة الثامنة

(٤٦) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)

(٤٧) صيد الخاطر: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٣م)، تحقيق: حسن المساحي سويدان، دار القلم

(دمشق)، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م / ١٤٢٥هـ
(٤٨) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت)
(٤٩) طبقات الحنابلة: محمد بن محمد المعروف بابن أبي يعلى (ت ٥٢٦هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة (بيروت)
(٥٠) طبقات الشافعية الكُبرى: عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السُّبكي الشافعي (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي (١٩٣٥: ١٩٩٩م) ود. عبد الفتاح محمد الحلو (١٩٣٧: ١٩٩٤م)، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ
(٥١) الطبقات الكبرى: محمد بن سعد البغدادي بن منيع المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٦٨م
(٥٢) طبقات النسابين: بكر بن عبد الله أبو زيد (ت ١٤٢٩هـ)، دار الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى ١٩٨٧م / ١٤٠٧هـ
(٥٣) العاقل الذي ركل رأسه: أحمد الزمام، دار كلمات (الكويت)، الطبعة الأولى ٢٠٢٠م
(٥٤) عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء: إحسان عباس، دار الشروق (عمان)، الطبعة الأولى ١٩٨٨م
(٥٥) علم فهرسة الحديث: نشأته، تطوره، أشهر ما دُوِّنَ فيه: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة (بيروت)
(٥٦) العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال

(٥٧) الفروق اللغوية: الحسن بن عبد الله بن سهل المعروف بأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة (القاهرة)

(٥٨) الفهرست: محمد بن إسحاق بن محمد الوراق المعروف بابن النديم (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)، دار المعرفة (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٩٧م / ١٤١٧هـ

(٥٩) قرية تحاور العالم: حوارات أدبية عالمية: عبد الله الزماي، دار كلمات (الكويت)، الطبعة الأولى ٢٠١٨م

(٦٠) كيف نقرأ؟ ولماذا؟: هارولد بلوم Harold Bloom (١٩٣٠: ٢٠١٩م)، ترجمة: نسيم مجلي، المركز القومي للترجمة (القاهرة)، الطبعة الأولى ٢٠١٠م

(٦١) لسان الميزان: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)، تحقيق: د. عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م

(٦٢) لماذا نكتب؟: مجموعة كتاب ومؤلفين غربيين، تحرير: ميريدث ماران Meredith Maran، ترجمة مجموعة من المترجمين، الطبعة الأولى ٢٠١٤م / ١٤٣٥هـ

(٦٣) المُجتبى من السنن (السنن الصُغرى): أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية (حلب)، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية ١٩٨٦م / ١٤٠٦هـ

(٦٤) المجموع شرح المُهذب: يحيى بن شرف النووي الشافعي (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م)، أكمله علي بن عبد الكافي السُبكي (ت ٧٥٦هـ)، ثم محمد نجيب المُطيعي (ت ١٤٠٦هـ)، دار الفكر

(بيروت)
(٦٥) مرشد المتعلم: محمد أحمد الغمراوي
(٦٦) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٩٨م / ١٤١٨هـ
(٦٧) المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بالحاكم (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٩٠م / ١٤١١هـ
(٦٨) مسند أحمد: أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٩٨م / ١٤١٩هـ
(٦٩) المسند الصحيح المُختصر (صحيح مسلم): مُسلم بن الحجاج بن مسلم القُشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي (١٨٨٢: ١٩٦٧م)، دار إحياء التراث العربي (بيروت)
(٧٠) المصنف: عبد الرزاق بن همام بن نافع اليماني الصنعاني (ت ٢١١هـ)، المكتب الإسلامي (بيروت) عن المجلس العلمي (الهند)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ
(٧١) المصنف في الأحاديث والآثار: عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي المعروف بأبي بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد (الرياض)، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ
(٧٢) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية

(القاهرة)، الطبعة الثانية
(٧٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة: يوسف بن إليان سركيس (ت ١٣٥١هـ)، مطبعة سركيس (مصر)، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م
(٧٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي (١٩٠٧: ١٩٨٧م)، دار الساقي (بيروت)، الطبعة الرابعة ٢٠٠١م/ ١٤٢٢هـ
(٧٥) ملاحظات حول كوكب متوتر: مات هيغ، ترجمة: محمد الضبع، دار كلمات (الكويت)، الطبعة الخامسة ٢٠٢٠م
(٧٦) مناهج التأليف عند العلماء العرب: مصطفى محمد الشكعة، دار العلم للملايين (بيروت)، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٤م
(٧٧) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت ٥٦٢هـ)، تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر، دار عالم الكتب (الرياض)، الطبعة الأولى ١٩٩٦م/ ١٤١٧هـ
(٧٨) المنهل العذب الرَّوي في ترجمة قطب الأولياء النووي: محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م / ١٤٢٦هـ
(٧٩) موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين (بيروت)، ١٩٩٣م
(٨٠) الموطأ: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م)، رواية: محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ/ ٨٠٥م)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية، الطبعة الثانية
(٨١) نثر الجواهر والدرر في تراجم علماء القرن الرابع عشر : يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م / ١٤٢٧هـ

(٨٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردي، دار الكتب المصرية (القاهرة)، ١٩٦٣م
(٨٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب: محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث (القاهرة)، الطبعة الثالثة ١٩٩٩م
(٨٤) الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناءوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث (بيروت)، ٢٠٠٠م / ١٤٢٠هـ



إن الحديث عن القراءة والكتابة صعب وسهل؛ صعب يَنُع وسهل ممتنع، وصعوبتهما لا تكمن في الفكرة ولا الموضوع، إنما في رفض الجمهور لنصائح القراءة والكتابة؛ ربما بسبب الفوضى الكبيرة في هذه النصائح حتى صارت ميدانًا واسعًا للإفتاء والتدريس والدعوة؛ فقليل يقرأ وكثير ينصح، كثير يكتب وقليل يُتقن!

في هذا الكتاب ما خفي من أخبار المكتبات وقصص المؤلفين، أهم أقوال الكُتّاب وأجلّها، غرائب الكُتب وفرائد الكتابة، ما حُرق وما احترق، ما أُتلف وما غرق، هنا نحو مائتي قصة قصيرة وفوق مائتي مقولة ثمينة. لكن لا تعتقد عزيزي القارئ أنك بعد قراءة هذا الكتاب؛ ستصبح كاتبًا جيدًا أو قارئًا متمرسًا؛ فما أضمنه لك هو أن تعرف أشياء جيدة - من واقع الحياة والتجربة والتاريخ - عن الكتابة وأخرى عن القراءة؛ تُميز بها بين الحقائق والأوهام والخرافات في عالمهما، وفي هذه اللحظة الواعية المدركة التي تتمكن فيها من التمييز بين هذه الأشياء الثلاثة تأكد أنك أصبحت مؤهلًا لتكون كاتبًا عظيمًا وقارئًا أعظم!

د. محمد وفيق زين العابدين

عمل قاضيًا بالمحاكم المصرية من ٢٠٠٢ وحتى ٢٠١٦، ثم مديرًا تنفيذيًا للمعهد الدولي للإنسانيات والعلوم الاجتماعية بالكويت حتى عام ٢٠١٩، تخرج من كلية الحقوق بجامعة المنصورة عام ١٩٩٩، وحصل على الدكتوراه في فلسفة القانون الجنائي من ذات الكلية والجامعة، ودرجتي الماجستير في الاقتصاد الإسلامي من المعهد العالي للدراسات الإسلامية بالقاهرة وفي القانون الخاص من كلية الحقوق بجامعة المنصورة، ودبلومي الفلسفة الإسلامية والغربية من كلية الآداب بجامعة القاهرة، والأنثربولوجيا من كلية البحوث والدراسات الإفريقية بذات الجامعة.

صدرت له من المؤلفات: حكمة التشريع وفلسفته، الشريعة والتحديث: مباحث وحقائق تاريخية في قضية تقنين الشريعة وتطبيقها، معركة الشريعة في الدستور، الشريعة المعجزة.

حصل على جائزة مجمع البحوث الإسلامية عام ٢٠١٣ في "الإعجاز التشريعي"، وله عدد من المشاركات في المؤتمرات الدولية والبحوث في الدوريات العلمية.



